شخصية المسيح
نبي الحب

إعداد
محمودالقليني

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٢٤٢	القليني ، محمود .
ا. م	شخصية المسيح نبي الحب / محمود القليني.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع .
	٣٥٦ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
	تدمك : ٩٧٨ – ٩٧٧ – ٣٠٨ – ٦٧٠ -١
	١. الأنبياء . ٢.المسيح - الشخصية.
	أ - العنوان

رقم الإيداع : ٥١٨٦ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتـف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com ، elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

محتوى الفهرست

المقدمة

تلك محاولة - أرجو أن تكون موفقة –للاقتراب الحميم من شخصية جليلة أرقت الإنسانيةَ، وأرهقتها الإنسانيةُ .

أما إنها أرقت الإنسانية– ومازالت - فلأنها فرطت – كثيرا – في حق هذا الرسول ، وقصرت في أن تحسن استقبال فيوض أنواره ، وتفتح عقلها وقلبها لكلماته التي تشق طرقا وسبلا من النور والهداية والرشاد في ظلمات الحياة الإنسانية ، وقبضت يدها دون يده المبسوطة لها في كرم وسخاء ، ليأخذها إلى ملكوت الأمن والسلام ، الذي وعدها به إذا هي أسلمت أمرها إليه ، مع أنه لا يكلفها من أمرها عسرا ، وربما هذا هو سبب أرقها كلما استحضرت المسيح في لياليها الحزينة ، فقد كان يعاملها كأنها طائر مهيض الجناح ، حاول أن يجبر كسرها ويشفي أمراضها ويغني فقراءها ويحنو على بؤسائها ، ويقبل التوبة ويصفح ، ويغفر أخطاءها وذنوبها ، ويحررها من أصفادها ، ويخلصها من أثقالها، ويحي مواتها ، ويثري وجودها ، ولكن حال الإنسانية – اليوم – يدل على أنها أخطأت – بإرادتها – الطريق إلى المسيح .

وأما أن الإنسانية أرهقته ،فلأنها لم تنتفع بوجوده بينها ، لذلك قال في أحد المواقف : (نفسي حزينة)، لأنه كان يأمل أن يخلق الإنسانية خلقا آخر ، ويصوغ الوجود صياغة جديدة ، ويجعل حياة الإنسان حياة جميلة ، تضمخها عطر المودة، ويشيع فيها النور والدفء ، وينشر فيها الحب والسلام ، ويكون الناس أخوة متحابين متعاطفين ، لا أعداء كارهين مبغضين .

وما أدرانا ؟

لعله ما زال يأمل في أن تنتفع الإنسانية بميراثه وميراث الأنبياء من قبله ومن بعده .

ولعل ما يزال رجاء أن تحقق الإنسانية أمل ابن من أعظم وأجل وأنبل أبنائها !

الباب الأول
في هذا الكتاب

لن نمس لا من قريب ولا من بعيد أي خلافات أو اختلافات حول عيسى عليه السلام، وإنما هدفنا أن نرسم أو نخطط ملامح وسمات تلك الشخصية النبيلة الراقية السامية ، والتي أهدتها السماء لأهل الأرض ، لتمكث حينا تنشر عبقا قدسيا وأريجا سماويا ، أو لتعيد لهذا الوجود قوامه ، أو تهدي للإنسانية مفهوما جديدا لمعنى الحياة ، لقد كان كالنجم الساطع أو كالشهاب الثاقب في سماء الطهر والنقاء ، ظهر فجأة واختفى فجأة ، ولكن ما بين ظهوره واختفائه ، تبدلت وتغيرت الإنسانية ،وخلقت خلقا أخر ، وما زال يرسل ضوئه من أعماق ضمير الإنسانية يهتدي به من شاء الهدايه ، ويقتدي به من أراد المثال والنموذج ، ومع أنه مضى على مولده ألفان من السنوات ، إلا إني أخال أن الإنسانية – للآن – لم تقتبس منه ما أراد لها أن تقتبسه ، ولا تعلمت منه ما أراد أن تتعلمه ، ولا استرشدت به ما أراد لها الرشاد والهداية .وكأن قدر عيسى عليه السلام أن يظل في زمنه وبعد زمنه – وكل الأزمنة – أمنية عزيزة ، تظل الإنسانية تتطلع إليها تتراءى لها حينا ، تقترب منها حينا ، تبتعد عنها حينا ، تشغل بها حينا ، وتنشغل عنها أحيانا، ولكنها أبدا لم تصل إليها ، وكأني بعيسى نفسه عليه السلام كان يعلم وهو يعظ ويتحدث لمن حوله ومع من حوله معلما ومرشدا وهاديا ومربيا ومبصرا ، أن من العسير على الإنسانية أن تصل إلى ما يريده ، وأن تتمثله أفعالا وأسلوب حياة .

من العسير !

إذن عيسى يشق على الإنسانية، ويكلفها ما لا تطيق ، ويحملها ما لا تقدر على تحمله .

نعم .

فمتى كان عمل الخير من السهل والميسور ؟

متى كان الإيثار من السهل والميسور ؟

متى كان العفو عن الأعداء والإحسان إليهم من السهل والميسور ؟

متى كان التسامح مع الخطاة والمذنبين من السهل والميسور ؟

متى كان الوقوف أمام سلطان الكذب والنفاق والتدليس والزور والبهتان من السهل والميسور ؟

متى كان فطم النفس عن الأهواء والشهوات والغرائز من السهل والميسور ؟

متى كان كف النفس عن الغرور والتكبر والعُجب والاستعلاء والظلم من السهل والميسور ؟

نعم ، إذا كان كل هذا – وهو بعض ما أراده عيسى وليس كل ما أراده – صعبا وعسيرا وشاقا وفي بعض الأحيان من المحال الوصول إليه ، فلماذا كلف عيسى الإنسانية به ؟ أو ما جدوى كل أفعاله وأقواله إن لم تجد من يحققها ويطبقها ويحيلها إلى أسلوب حياة يومي ؟!

- هذا ما جاء عيسى عليه السلام من أجله ، هذا ما جاء عيسى ليحققه ويجسده فعلا وعملا وفكرا ووجدانا .
- جاء ليكشف للإنسانية عن قدرات مدفونة ومطمورة في كيانها.
- جاء ليبصر الإنسانية عن مواهب ضائعة ومبددة فيما لا يفيد بل يضر كل الضرر.

ما جاء عيسى ليعظ ويعلم ويربى فحسب ، فهذا يقدر عليه الكثيرون ، ولكنه جاء ليعيد اكتشاف الإنسان ، جاء ليبحث وينقب عما في داخله من كنوز وثروات ، جاء ليزلزل داخل الإنسان وينفضه ، ويزيل الأغلال والقيود عن عقله وضميره ،جاء

ليكشف عن داخل وعمق الإنسان ويعريه ليرى ما ينخر داخلـه مـن سـوس الأضاليل والخرافات ، وينقيه من الأشواك الشيطانية

ويسلط على ما في داخل الإنسان من نور الحقيقة .

جاء عيسى ليستنفر ويستفز ويستنهض ويستثير أعظم وأشرف وأنبل وأجـل وأجمل وأبهى وأشرق وأقدس وأنور ما في الإنسان .

جاء عيسى ليرشد الإنسانية إلى مفتاح السعادة والسرـور والأمـن والسـلام، المفتاح الذي يفتح جميع الأبواب ، أبواب الخير والبر ، وهو الحب .

الحب .

إنه نبي الحب .

وهل الحب في حاجة إلى نبي ؟!

جميع الأنبياء بلا استثناء يدعون – ضمن ما يـدعون إليـه – إلى الحـب ،ولكـن المسيح ، آل على نفسه منذ بداية دعوتـه أن لا يـدعو إلى شيء سـوى الحـب ، لأنـه أدرك بجلاء أنه متى تمكنت تلك العاطفة العظيمة من النفس الإنسانية فسيعم الأمن والسلام ربوع الأرض ، لأن بالحب – وحده– سيتصل الإنسان من أقرب طريق بملكـوت الله ، بل أن ملكوت الله في هذا الحب ،وأن سـعادة الإنسـانية وشـقاءها مناطـة بهـذا الأمـر ، سعيدة إذا تمسكت واعتصـمت بهـذا الأمـر ، شـقية إذا فرطـت وتخلـت عـن الحـب ، وعبقرية السيد المسيح تبدت وتجلت هنا ، لقد وصل – وأوصل الإنسانية – إلى الحقيقة في أسرع وقت وأقل جهد ، حينما أخذ بيدها ليرشدها إلى ينابيع الحب التي كانت غافلـة عنها قرونا ، وأدرك المسيح أنه يسـتطيع أن يـداوي ويشـفي جميـع أمـراض الإنسـانية ، ويضمد ويطبب جميع جروحها بالحب.

والحب عند المسيح لا مثيل له ولا نظير ، كلنا منـذ نعومـة أظافرنـا نـردد تلـك الكلمة ، وندعى أن قلوبنا عامرة بمعانيها ، ونفوسنا ظمآنة إلى عوالمها ، ونحلم – بل

ونتحالم – بأن نعيش ونحيا مِحِبين ومُحَبين ، وكل الناس – بلا استثناء – خيرهم وشريرهم صالحهم وطالحهم يلهج بتلك الكلمة ، ولم لا وهي من أيسر وأسهل الكلمات ، ولم لا وهي من أحلى وأعذب المعاني ، ولكن أبدا لم يصل أحد إلى ما وصل إليه المسيح بتلك الكلمة ، أو بهذا المعنى ،الحب الذي يدعو إليه المسيح غير الحب الذي نفهمه ونعرفه ، إنه لا يدعو إلى كلمة أو معنى أو شعور أو حالة نعيشها بعض الوقت ، ثم نفارقها وتفارقنا كل الأوقات ،ولكنه يدعو إلى عالم يصوغه الحب ، وتؤسس دعائمه المودة ، وتنبيت أرضه الطاهرة السخية أشجار التعاطف والرحمة ، والبشر فيه يسيرون في دروب وسبل الصفح والغفران والإيثار ،هذا العالم لا مكان فيه للحقد والحسد والبغض والكراهية والظلم ، المسيح أخذ في بناء هذا العالم ، وكان هو أول لبنة في بناء هذا العالم النوراني ، ولكن كيف يكون هو الباني ، ويكون هو في نفس الوقت جزء أو أساس من هذا البناء ؟

لا يكفي أن يدعو النبي إلى شيء ، بل لابد أن يكون هو هذا الشيء الذي يدعو إليه ، فإذا كان يدعو إلى الرحمة ، فلابد قبل كل شيء وأي شيء أن يكون هو بنفسه رحمة ، وإذا كان يدعو إلى الحب فلابد أن يكون هو حبا ، وهذا هو الفرق الدقيق بين دعوة المصلحين ودعوة الأنبياء ، أن المصلحين قد يدعون إلى شيء وهم أشد ما يكونون بعدا واختلافا عما يدعون إليه ، فقد يكون المصلح داعيا إلى العطف على الفقراء والمحرومين والمساكين ، وهو لم يذق في حياته عضة الفقر ، ولا لذعة الحرمان ولا مذلة المسكنة ، هو رأى أن هؤلاء مظلمون ، وينبغي أن ينصفوا وينتصف لهم ، هي مجرد رؤية أو هدف أو غاية نذر نفسه أن يحققها ، وهذا يرجع إلى نبل في أخلاقه ، ورقي وسمو في شعوره ، أو قد يكون مر في مرحلة من مراحل حياته بالفقر والحرمان ، وشعر كم هو مضني ومؤلم الفقر والحرمان ، فهو يريد أن يجنب الآخرين هذا الأمر ، كما حدث معه ، وهو يجاهد ويكافح لتحقيق ذلك ، وليس عليه بعد ذلك

إن وفق أو لم يوفق في مسعاه ذلك ، والإنسانية تحمد له هـذا الأمـر ، بـل قـد تخلده وتعده من العظماء الذين أسدوا إلى الإنسانية جميلا يطوق به عنقها .

أما مع الأنبياء فالأمر مختلف كل الاخـتلاف ، فـإذا دعـي النبـي وعمـل عـلى معالجة مشكلة الفقر ، فهو يتحرك نحو تلك المشكلة لأنه – بحق – فقير ، واحـد مـن الفقراء يشعر بما يشعرون به ، يعاني ما يعانونه من ألم وحرمان ، إنهم أول من يجسدون ما يدعون إليه ، بأفعالهم وتصرفاتهم ، لذلك ينجحون فيما يفشل فيه الآخـرون ،هـذا من ناحية ومن ناحية أخرى الأنبياء يريدون ممن حولهم لا أن يقتدوا بهم فحسب ، بل يريد النبي أن ينقل أو يبث النبوة وما أنعم الله به عليه ، أن يمـنح كـل هـذا لأتباعـه ، بمعنى ما يريد أن يجعلهم أنبياء مثله لولا أنه يشفق عليهم من عـبء وثقـل مسـئولية هذا الأمر ، وهذا ما حاول المسيح أن يمنحه في تلاميذه أو حواريه ، الـذين اختـارهم بنفسه ، حاول أن يجعل من كل واحد منهم نبيا ، أو أقرب ما يكون من النبي ، لـذلك وجه لهم كل رعايته واهتمامه ، وكان يخاطبهم بـما لا يخاطـب بـه الآخـرين ، ويفـيض عليهم بما لا يفيض على الآخرين ، يريد أن يعطيهم كل شيء لديـه ، ويريـد مـنهم أن تكون لديهم القدرة والمقدرة أن يأخذوا منه كل شيء ، أن يتصلوا به اتصالا قويـا ، أن يمتزجوا به ليصلهم بمن اتصل به ، فهو الصلة بينهم وبين الله ، " أنا الكرمة الحقيقيـة وأبي الكرام ، كل غصن في لا يأتي بثمر ينزعه ، وكل ما يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر، أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به ، اثبتوا في وأنا فيكم ، كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة ، كذلك أنتم إن لم تثبتوا في ، أنا الكرمة وأنتم الأغصان ، الذي يثبت في وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير ، لأنكم بدوني لا تقـدرون أن تفعلوا شيئا ، إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجـا كالغصـن فيجـف ويجمعونـه ويطرحونه في النار فيحترق ، إن ثبتم في وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم ، بهذا يتمجد أبي أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي ، كما أحبني الأب أحببتكم

أنا ،اثبتوا في محبتي ، إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي ، كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته ، كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم .

هذه وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا ، ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه ، أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به ، لا أعود أسميكم عبيدا ، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده ، لكنني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي ، ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ، ويدوم ثمركم ، لكي يعطيكم الأب كل ما طلبتم باسمي ، بهذا أوصيكم حتى تحبوا بعضكم بعضا " [1]

لقد اتصل المسيح بأهم وأعظم وأجل نبع أودعه الله **y** في طبيعة النفس الإنسانية ، وهو نبع الحب ، وحاول أن يدفع الإنسانية لتكتشفه ، نعم ، نستطيع أن نقول – وبثقة – إن الإنسانية قد ضلت عن هذا النبع ضلالا بعيدا ، وأنها في مسيس الحاجة إلى من يأخذ بيدها في رفق وحنو ليرشدها ويهديها إلى هذا النبع ويأخذ بيده الكريمة السخية شربة من هذا النبع ليبلل بها شفتاها المتشققة من الظمأ والعطش ، لتشعر بقيمة الحب في الحياة ، وأن الوجود إن خلا من هذا الترياق ، فهو وجود معتم ومظلم ، لا يطيقه ولا يحتمله أحد ، فهو – الحب – الذي يدعو إليه المسيح – كالشمس التي تشرق على الكون في عظمة وجلال وبهاء ، فتبعث فيه الحياة والدفء والنور ، فتجعل للحياة معنى ، وللوجود مذاق رائع .

إنه – الكتاب – رحلة في شخصية هذا الرجل الجليل العظيم المنزلة ، الجليل القدر ، الذي أرقَه سؤال صعب وعسير ، ما السبيل إلى سعادة الإنسان في هذا الوجود ؟

وكانت حياته وسيرته وشخصيته أفضل جواب عن هذا السؤال .

١- إنجيل يوحنا – الإصحاح الخامس عشر

الحاضر وما يموج بـه مـن مـآزق وأزمـات وقضـايا ومشـكلات ذو سـطوة وإلحاح على ما يستدعيه الفكر ويطـرأ عـلى الخـاطر مـن المـاضي والتـاريخ ، فتـاريخ الإنسانية كالنهر الذي يمتد ويسـري بـدون توقـف أو انقطـاع ، فكـما لا تسـتطيع أن تقتطع أو تجتزئ جزءا من النهر ، كذلك تاريخ وماضي الإنسانية ، ومع ذلـك فهنـاك شيء ما – في الحاضر – يجعلك تقف طويلا أمام حدث ما ، أو شخصية ما لكي تفهـم وتدرس وتبحث وتستفسر ، ثم بعد ذلك تكتب .

ولكن لماذا "عيسى" الآن ؟

في الحق أن هذا السؤال تنكب جادة الصواب ؛ لأن الكتابة في الأنبياء ليسـت في حاجة إلى موسم معين ، ولا إلى مناسبة محددة ، لأن لو حدث ذلك ، فهذا يدل على أننا فيما عدا تلك المواسم والمناسبات ،لا نتذكر الأنبياء والرسل ، وهؤلاء كحبـل الله الذي يجب أن تعتصم بهم الإنسانية ،حتى لا تضل ضـلالا بعيـدا ، وكالصُـوًى التـي يجب أن تهتدي وتسترشد بها حتى لا تتفرق بها السبل والدروب ، لذلك واجب عـلى الإنسانية ألا تفارق ذكراها سيرتهم وألا تخلو الضمائر والعقول من تمثل شخصياتهم .

وليس معنى أننا نستحضر ونستهدي ونسترشد نبيا – الآن – أن بقية الأنبيـاء لا تناسبهم (الآن) ،أو لا يناسبونها . فجميع الأنبياء والرسل يناسبون كل آن وحين، ويصلحون كل زمان ومكـان في حاجـة إلى الإصـلاح والتقـويم ، ولكـن الأمـر هنـا كالطبيب والمريض ، فبعد أن يفحص الطبيب مريضه فحصا ، ويقف على نوعية الداء ، يصف ويحدد نوعا معينا من الدواء ، ويختار من بين آلاف الأدوية عـددا لا يتجـاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، وفعل الطبيب هذا لا يدل على عدم جدوى بقية الأدوية ،

ولكنه اختار من الأدوية الكثيرة الصالحة الناجعة ما يتواءم ويتناسب مع نوعية المرض ، وهو يصف الدواء بدون إفراط أو تفريط ، وقد يحضر إليه نفس المريض في وقت آخر ، فيصف له عددا من أخر من الأدوية ، لآن العلة أو المرض قد اختلف ، وتبعا لذلك تغير نوع الدواء .

والدواء الذي يقدمه المسيح الآن ، العالم بصفة عامة في حاجة ماسة إليه ، وهذا الدواء يتخلص في كلمة في غاية البساطة ،وهي أن الدين جعل للإنسان ولم يجعل الإنسان للدين ، ويمكن اختصار كل ما جاء المسيح ليؤصله ويؤكده ويصحح وجهة البشرية ، ويضعها على الطريق القويم ، فهو حينما قال :" لقد جعل السبت للإنسان ولم يجعل الإنسان للسبت " قام بمثابة ثورة في عالم العقائد، وصحح مفاهيم خاطئة ، وأزال معتقدات بالية ، وخلص الإنسانية من ركام كاد أن يطمس الوجه الحقيقي للدين ، وحررها من أغلال عرقلت كثيرا من نموها وتطورها ، وحطم إمبراطوريات الزيف والكذب والخداع والتدليس التي كان يحكم بتفويض منها رجال الدين والكهنة ، ويهيمنون على مقدرات ومصائر البشر . جاء المسيح ليصحح مفهوم الدين ،وليؤكد ان الدين ليس قفصا حديديا يمنع الإنسان من أن يعيش حياته ، بكل حرية وانطلاق ، وأن الدين ليس مجرد نصوص جامدة متحجرة لا تستجيب ولا تتفق وتتوافق مع مستجدات الحياة ، وأنه ليس مجرد زواجر وروادع تخيف وترعب الناس ، وتصب اللعنات فوق رأس من أخطأ أو أذنب ، ولكنه علاقة حميمة تصل ما بين الخالق والمخلوق ، تستبطن الرحمة والتسامح والصفح والغفران ، حتى للخطاة والمذنبين وتفتح أبواب الأمل والرجاء أمام المنبوذين والمحرومين والفقراء والمساكين ، وأن هناك عالم آخر هو ملكوت الله ، يدخله كل من شاء إذا جعل منهجه في الحياة هو الحب ، لقد نزع اليأس والقنوط من ضمير الإنسانية حينما كان يسير بين جموع الناس ويبرئ الأكمه والأبرص ويخرج الموتى بما أمده الله من قدره ، ليدلل على

أن الله قادر على كل شيء ، هذا من ناحية ومن ناحيـة أخـرى ليقـر في عقـول وقلوب هؤلاء إنه إذا كان البشر أهملوهم وتركوهم يعانون الفقر والمـرض والجهـل ، بل هـم الذين أفقروهم وأمرضوهم وتركوهم جاهلين ، فإن الله – **y** – يرعاهم مـن فوق السماء ، يرسل إليهم رسوله ليغنـيهم عـن كـل البشرـ بـأن فـتح لهـم ملكوتـه ، ويشفيهم ويعافيهم من أمراضهم المزمنة والمستعصية ، ويزيـل عـنهم الجهـل بحكمـه وأحاديثه ووصاياه ، ويعلمهم بما من الله عليه من علم وحكمة .

ولا شك إن الإنسانية – اليوم – في حاجة ماسة للعـودة إلى تعـاليم ووصـايا وأحاديث السيد المسيح ، أقول العودة لأنها تركتها خلف ظهرها وفرطت فيها ، وإلا بما تفسر خلو الحياة العصرية اليوم من الإيمان ، أو لم يعد هو المـؤثر القـوى والرئيسيـ فيها ، أو لم يعد هو المركز الذي تنتظم حياة البشر حوله ، لذلك طغت المادية وهيمنت على تفكير البشر ، وأصبح حب الدنيا هـو السـائد وتضـاءلت بـل أمحـت أي عاطفـة أخرى ، تظهر أو تقف بجانبه ، ما كافح المسيح من أجل تأسيسه وتأصـيله لم يعـد لـه وجود ، فالعالم قسمان إما غني أو فقير ، قوي أو ضـعيف ، ظـالم أو مظلـوم ، عـالم أو جاهل ، صحيح أو مريض ، الغريب والعجيب أن أي حرب تنشأ أو تقـوم هـي مـن أجل أن يظل هذا الوضع قائما ، بمعنى أن الغني على استعداد أن يشنها حربا ليظل هو الغني والآخرون هم الفقراء ، ليظل هو القوي والآخرون ضعفاء ، ليظل هـو الظـالم والآخرون هم المظلومين ، المؤسف أن من يفكر في تغيير هذا الوضع – مجرد تفكير – سيحارب ويغتال معنويا وماديا ، ويوصف بأوصاف في غاية الخطورة ، شـأن السـيد المسيح نفسه .

وأصبح "الحب " الذي فجر المسيح ينابيعه في قلوب الإنسانية بعد أن كـادت أن تطمر ، لا تجد له أي صدى ، وقد لا تجد له أي وجود سوى في الروايات الغراميـة والقصائد الرومانسية ، بل تلك أيضا أصبحت مزهودا فيها ، ومعرضا عنها

فالبعض ، بل الكل يراها تمثل حقبة كانت الإنسانية فيها مغرقة في السذاجة وتسعى وراء الخيال والأوهام ، ولو سألنا أنفسنا ما أهم محور دارت حولها أو عليها حياة المسيح ، أو ما أهم ما حاول المسيح الدعوة إليه ، أو ما الباعث على كل مواعظه ووصاياه وأحاديثه ، ستكون الإجابة : الحب !

وأي ديانة أو عقيدة خلت من الحب والتسامح واللين ليست بدين وليست بعقيدة ، وأي إنسان خلا قلبه من الحب ، ليس بإنسان ، والقلب الذي لم ينبض يوما بالحب أو للحب ، هو قطعة من الحجر ، وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الدول ، وما ينطبق على الدول ينطبق على الإنسانية كلها ، لأن السيد المسيح ، لم يكن يخص بدعوته مكانا معينا ولا زمانا معينا ولا قوما بعينهم ، وإنما كان يخص الإنسان بغض النظر عن زمانه أو مكانه أو جنسه ، هل نجح المسيح في إيجاد هذا الإنسان ؟ أو هل نجح أن يجذب الإنسانية إلى دعوته ويقنعها بأراءه وأفكاره ؟ أو هل نجح أن يصوغ من الإنسانية كيانا منسجما مؤتلفا كالجسد الواحد ؟

كما قلت في ثنايا هذا الكتاب أن الأنبياء لا يفشلون مطلقا ، وإنما نحن الذين نفشل في اللحاق بهم ، نفشل في أن نعلو ونتسامى محاولين الاقتراب منهم، نفشل في أن نصافح تلك اليد الممدودة لنا في كرم ونبل لتنتشلنا مما نحن فيه ، ونحن وإذا اقتربنا من تلك الشخصية بالقراءة أو التأمل أو الدراسة ، نكون وفقنا – بعض التوفيق ، ونجحنا – بعض النُّجح – في أن نلحق بهم ، ونعلو ونتسامى لنقترب منهم ، ونصافح تلك اليد الممدودة لتمس على رؤوسنا المتعبة والمرهقة في ود وحب وحنان ، لعل هذا المس يريحنا مما نكابده ونعانيه .

الباب الثالث
المسيح والنفس الإنسانية

ماذا فعل المسيح بالنفس الإنسانية ؟

- هل ارتقى وارتفع بها وزادها سـموا وعلـوا ؟
- هل وعظها وعلمها وزادها نـبلا وأريحـية ؟
- هل رباها ونماها وزادها قـدرة وتحمـلا ؟
- هل ذكاها وطـهرها وزادها سعة ورحابـة ؟
- هل بصرها وأسمعها وزادها شفافية وتسامحـا ؟
- هل هداها وأرشـدها وزادهـا إيمانا وتقـى ؟
- هل عالجها وطببها وزادها صـحة وعافيـة ؟
- هل نظفها وغسـلها وزادها نقاء وطـهرا ؟
- هل قـدرها وكرمـها وزادهـا حبـا ودفئا ؟

قديم مألوف ، وجديد غريب :

لا ، لم يفعل المسيح شيئا من هذا ، مع عظيم وجليل كلما سبق ، لأن كل تلـك الأشياء طارئة على النفس ، قد تستجيب لها ، وقد ترفضها إذا عرضت عليهـا ، حتـى ولو استجابت لها وقبلتها ،في وقت قد تختلف حالتها وترفضها في وقـت آخـر ، وقـد تتحمس لها في وقت وتفتر عنها في وقت آخر ، فخصيصة من خصائص النفس وهـي التذبذب ،وعدم الثبات والاستقرار على حالة من الحالات أو على أمر من الأمـور ، – وأيضا – ضعفها وجزعها ،لقـد أدرك بثاقـب فكـره ، وبعـد نظـره ، وشـمولية رأيـه ،وعمق وعيه مـدى انحطـاط العـالم ، وأن السـبب في ذلـك هـو الـنفس ، وأنـه مـن السذاجة والإفراط في التمني أن نتوقع صلاحها – وبالتـالي صـلاح العـالم – بمجـرد عظة تسمعها أو معجزة تراها ، أو عبرة تستخلصها ، وأن العيب ليس في العظات أو

المعجزات أو العبر، ولكن في تأبي وعصيان وانحراف واعوجاج النفس ، عن الصلاح والإصلاح ، وتمسكها وتشبثها بكل فساد وإفساد ، فأخذ على عاتقه عدم التعامل مع النفس على وضعها الحالي ، لأن هذا – كما قال – بمثابة وضع مشروب جديد في قناني قديمة ،أو وضع رقع جديدة على ثوب قديم ، أخذ على عاتقه إعادة صياغة وتكوين وتخليق النفس ،لم يتبع نفس الأسلوب أو الطريقة التي اتبعها من سبقوه، لقد ابتكر أسلوبه وابتدع طريقته التي تتناسب مع شخصيته الثائرة المجددة الطامحة الحالمة ، وتتناسب – أيضا – مع العالم المتحجر الجامد الفاسد المظلم ، لذلك جاء أسلوبه صادما للبعض ومزلزلا ، وطريقته غير مفهومة أو غير مألوفة أو غيري معتادة ، لا يريد وضع رقع جديدة على ثوب قديم ، فستظل الرقعة مجرد رقعة ، وسيظل الثوب قديما ، وإن ما حدث نوع من التشويه أو نوع من التدليس ، وأن الخير كل الخير في قطع صلتك بالقديم المتداعى الخرب الفاسد المظلم ، والتهيئة والإعداد لاستشراف الجديد القوي الصالح المنير ، وليس من اليسير على النفس أن تهجر القديم المألوف المعتاد ، كذلك ليس من السهل عليها أن تقبل على الجديد الغريب وأن تألفه ، لذلك كانت كل أقواله تثير العجب والحيرة والاستغراب والاندهاش ، وإن كان الجميع يكادون أن يجمعوا على قدسية المنبع ونورانية المسلك وطهارة المقصد وعلو وسمو الهدف ، كذلك يختلفون على شخصيته ، فمن محب له ومبالغ في هذا الحب إلى درجة كبيرة ، ومن مبغض له ومتماد في هذا البغض إلى قدر شنيع ، وهذا هو شأن العظماء وأثرهم على الناس ، وكلا الحب والبغض نوع من التقدير ، **يقول** :

" أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ،أحسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لأعينكم ، ادعوا لمن يسيئون إليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه ، وما

تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم ، وأي فضل لكم إن أحببتم الذين يحبونكم ؟ إن الخطاة ليحبون الذين يحبونهم وأي فضل لكم إن أقرضتم من يريدون قرضكم ؟ إن الخطاة ليقرضون من يقارضهم.. بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم ..."

" إن أخطأ أخوك فوبخه . وإن تاب فأغفر له ، وإن أخطأ إليك سبع مرات وتاب إليك سبع مرات فتقبل منه توبته "

يخطئ من يظن أن هذا نوع من أرقى أنواع التسامح واللين والوداعة ،وأن المعتقد بهذا القول لا يستدعى الأمر منه كفاحا ومشقة وجهدا وجهادا ، فما قصد المسيح من كلامه هذا المفهوم أو هذا المعنى ، كيف وهو القائل : "جئت لألقي على الأرض نارا فحبذا لو تضرم " وكان يسأل تلاميذه وسامعيه : "أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاما ؟" ثم يبادر فيقول " كلا وإنما هو الصدام والانقسام خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة: ينقسم الأب على ابنه ، والابن على أبيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة "

ولكن إذا كنت سأحب أعدائي – كما يطلب المسيح – فمن سأكره ، ومن ألعن ، وإلى من أسيء ؟

وهو لا يطلب ألا تكره عدوك فحسب ، بل تحبه !!

إذا بدد الإنسان الكراهية ، ونزع جذورها من نفسه فهذا – في حد ذاته – نوع من الانتصار ، المسيح لا يكتفي بذلك بل يطلب منك أن تزرع مكان الكراهية الحب ، الجهاد هنا ليس خارج النفس ، ولا يعنيه العالم كله ، بل جل اهتمامه وعنايته النفس ، محاولة إنارة الجانب المظلم من النفس ، المتخم بالكراهية والبغض والحقد والحسد والغيرة ، إعادة هيكلة النفس ، تغيير في إستراتيجيتها ، تبديل في دعائمها ، فإذا كان

حب العدو – إلى حد ما – قد يفهم على أي وجه من الوجوه ،وقد يقبل على أي صورة من الصور ، مع في ذلك من غرابة ، فإن الأشد عجبا هو أن تكون قادرا على بغض أبيك وأمك وأخوتك ، بل تبغض نفسك " وما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وأمه وبنيه وأخوته ، بل يبغض نفسه "

من الوهلة الأولى تظن أن هناك تناقضا في أقوال وفكر المسيح ، كيف يدعو تارة إلى حب الأعداء ، وتارة أخرى إلى بغض الآباء والأبناء والأمهات ؟!

إنه يناقش البديهيات والمألوفات وما اعتدنا عليه ، لنبني مواقفنا ونتخذ قراراتنا بعيدا عن الميل والهوى ، وأن تكون تلك القرارات والمواقف متصالحة ومتفقة ومتوافقة مع العقل والمنطق ، فهل الذي اتخذته عدوا هو فعلا عدوا ؟ بمعنى أنه يريد هلاكك وتدميرك ،ووجهته وطريقه ومساره يتناقض ويتعارض مع وجهتك وطريقك ومسارك ؟

الأمر في حاجة إلى مراجعة وإعادة تقييم ، ولكن تلك المراجعة لن تقوم بها وهو عدوك ، لأنك لو فعلت ذلك فأنت تراجعه وتقيمه كعدو ، وربما تلك العملية التي قمت بها تقوي وتؤصل وتثبت عدواته لك ، وعدواتك له ، إذن الأمر في حاجة إلى عزل وإبعاد وتنحية صفة العداوة ،وإذا فعلت ذلك وأبعدت تلك الصفة فلابد أن تضع صفة أخرى ، والبديل الوحيد لصفة العداوة هي صفة المحبة ، إذن – بعد ذلك – ستقوم بعملية المراجعة والتقييم من منطلق الحب ، وصدقا أنك لن تقوم بإجراء مثل تلك العملية ، لأن من نحبهم لسنا في حاجة وهم ليسوا في حاجة إلى مراجعة وإعادة تقييم ، حتى ولو قمنا بذلك فإن تلك العملية ستقوي وتثبت تؤصل علاقة الحب ، لأن إذا حل الحب في القلوب، أو اشتمل القلب على الحب ، فليس من السهل أن يرحل عن القلوب ، و من العسير أن تتخلى القلوب عن الحب ، وإذا حدث ذلك فقد فزنا فوزا عظيما وربحنا ما لا يقدر بثمن ، فقد قمنا بإنارة هذا الجانب المظلم

بظلام الكراهية والبغض ، أو كسبنا مساحة كان يحتلها ، أما العدو فـلا شـأن لنا به ، ليبقى على عداوته إن شاء ، فإنه كالنار التي تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله .

وإذا كان ما يعرضه المسيح غريبا وعجيبا ، فهو يزيل كل عجب وغرابة ، فأي فضل حينما تحب من يحبك ، إن الخطاة والآثمين يحبون من يحبهم ، والحب هنا ليس له أي دلالة على نبل النفس ، بل أصبح الحب كعملية مقايضة ،ما تقدمه لي أقدمـه لـك ، فلا فضل لك ، ولا فضل لي ، فنحن متساوون في الفضل ، أو متجردون من كل فضل ،وحب العدو لهو من أكبر آيات النبل وكرم وسخاء النفس ، لأنك في تلـك الحالـة لا تنتظر أي أجر أو رد على هذا الحب ، بل قد لا تجد شيئا بالمرة ، وإن وجدت فقـد تجـد العداء ما زال على حاله ، إن لم يزد ، ومع ذلك يجـب أن تكـون عـلى ثبـات موقفـك ، ومحافظا على القرار الذي اتخذته عن اقتناع وإيمان .

المسيح يريد النفس الإنسانية خالية من كل ما مـن شـأنه أن يعكـر صـفوها ، يريدها طاهرة نقية شفافة ، هناك أمـراض كثـيرة تصـيب الـنفس ، ومـن شـأن تلـك الأمراض – على المدى الطويل –

أن تسد منافذها وتعزلها عمن حولها ، وتفقد النفس سبل التواصل بينها وبين الآخرين ، وتذبل وتذوى ، وكأنها قطعة من الحطب الجاف اليابس ، خلت من كل أثر من أثار الحياة ، وأهم وأخطر مرض هو الكراهية ، فهو كفيل أن يدمر النفس ويميتها ، وإذا كان ثمن سلامتها وإنقاذها من الموت ، هو حب أعدائنا ، فما أرخصه من ثمن !

غـض الأقـربـاء :

هناك علاقتان تربط بين الناس ، أو صلتان تصل بينهم ، أما الأولى فهي علاقة أو صلة اللحم والدم ،والأخرى علاقة أو صلة الدين والعقيـدة ، أمـا الأولى فـلا يـد للإنسان في وجودها فهو يخرج إلى الوجود ويجد شبكة تلك العلاقات تحيط به من كل جانب ، ولا حيلة ولا خيار له في تلك العلاقات ، أما الثانية فالإنسان حر حرية تامة

في إنشاء وإيجاد تلك العلاقة ، وتلك العلاقة توجد حينما يتدين الإنسان بدين ما ، أو ينتسب إلى عقيدة من العقائد ، حينئذ يكون كل أتباع تلك العقيدة مرتبطين برباط واحد ، وتجمعهم علاقة واحدة لا انفصام لها ، مادام الارتباط بالعقيدة موصول ودائم .

وقد يظن البعض أن علاقة اللحم والدم أقوى من علاقة العقيدة ، مع أن المنطق والواقع يخالف ذلك ، فتلك العلاقة التي نظنها من القوة والمتانة بمكان ، قد تضعف وتضمحل إذا اعترضتها المصالح والأهواء ، بل قد يحل محلها الكراهية التي تصل – في بعض الأحيان – إلى العداء السافر ، الذي قد يدفع إلى القتل ، وقد سجل القرآن ما حدث بين ابني آدم – عليه السلام – ولم تمنع علاقة اللحم والدم الأخ أن يقتل أخاه،

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المائدة: ٢٧ – ٣٠

وقد انتفت العلاقة بين نوح – عليه السلام – وابنه حينما اختار الابن ألا يتبع والده ويكون من الذين ركبوا السفينة أو من المؤمنين والمصدقين بما جاء به نوح:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ هود: ٤٥ – ٤٧

" قال صاحب الكشاف وقوله :(...إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ..) تعليل لانتفاء كونه من أهله ، وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأباعد في المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك .

وقال الفخر الرازي : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله – تعالى – بأبلغ الألفاظ وهو قوله :

(...إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .) [1] إذن علاقة وصلة العقيدة مقدمة في الاعتبار والتفضيل ، بل إن تلك العلاقة لو وجدت فهي كفيلة أن تمحي أي علاقة من أي نوع لو تصادمت معها، ومن قوة وأصالة وأحقية تلك العلاقة تدفع الإنسان أن يتبرأ من أقرب المقربين له ، لو لم تسر بقية العلاقات في ركاب تلك العلاقة .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ ﴾ التوبة: ١١٣ – ١١٤

إذن لابد أن يكون الإنسان مهيأ ومستعدا – فكريا ونفسيا – أن يبتر علاقة اللحم والدم إن هي تعارضت أو خالفت علاقة الدين والعقيدة ، وفي ضوء هذا يفهم قول السيد المسيح أن يكون الإنسان قادرا على بغض أبيه وأمه وبنيه ، لأن المطلوب لا أن تكون علاقة العقيدة أقوى من علاقة اللحم والدم ، بل أن تحل علاقة العقيدة محل علاقة اللحم والدم ، ولا يبقى إلا هي وما دونها باطل الأباطيل .

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . سيد طنطاوي – المجلد السابع – (٢١٤)

وكان المسيح – على لينه ووداعته ورحمته وحلمه – حاسما وحازما في بتر تلك العلاقة واستئصال تلك الآصرة وقطع تلك الوشيجة التي تربط بين الأقرباء إذا هي تعارضت مع علاقة العقيدة والدين ، بل إن هذا الأمر من الأمور القليلة التي كانت تخرج المسيح عن مألوف عادته أو تدخله في حالة مزاجية تخالف طبعه القائم على التسامح والعفو والمغفرة ، ذلك لجوهرية الأمر ، فإن صح وصلح صلح الدين والعقيدة وإن بطل وفسد انعكس ذلك على الدين والعقيدة ، " إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعا حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر اللحم والدم . وتتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والأمهات ..((من هي أمي ومن هم أخوتي ؟من يضع مشيئة أبي في السموات هو أخي وأختي وأمي))..

((من ليس معي فهو علي ومن لا يجمع معي فهو يفرق))..

((وإن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وأمرأته وأولاده وأخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذا))

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها على مريديه هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة يفرضها على مريديه ، هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ، ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذي لا خلاف عليه أن التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التي يتأدب بها الجنود في كل ملحمة : جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال "١

---

١ - عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد – (٩٥)

بغض النفس :

الكِبر والعُجب والغرور آفات تصيب النفس الإنسانية ،وخطورة تلك الآفات أنها تطبق على النفس وتسجنها داخل جدران تعزلها عمن حولها ، وتعزل من حولها عنها ، ومن جراء ذلك يصيب النفس ما يشبه الجمود والتحجر ، فهي ليست على استعداد أن تأخذ من محيطها لترتقي أو تنمو أو تتقدم أو تطور، وكيف تظهر رغبتها أو احتياجها إلى ذلك وهي قد وصلت – في ظنها– إلى درجة ومنزلة لم يصل إليها أحد بعد ، ولديها قناعة إن ما وصلت إليه هو القمة والذروة فلا شيء بعد ذلك ، وهي – أيضا – ليست على استعداد أن تعطي الآخرين شيئا ، بل تنتظر من الآخرين تقديم أكبر آيات الاحترام والتبجيل والإقرار كل وقت وحين بأن هذا الإنسان قد حاز وظفر وحصل على منزلة لا يشاركه فيها أحد ، هنا يكون الإنسان راضيا عن نفسه رضا تاما ، وهذا الرضا ليس نتيجة إنجازات أو أعمال أو مشروعات ، تحقق له هذا الإحساس ، وتحقق للآخرين فوائد ومكاسب ، ولكن الرضا أو الانغلاق على النفس نتيجة الآفات السابق ذكرها .

تلك النفس – كما قلنا – جامدة متحجرة محنطة ، في الإمكان أن نعدها في عداد الأموات ، لولا أنها تضر الآخرين بوجودها .

نقيض ذلك ألا يكون الإنسان راضيا عن نفسه ، أو أن يكره ويبغض نفسه ، ولا نقصد من الكراهية والبغض هذا الشعور المؤسف الحاد المحبط أو المثبط ، ولكنه إحساس قوي يدفع الإنسان دفعا إلى أن يبحث عن مواطن النقص ليتمها ، عن أماكن الاعوجاج ليقومها ، عن الأجزاء المريضة من نفسه ليعالجها ويطببها ،نعم إن النفس تمرض كما يمرض الجسد ، وتطرأ عليها الآفات كما يطرأ على الجسد ، ولكن لأن ما يطرأ على الجسد ظاهر ومشاهد وملموس ، فنحن نسارع لنعالجه ، ونظل نبذل الوقت

والجهد والمال حتى يشفى الجسد مما به، بينما ما يطرأ عل النفس وما تصاب به غير ملموس وغير مشاهد،لذلك يتفشى المرض ويتوغل ، وبمرور الوقت يصبح مستعصيا على العلاج ،وتتحول النفس الإنسانية إلى بؤرة لكل ما يتصور من أمراض وآفات .

ونلخص عمل السيد المسيح وهو يطبب النفس فيما يلي :

- إذا كانت كل الآلام والأحزان والمعاناة والعذاب محيطة بالإنسان بسبب وجوده في هذا العالم الفاسد ، الذي يعتبر مصدر كل الشرور ، وإن من المحال إصلاح هذا العالم بأي صورة من الصور ، فإنه من العبث اعتبار هذا العالم هو المقر الأول والأخير أو الأوحد للإنسان ،لأنه إن اعتبرناه كذلك ، فإن الإنسان – بهذا التصور – يعد من أتعس وأنكد المخلوقات.

أعظم وأجل أطباء النفس الذين عرفتهم الإنسانية.

إن لم يكن عيسى- عليه السلام- رسولا ، لكان من أعظم وأجل الأطباء الذين عرفتهم الإنسانية ، لقد عرف وأدرك كنه وطبيعة النفس الإنسانية ، وكذلك جميع الأمراض التي تصيبها ، وكذلك السبل والطرق لمعالجة تلك الأمراض ، وأمهر وأعظم الأطباء هو من لا يكلف مريضة وقتا ولا جهدا ولا مالا ، ولكن يطلب منه العمل بما يقول به ،ويطلب منه أن يثق في طبيبه ثقة شديدة تصل إلى درجة الإيمان ، وأن التعاسة والبؤس قدر مقدور لا يستطيع الخلاص منه ،وأن لا عزاء في تلك الدنيا للبؤساء والمساكين والمحرومين والمظلومين والضعفاء ،وبهذا يكون الوجود الإنساني محض عبث،جاء المسيح ليبشر الإنسانية ، أن هناك عالما آخر غير هذا العالم يجد فيه الإنسان ما لم يجده في عالمه هذا ، وهذا العالم مختلف كل الاختلاف عن العالم الأرضي ، فإذا كان هذا العالم يسود فيه الظلم والظلام والشر والقبح ، فإن العالم الآخر معمور بالعدل والنور والخير والجمال ، لذلك وجد كل البؤساء والمساكين والمظلمين عزاء في

هذا العالم ، الذي سماه المسيح ملكوت الله ،أو ملكوت السموات ، أما ما صفات وملامح وكنه هذا العالم ؟ فالافتراضات كثيرة ومتعددة ، ولكنها تدل على شيء واحد أن هناك عالما آخر ، ينسب إلى الله أو إلى السماوات ، وما ينسب إلى الله أو السماوات فهو خير وحق وعدل " والأناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت في مواضع شتى ، ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ،وذكرت مملكة قائمة في ضمير الإنسان في كل زمان ، إذا ربحها فهو الغانم وإذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الإنسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البريء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف ، لأنه ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع ،((ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله ؟ أجابهم : إنه لا يأتي بمراقبة ، ولا يقول قائل هو ذا ها هنا وهو ذا هناك ، لأنه هو الآن في داخلكم))(١٧لوقا)" [١]

– وطالما العالم موجود فهناك أمل في الوصول إليه ، والوصول إليه سيحقق السعادة للإنسان، تلك الغاية العزيزة والتي قد يمضي الإنسان عمره كله باحثا عنها ومع ذلك قد لا يصل إليها ،مع أن الوصول للسعادة لا يكلف الإنسان شيئا ، كل ما يجب أن يفعله أن يرفع نظره إلى أعلى ويتصالح مع نفسه ويفعل الخير ولا ينتظر من العالم شيئا " وإذا ما نظر الإنسان في "الأخلاق الإنجيلية" فإنه يرى – لأول وهلة – فكرة تسودها هي أن المهم للإنسان إنما هو سعادته ، ولكن " السعادة ليست في هذا العالم " فليست الأرض إلا منفى ..أما مملكة الله فليست في عالمنا الأرضي ؛ بل هي في عالم آخر ، الاهتمام بهذا العالم – إذن– هو الذي يجب أن يوجه سلوكنا وأعمالنا ." لا تجمعوا النفائس حيث السوس والصدأ يتلفان كل شيء، وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون "

١- عبقرية المسيح – (١٥٩)

" ولكن اجمعوا واكتنزوا النفائس في السماء حيث السوس والصدأ لا يتلفها ، وحيث اللصوص لا ينقبون ولا يسرقون "

ماذا يجب – إذن– ؟

يجيب عيسى : اغرسوا الفضائل التي تحتقرها كبرياء الإنسان ؛ مثل بساطة القلب والتواضع والطهارة .

"سعداء هم السذج لأن مملكة السماء لهم ، سعداء هم المرضى لأنهم سيواسون ،سعداء هم الحكماء لأنهم سيرثون الملك ، سعداء هم الرحماء لأنهم سيرحمون ، سعداء هم أطهار القلوب لأنهم سيرون الله ، سعداء من عذبوا في سبيل العدل لأن مملكة السماء لهم"[1]"

– "الوقاية خير من العلاج" ، حكمة من الحكم التي تداولتها الألسنة ، وهي – إذا طُبقت تجنب الإنسان كثيرا من الوقت والجهد ، وهي أن طبقت في المجال الوقاية لحفظ الجسم ،ستعطي أثرا محمودا، إلا أن تطبيقها في المجال النفسي- سيعطي أثرا ومردودا يفوق الأثر الذي يمنحه لحفظ ووقاية الجسم ، وقد قام السيد المسيح بتطبيق تلك الحكمة ، فلا يصلح أن تقول لإنسان لا تقتل وقد تركت نفسه – لوقت – نهبا للكراهية والحقد والغضب والحسد والطمع ، ولا يصلح أن تقول له لا تقتل وهناك المقدمات والأسباب والمبررات التي نمت وترعرعت وأصبحت طبعا أصيلا في النفس و تحض وتدفع إلى القتل ، ولا يصلح أن تقول لإنسان لا تقتل بعدما أمسك بيده أداة من أدوات القتل وأعد وجهز وهيأ ووطن نفسه للقتل ، فأما لا يستمع إليك بالمرة ، حتى لو استمع إليك وترك السلاح ، إلا أن مبررات حملة السلاح والدوافع مازالت موجودة في نفسه ، تنتظر أي لحظة لتندفع وتنفجر معبرة عن نفسها ، ولكن

١-المشكلة الأخلاقية والفلسفة – أندريه كريسون– ترجمة وتعليق : د .عبد الحليم محمود – أبو بكر ذكرى .

المطلوب أن تجتث مشاعر الغضب من النفس الإنسانية ويحل محلها مشاعر التسامح والعفو والمغفرة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى التأكيد على رابطة الأخوة ، فتلك الرابطة من الأهمية ، للدرجة أن تهتم بها وتهتم بصلاحها أكثر من اهتمامك بتقديم القربان لله ،

" قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ، فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك ، وحينئذ تعال وقدم قربانك ، كن مراضيا لخصمك سريعا ما دمت معه في الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن ، الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير "[١]

كذلك لا جدوى من أن تقول لشخص لا تزن ، وجسده مفعم بالغرائز والشهوات ، وعينه مفتحه وباحثة ومنقبة ومتلصصة على كل ما من شأنه أن يزيد من لهيب غرائزه وسعار شهواته ، فأنت تكلفه من أمره عنتا وشططا ، ولكن ينبغي أن يعرف إن النفس تخطأ وترتكب الجرم من مجرد التفكير فيه ، أما تنفيذه فتحصيل حاصل ، فأنت لو نظرت إلى امرأة بشهوة فأنت قد زنيت بها ، ألم تتمنى ذلك ؟ والذي منعك هو الخوف مما يترتب على ذلك من عقاب القانون ، فإن لم يكن هناك خوف ولا عقاب من قانون ، فما المانع من تنفيذ ما تريده ، السيد المسيح يريد أن يكون الرادع والزاجر والمانع من داخل الإنسان ، يريد أن تكون داخل نفس الإنسان محكمة والضمير هو القاضي يعنف ويلوم ويجرم من مجرد النظرة أو الإشارة أو الهمسة أو الخاطرة التي تخطر بذهن الإنسان ،بغير ذلك الإنسان أمام أمرين كليهما مر ، فإما أن

١- إنجيل متى – الإصحاح الخامس .

يرضى غرائزه وشهواته كيفما أتفق ، وبذلك يعرض نفسه لطائلة القانون ، وإما أن يكبت تلك الغرائز والشهوات قسرا ومرغما ،

وهذا نوع من العنت تشعر النفس معه أنها قلقة ومتوترة ، وقد يصاب الإنسان من جراء ذلك بالأزمات والمآزق النفسية ، كما يقول بذلك علماء النفس في زماننا هذا ، والسيد المسيح يريد أن تكون النفس في تصالح ووفاق واتفاق مع صاحبها ، لا يريد أن يكون هناك صراع أو خصام أو خلاف ، وهو لا يكون إلا إذا عقلن الإنسان كل تصرفاته وجعل المنطق يسير حياته ، فما معنى أن أقضي وطرا ، وأرضي شهوة من الشهوات أو أروي ظمأ جسدي لغريزة من الغرائز للحظات ، ثم بعد ذلك أعض بنان الندم ، أو أدرج ضمن قوائم الخطاة الآثمين؟ ما المغنم الذي جنيته ،وما المكسب الذي نلته ؟ لقد دنست نفسي ، وخرجت من عالم الطهارة والنقاء والصفاء الذي كنت فيه ،وخير للإنسان أن يقمع ويكظم ويلجم شهواته وغرائزه لجما إراديا بدلا من أن يترك نفسه على هوائها تفعل ما تشاء"قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل ما ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه ، فأن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقعلها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم "[1]

- لا يستطيع الإنسان أن يعيش منفردا أو منعزلا عن الآخرين ، فحياته كلها يقضيها في التعامل مع من حوله ، مرغما في هذا الأمر ولا خيار له ولا بديل عن هذا الأمر ، إلا إذا قرر أن يكون رهين محبسه ، ومصدر السعادة وكذلك مصدر الشقاء في الحياة هم الآخرون ، لذلك فواجب على الإنسان أن يضع برنامجا أو خطة على أساسها يتعامل مع من حوله ، ولا ينبغي أن يكون التعامل مع الآخرين ارتجاليا

١ـ المصدر السابق

أو عشوائيا ،بمعنى أن يعد الإنسان نفسه حينما يتعامل مع الآخرين أن يكون متسامحا كريما سخيا في مشاعره وعواطفه ، وإن كان السيد المسيح قد وضع لنا طريقة للتعامل وكانت على زمنه شديدة الغرابة – ومازالت – فهو لم يقصد المعنى الحرفي للدلالة الألفاظ وإنما يضع أمامنا أفقا راقيا وساميا وفي نفس الوقت بعيدا ، وشيء طبيعي ومنطقي من نبي ولا أظن أن ما يطلبه الأنبياء من السهل والميسور الوصول إليه إلا بجهاد ومجاهدة وبمعاناة ومكابدة ، المهم أن يضع هدفا ومطمحا ومقصدا أمام الإنسانية ، مجرد محاولة الوصول إليه هي نوع من الإنجاز درجة من درجات النجاح والتوفيق ، وإذا ما قدر لنا الوصول إلى ما يطلبه ويوصي به فتلك القمة التي ليس بعدها أو فوقها قمم ." سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ،ومن أراد أن يخاصمك وأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ومن سألك فأعطه ومن أراد ان يقترض منك فلا ترده " [1]

المسيح يصوغ عالما من القيم :

حينما يتحدث النبي فهو لا يتحدث حديثا مباشرا بسيطا ساذجا ، وإنما حديثه ثر له أكثر من مستوى ، وله دلالة في غاية العمق ، ويلمس جوهر الحقيقة، بل يجليها في أوضح صورها ،كذلك ونحن نستمع أو نقرأ ما قاله النبي ينبغي ألا نتعامل مع ما يقوله كما نتعامل مع ما نقوله أو نتحدث به لبعضنا البعض ، هناك نوع من التفرد ، نوع من الخصوصية لحديث النبي وتلك الدلالات أو المعاني ، أو المقاصد والمغازي له ، ينطبق هذا على كل الأنبياء بصفة عامة ، وعلى المسيح بصفة خاصة ،فهو لا يستخدم الكلمات ليدل بها على معانيها المفردة ، ولكنه يستخدم الكلمات لينشئ بها عالما ، ليصوغ بها نوعية متفردة من الوجود الإنساني ، أسلوب راق ونبيل يتبناه الإنسان

---

١ ـ المصدر السابق .

يتناسب مع كرم ورقي الأدمي ، وأنت إذا حاسبت السيد المسيح بكل كلمة مفردة قالها ، فكأنك تنتزع لبنة من بناء عبقري عظيم نادر ، وتحاسب هذا الباني على تلك اللبنة ، كم تساوي وما قيمتها ، وفي هذا العمل الذي قمت به تبديد لكل هذا الجهد والوقت والعناء الذي بذل في البناء ، فلك أن تتصور عالما بجميع سكانه ومأهوليه ، لا يقاوم الشر فيه بالشر ، و في هذا العالم ترد على السيئة بالحسنة والتسامح ، على التشدد باللين ، على التعنت بالسهولة واليسر ،على الأثرة بالإيثار ، على البخل بالكرم ، على الشح بالعطاء ، فهو لا يقصد أنك إذا ُلطمت من أحد أن تعطي له خدك الآخر ليزيدك لطما على لطم ، ولا يقصد أن من سرق منك جنيها أن تسرع وراءه لتعطيه كل ما في محفظتك من مال ، ولكنه يمنح النفس الإنسانية طريقة أو برنامجا كيف تتعالى وترتقي وتسمو ، كيف تتطهر من كل الآثام والأخطاء ، كيف تتخلص من كل ما من شأنه أن يهبط ويتدنى بها ، كيف السبيل أن تصل إلى السعادة في حياتك القصيرة قصرا لا يستحق أن تبدده وتضيعه في سفاسف الأمور ، فإن لم تستطع أن تتسامح مع من لطمك ، على الأقل لا تكون أنت اللاطم ، وألا تكون أنت المعتدي ،وألا تكون أنت الظالم والباغي ، بمعنى لا لك ولا عليك ، وإن كان ليس لك قدرة أن تتسامح مع الشر ، فلا تكون شريرا ولا تنصر الشر ، ودائما من يستمع إلى كلام السيد المسيح يعترض ، كيف من يضربني أطمعه وأدفعه أن يوسعني ضربا ؟ ولماذا تضع نفسك مكان المضروب؟ ومن قال لك أن السيد المسيح لا يقصد بكلامه هذا الضارب وليس المضروب ، لا يقصد الشرير وليس الخير ، فأظن أن كلامه هذا للأشرار أكثر منه للأخيار، للمعتدي أكثر منه للمعتدى عليه ، للسارق أكثر منه للمسروق منه ، فما جدوى أن أتوجه بالنصح للأخيار ؟ ما فائدة أن أسهب بالترغيب في الصلاح للصالحين ، وأيضا ماذا سيفعل الشرير في مجتمع الأخيار ؟ ماذا سيفعل اللص في مجتمع كله أسخياء وكرماء ؟ ماذا سيفعل الطالح في مجتمع كله

أتقياء ؟ السيد المسيح لا يخاطب بحديثه هذا فردا ، وإنما يخاطب به الجماعات الشعوب الأمم بل الإنسانية جمعاء ، الأنبياء لا يبغون صلاح أفراد أو حتى جماعات ، إن هدف ومقصد الأنبياء ، أبعد وأرقى من ذلك بكثير ، إنهم يبغون صلاح الإنسانية ، ليس فيحاضرها فحسب ، بل في مستقبلها أيضا ، لا يريدون معالجة أفراد أو جماعات ، بل يريدون أن يجنبوا الإنسانية كافة وجميع الأمراض ." أننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك ما يقول وهو يقول : ((من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء)).

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطي هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا. ما كان يفوته ذلك ولا ريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الإنسانية هي المقصود، وليس المقصود هو الرداء أو القميص.

المقصود هو أن ترفع النفس الإنسانية فوق أشيائها، بمثل من الأمثلة، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فليكن العطاء حبا وطواعية ، لأن من يعطي مجبرا أو يعطي ما لا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يعطي لأنه يريد العطاء : إنه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالي أن يعطي العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء "[1]

– أساس عتيد من أسس الفساد – هذا إذا كان للفساد أساس – هي المراءاة،وهى أن يكون جل اهتمامك بالظاهر ، بما يراه الناس ، والناس – أو أغلبهم – يحكمون على الإنسان بما يبديه لهم ، أو بما يرونه ، لأنهم غير مشغولين أو غير مهتمين

١- عبقرية المسيح – (١٤٨).

أو ليسوا قادرين ، أو عاجزين أن ينفذوا من هذا الظاهر إلى الباطن ، أو يتركوا السطح ليغوصوا إلى العمق ، أو ينحوا جانبا العرض ويوصلوا إلى الجوهر ، أو يحاولوا أن يسبروا ويخبروا ما في داخل الإنسان ، وما يحاول أن يخفيه ولا يبديه ، عُرف عن الناس هذا الأمر ، فكان من السهل على المرائي خداع الناس ، وفي الحقيقة هو لا يخدعهم ، ولكن هم الذين ينخدعون له ، يساعدونه ، يعاونونه ،لأنهم لو شاءوا ما انخدعوا وما أنطلى عليهم الخداع ، ولأن لا العقل يحكم حياة الناس ، ولا المنطق يضبط تصرفاتهم ، فأصبحت المراءاة أمرا مساغا ، بل مطلوبا ، ومن لا يقدر عليه فهو متعنت ومتشدد ، وفي الإمكان أن يوصف بالهبل والعبط ، ولكي لا يحدث تناقض بين ما يحبذه الناس ،وحقيقة هذا الشيء الذي يحبذونه ، أدعوا أن المراءاة نوع من التجمل ، أي أن يحاول الشخص أن يكون جميلا أو مقبولا أو مستساغا للناس ، وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن الجمال ،لأن الجمال في حقيقته شيء يتعلق ويرتبط بالحقيقة والجوهر ، وأبعد ما يكون عن المظهر والعرض ،وأصبحت هناك قاعدة تؤصل وتؤسس للمراءاة ، وهي ((ما يعجب الناس)) ، فإذا كان الناس يحبون أن يكون الشخص غنيا ، فليظهر بمظهر الغنى ويتكلف ذلك ، وهو في حقيقة الأمر من الفقراء ،وإذا كان الناس يحبون أن يكون الشخص عالما متبحرا في مجال العلم ، فليظهر بمظهر العلامة ، وهو في حقيقة من الراسخين في الجهل والغباء . وإذا كان أمر المراءاة خطيرا فيما يخص أمور الناس الدنيوية ، وخطورته مردودة على الفرد والمجتمع ، على الفرد لأنه يمسخ ويطمس شخصيته ، ويصيبه بمرض عضال لا شفاء منه ، إلى جانب تلك المآزق المخجلة التي توقعه فيها ، وخطير على المجتمع ، أن أفراده خونة ، يختانون أنفسهم أولا ، ويختانون مجتمعهم ، وتصور مجتمع قائم على الخيانة ، فإذا كانت المراءاة خطيرة فيما يخص الأمور الدنيوية – كما قلنا – فإنها أكثر وأشد خطورة فيما يخص الأمور الدينية ؛ لأن من السهل أن يفرط الإنسان فيما يخص أمور دنياه ، بل قد يكون

مستعدا أن يخسر ـ أو لا يـربح دنيـاه ، ولكنـه لـيس عـلى اسـتعداد أن يفـرط ويتساهل أو يخسر دينه وآخرته ،هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الناس أضـعف ما يكونون أمام من يدعي أنه رجل دين ، وشديدي التأثر بما يقوله هـؤلاء الفئـة مـن الناس ، وقد أدرك السيد المسيح هذا الأمر، أن رجال الدين المرائين هم الذين أفسدوا نقاء وطهارة وصفاء الدين ، وبذلك أدخلوا العنـت والحـرج عـلى النـاس ، ولبسـوا عليهم فيما يلبسون ، وحذر الإنسان أن يضع في اعتباره أو اهتمامـه أن يـرضى النـاس ولا يرضى الله ، ووضع أن تلك العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه هي علاقة في قمـة السمو والرقي والطهارة والنقاء ، وينبغي أن توجه كل الطاعات والأعـمال لله – y – فقط ، والذي يعلمها هو الله فقط لأن هو الـذي سـيجازي عليهـا ،وبـذلك يضـع أساس خلقي تتمسك به النفس وهو الصدق والإخلاص وصدق وطهـارة السر ـيرة وصفاء النية " احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام النـاس لكـي ينظـروكم ، وإلا ليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السـموات ، فمتـى صـنعت صـدقة فـلا تصـوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع وفي الأزقة لكـي يمجـدوا مـن النـاس ، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم ، وأما أنت فمتى صنعت صدقة فـلا تعـرف شمالك ما تفعل يمينك ، لكي تكون صدقتك في الخفاء ، فأبوك الذي يـرى في الخفـاء هو يجازيك علانية ، ومتى صليت فلا تكن كالمرائين ، فإنهم يحبون أن يصـلوا قـائمين في المجامع وفي زوايا الشارع لكي يظهروا للناس . الحق أقول لكم إنهـم قـد اسـتوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء ، فأبوك الذي في الخفاء يجازيك علانيـة ، وحيـنما تصـلون لا تكـرروا الكـلام باطلا كالأمم ، فإنهم يظنون أنه بكثرة الكلام يستجاب لهـم فـلا تتشـبهوا بهـم ؛ لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه .

ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس أنهم صائمين ، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم ، وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذي في الخفاء ، فأبوك الذي في الخفاء يجازيك علانية "[1]

– إلى من تخلص النفس ؟ وما الشاغل الأوحد الذي يجب أن يشغل به الإنسان نفسه في حياته ؟ وما الصوت الوحيد الذي يجب أن يتردد في حنايا النفس ؟ وما المقصد – دون غيره – الذي يجب أن تقصده النفس لمحاولة أن تصل إليه دون تأخير او إبطاء ؟

الإجابة: اللّه .

هناك صور متعددة للشرك بالله ، فأنت إذا أحببت المال ، وطغى هذا الحب طغيانا شديدا عما سواه ، وأصبحت لا تفكر كل آن وكل حين إلافي السبل والطرق التي تمكنك من الحصول على المزيد والمزيد من المال ، مترخصا كل الطرق التي تمكنك من الحصول عليه ، مستهينا بكل القيم والمبادئ ، مضحيا بكل الفضائل والأعراف ، مستهزئا بكل الموانع والروادع والزواجر،فهذا نوع من أنواع الشرك ، وقس على ذلك أي شيء استحوذ على الإنسان وسيطر وهيمن عليه ،لأنه في ذلك سيسخر كل لحظة من لحظات وجوده في تحقيق هذا الهدف ، ويتحول إلى عبد أو خادم والمال هو السيد ، هنا لا مكان للقناعة ولا الزهد ولا الرضا ، وإنما هنا الطمع والشره والجشع ، النفس في حرب وصراع وتنازع ، وتخاصم ، السلام والسكينة والهدوء لا وجود لهم ، حل مكانهم القلق والتوتر والغضب والسخط والنقمة ، ويحاول الإنسان أن يشترى بالمال ما فقده ، ولكن إذا كنت قد ضحيت بالسلام النفسي وراحة البال من أجل الحصول على المال ،فمن الصعب بل من المستحيل أن تشترى السلام والراحة بالمال ، لأنك قد

١- إنجيل متى – الإصحاح السادس .

تبيع شيئا لتحصل على المال ، ولكن تعجز أن تعود لتسترده بالمـال ،لـذلك لا ينبغي على الإنسان أن يكون شاغله الأول والأخير ، ماذا سيأكل ، ماذا سيشرب ،ماذا سيلبس ، ماذا سيتولى من منصب أو ماذا سيحدث غدا ؟ وليس معنى ذلك ألا يفكـر في أمور حياته وتدبير أمور معيشته ، ولكن ألا تطغى تلك الأمور ، بحيث تكون هـي الحق كل الحق ، وغيرها باطل الأباطيل ، فالحكمة الأبدية أن تعطـي لكـل شيء حقـه وحجمه وأهميته بدون إفراط ولا تفريط ، وبدون تهويل ولا تهوين .

" لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحـب الآخـر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر،لا تقدرون أن تخدموا الله والمـال ، لـذلك أقـول لكـم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بـما تلبسـون ، أليسـت الحيـاة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ،انظروا إلى طيور السـماء إنهـا لا تـزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها ، ألستم أنتم بـالحري أفضـل منها ، ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيـد عـلى قامتـه ذراعـا واحـدة ، ولمـاذا تهتمـون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ، لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكـم إنـه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها، فإن كان عشب الحقل الـذي يوجـد اليوم ويطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحري جدا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ، فإن هذه كلها تطلبها الأمم ، لأن أباكم السـماوي يعلـم أنكـم تحتـاجون إلى هـذه كلهـا لكـن اطلبـوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم ،فلا تهتموا للغد ،لأن الغـد يهـتم بـما لنفسـه ، يكفي اليوم شره " [١]

١ -المرجع السابق .

الباب الرابع

زكريا – عليه السلام –

كان "زكريا" – عليه السلام – يعيش – على الأقل في أخريات حياته – في مأزق وأزمة .

- أما المأزق : فإنه قد شعر بقرب نهايته ، وبدأ الضعف والوهن يسيطران عليه ، والذي كان يستطيع أن يقوم به بالأمس من مهام وأعباء النبوة ، لم يعد بقادر عليه اليوم ، ولا يستطيع أي نبي أن يحتمل كونه على ((المعاش))، بمعنى أن يعيش أيامه بدون أن يفعل شيئا له قدره وأهميته ، وأثره العميق والممتد فيمن يعيشون حوله ، كذلك لا يستطيع نبي أن يحيا على رصيد ما قدمه في ماضيه ، يجلس يجتر ذكرياته ،ومن حوله ينظرون إليه نظرة الإشفاق والرثاء ، هذا الوضع إن كان يحتمله بعض البشر أو يضيق به البعض الأخر ، فإن أي نبي لا يحتمله ولا طاقة له به ؛ لأن النبي يريد أن يستثمر كل لحظة من لحظات حياته ووجوده في تحقيق هدفه الأسمى والأنبل ، أو على الأقل السعي نحو هذا الهدف الشريف، وهو تجسيد العبودية والوحدانية لله في صورة أفعال وتصرفات وأقوال من حوله ، وكر ومرور الأيام على "زكريا" يؤصل ويؤكد إحساسه وشعوره بهذا المأزق .

- أما الأزمة : فهي تتمثل في موقف الآخرين منه ، عشيرته الأقربين ، فلا شك أنهم يدركون أنه كبر وضعف ، وإذا كانوا لا يتجرؤون على مقام النبوة فيما مضى أو لا يقدرون على الإتيان بما لا يرضاه أو يوافق عليه ، فها هم يتجرؤون – كدأبهم – على مقام النبوة ، ويأتون من الأفعال والأقوال ما لا يرضاه أو يوافق عليه وهو بين

- ظهرانيهم ، فقد رفضوا أن يكفل "مريم" –ﻫ– إلا بعد إجراء القرعة وإلقاء الأقلام ،وحدوث اختصام ولجاجة بينهم ،﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ آل عمران: ٤٤

وهاهي بوادر الفساد والابتعاد والتخلي عن جوهر الدين تظهر في الأفق ، وها هو الخوف والقلق يتسرب إلى نفسه ، كما زحف الوهن إلى عظامه والشيب إلى رأسه ، وهو وإن كان يستطيع أن يفعل شيئا – حتى وهو في حالة الضعف والوهن والكبر – فماذا سيكون الوضع حينما يتركهم إلى الأبد ؟

إن زكريا يشفق ، بل يخاف على تلك الشعلة الواهنة من التوحيد التي يحملها قومه – بنو إسرائيل – وسط عالم من الإلحاد والكفر والوثنية ، يخاف عليها أن تنطفئ ويسود العالم ظلم وظلمات الشرك ، وهو لا يرى أحدا يصلح أن يتسلم تلك الشعلة ليحافظ على وهجها ، أو يزيدها توهجا ، ويرسل ضوئها في الأنحاء ، بل أن قومه بدلا من أن يكونوا عونا ومساعدين له ، ورسل هدى ومبشرين بالنور القدسي ، يمثلون عبئا عليه ، ومثبطين ومحبطين له ،بل لقد سرى الشرك والوثنية والخرافات من الأمم والشعوب الأخرى إليهم ، لا لم يسر، بل هم الذين سعوا إليه ، ونقلوه إليهم ، وتشبهوا بتلك الأمم والشعوب ، وتزيوا بأقبح وأردأ ما تتزيابه الشعوب والأمم .

هو يعلم مدى ضعفهم وتهافتهم وتفاهتهم ، ودناءتهم ووضاعتهم ،وأنهم أصحاب دنيا ،وأنهم على استعداد بل لديهم الرغبة أن يهبطوا إلى ما دون ذلك ، لذلك يعز على "زكريا" بل يؤلمه أشد الإيلام ، ويشقيه أكثر الشقاء ،أن يضيع ويتبدد ويتلاشى هذا الميراث العظيم والجليل من الأنبياء والرسل ، ما يقرب من أربعين نبيا حرصوا حرصا شديدا أن تظل تلك الشعلة المقدسة من التوحيد متوهجة لا تخبو ولا تنطفئ ، وهو آخر تلك السلسلة المباركة ،تلك حقيقة أدركها كل أنبياء بني إسرائيل ،

وأدركها بجلاء ونصوع "زكريا" – عليه السلام – حينما ألقى نظرة على تلك السلسة الطويلة من الأنبياء ، وعرف أنه لا فائدة ترجى من هؤلاء القوم ، وأنهم طعمه فاسدة ومفسدة ، وإن كانت طبيعته النبوية الشـريفة بددت عن نفسه أشباح اليأس والقنـوط ، وجعلته يرجو أو يتمنى أن يكون هناك رجل رشيد يرد هؤلاء القـوم إلى صـوابهم ، ويعيد الرشد إلى عقولهم .

ولكن لماذا لا يكون هو هذا الرجل ، أليس بنبي ؟

على ما يبدو أنه أدرك أن الأمر أكبر وأثقل وأفدح من أن يتحملـه ، وإن كـان هذا إحساس بالقصور والعجز ، وينبغي ألا يتسـرب هذا الإحسـاس إلى النبـي، وإن شعر به فلا يجب أن يكاشـف أحـدا بـه ، ولا يفصـح عنـه ، ولكـن إذا أخفـى النبـي إحساسه عن كل من حوله ، فلا ينبغي أن يخفيه عـن خالقـه ، ومصـارحته لخالقـه لا تستوجب غضب ونقمة الله على نبيه ، فما شعر به النبي واقع وحقيقة ، وهـو لا يكـابر مع الحقيقة ، ولا ينكر الواقع ، فليتجه إلى الله حاملا كل ما يؤرقه ويقـضُّ مضـجعه ، والإحساس بالقصور والعجز لا يغض من شأنه ، وإنما يدل عـلى مـدى حرصـه عـلى الحفاظ على ميراث النبوة ، فخير للنبي أن يعلن ذلـك مـن أن يكـون سـببا في ضـياع وتبديد هذا الميراث النبوي المبارك .

وفي حقيقة الأمر فالنبي لا يشعر بالوهن والضعف والتعب ، لأنـه لا يسـتمد قوته ومدده من دمه وأعصابه ، ولكنه يستمدها من روحه ، فهـو رجـل روح قبـل أن يكون رجل من لحم ودم ، والروح حينما تتألق وتعمر بمـدد وعطـاء مـن الله لا ينـال الجسد تعب . وإن شكي نبي من ضعفه ووهنه ، هو لا ينظر إلى نفسه ، وإنـما ينظـر إلى عظيم المسئولية وثقل العبء ، وأنه لا يريد أن يصدر منه تقصير أو عجز ، وفارق كبير أن تشعر بالضعف والـوهن ،بـدون أن يكـون هنـاك عـبء ومسـئولية ، وأن تشـعر بالضعف والوهن لأن المسئولية والواجب الذي يجب أن تنهض به في حاجـة إلى شيء يفوقك ويخرج عن طاقتك ومقدرتك

هو لم يدخر وسعا ، ولم يقصر طوال عمره ، ولكن النتيجة المؤسفة والثمرة المرة لجهد نبي في نهاية عمره خوف مواليه :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ال عمران: ٣٨ – ٣٩

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ مريم: ١ – ٧

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ الأنبياء: ٨٩ – ٩٠

هاجس الدين هاجس ملح لا يفارقه ، فهو تارة ينادي ربه ألا يتركه وحيدا بدون أن يكون له عقب ، وتارة يدعو الله أن يهب له ذرية طيبة يواصلون حمل رسالة النبوة ، وتارة ينادي ربه بعد أن قدم عريضة عرض حالة ، ومبررات وأسباب طلبه أن يهبه وليا ، وحدد مهمته ودوره ، أنه يرثه ويواصل مهامه ومهام آل يعقوب ، وأن يكون رضيا ، يستحق أن يرضى الله عنه ، وأن يرضى الناس عنه ، وأن يرضى هو عن نفسه .

ولا نستطيع أن نستبعد البعد الإنساني في أمنية "زكريا" النبيلة ، فهو وإن كان لديه المبررات النبوية لطلب أن يكون له وليا يرثه ويرث ميراث آل يعقوب، فقد تمنى أيضا أن يكون له ولد يكون سندا له ويعينه ، وأيضا يرضي في شخصيته جانب الأبوة والتي لا شك كانت تلح عليه ، كأي إنسان ، وزادت إلحاحا في سنواته الأخيرة ، والدليل على ذلك رغبته القوية أن يكفل "مريم" ، فهذا الأمر يرضي فيه إحساس الأبوة الذي حرم منه طوال عمره .

ولكن على أية حالة سيأتي هذا الوليد ، من أب تجاوز المائة ، وقد وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ، وكذلك الأم إن لم تكن وصلت إلى نفس الحالة فهي تقترب منها بثقة ؟

وماذا سيرث الوليد أو الجنين من هذين الأبوين ، وهل بقي في كيانهم من صفات وميزات وخلال يورثانها للوليد ؟

نعم ، سيورث الوالدان لابنهما أشرف وأنبل وأعظم وأجل ما يورث الوالدان ابنهما ، فالأب نبيا من الأنبياء الكرام ، والأم زوجة نبي على نفس النحيزة والطبع من الطهر والنقاء ، قد يقول العلم كلمة في هذا الأمر ، لاسيما علم الوراثة ، يقول أن الوليد سيأتي في غاية الضعف والوهن ، وقد يأتي به بعض الآفات والعيوب الخَلقية ، نعم قد يحدث ذلك ، ولكن حينما تتدخل العناية والرعاية الإلهية ، فإن أمر الله غالب ونافذ ومعطل لجميع السنن والقوانين العلمية .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾آل عمران: ٦

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الوليد لا يرث من والديه الصفات الخَلقية فحسب ، وإنما يرث أيضا الصفات الخُلقية ،وحينما وصلا الوالدان إلى هذه السن ، فجميع الصفات والخلال والميزات قد نضجت واكتملت وتمت ، وحدث لها نوع من الصفاء والتصفية ، نوع من الطهر والتطهر ، نوع من الرقي والارتقاء ،وكل

هذا سيرثه "يحيي" .وقد تعجب "زكريا" في بداية الأمر حينما بشرته الملائكة "بيحيـي" ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ آل عمـران: ٤٠ – ٤١ "((ثـلاث ليال))..لماذا ؟

لترتفع موجات زكريا الروحية ...إلى أعلى مرتبة ...يمكن أن يرتفع إليها لماذا ؟! لأن من هذه الموجات سوف يرث الطفل القادم جميع الصفات .

فإذا كانت موجات زكريا في هذه الأيام الثلاثـة أعـلى كانـت صـفات الطفـل أعلى. وأما الزوجة فهي الأخرى تتوجه أكثر وأكثر إلى ربها ((أن سبحوا بكرة وعشـيا)) هناك وعد حتمي الوقوع من الله .

وهناك آية وقعت بزكريا ، وهي حبس لسانه تؤكد هذا الوعد .

وهناك شيخ غادر المائة ، يموج إلى ربه موجا .

وهناك زوجة قاربت على المائة ، تموج هي الأخرى موجا عظيما .

وعادت الحياة إلى زكريا ، وكان اهتزازها غضا طريا .

وعاد الشباب إلى اليصابات أو اليزابيث ، وتغير التركيب مـن الشـيخوخة إلى الشباب ، ومن العقيم إلى الإنجاب ((وأصلحنا له زوجة))

أعدناها إلى الشباب ، فصارت صالحة للإنجاب .

ارتفعت أمواج زكريا الروحية ، خلال هذه الأيام الثلاثة إلى أعلى مستواها .

وارتفعت أمواج اليصابات معه إلى مولاها .

هناك التقى الزوج بزوجته .

هنالك وقع الحمل بيحيي .

فجاء الطفل على صفات أبيه آنذاك .-وصفات أمه وقتذاك "[1]

١- حياة يحيي – د. أحمد شلبي – (٧٢- ٧٣)

الباب الخامس

"مريم" عليه السلام

منذ أن خلق الله – y - الخلق وهناك خط موصول لا ينقطع ،قد تتباعد المسافات والأزمنة بين حلقاته ، ولكن أبدا لم تنقطع ولم تنفصل تلك الحلقات ، وهي سلسلة النبوة ، سلسلة بدأت حلقاتها منذ بدء الخليقة ، منذ خلق آدم عيه السلام ، وكان ختام تلك السلسلة المباركة بمحمد –ﷺ– ، وكأن تلك السلسة هي التي تجذب الإنسانية إلى خالقها كلما تباعدت أو بعدت عنه ، أو كأنها الحبل الذي يعصمها أن تضل ضلالا بعيدا عن الحكمة من خلق الخلق ، وهو تحقيق العبودية والوحدانية لله y . " وإن في ذلك التسلسل دليل على أن الله – تعالى – قد اقتضت حكمته أن يجعل في الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم ، فقد ابتدأت الهداية بآدم أبي البشر- كما قال – تعالى –﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾طه: ١٢٢

ثم جاء من بعده بقرون لا يعلمها إلا الله نوح – عليه السلام – فمكث يدعو الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ((ألف سنة إلا خمسين عاما)) ثم جاء من بعد ذلك إبراهيم – عليه السلام – ، فدعا الناس إلى عبادة الله وحده ،فكان هو وآله صفوة الخلق وفيهم النبوة ، فمن إسماعيل من إبراهيم كان محمد ﷺ الذي ختمت به الرسالات السماوية .

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ..ومن فرع إسحاق كان آل عمران وهم ذريته وأقاربه كزكريا ويحيي وعيسى الذي كان آخر نبي من هذا الفرع "[1]نوع من التسلسل والاتصال والتواصل من الأنبياء ، وقد اصطفى الله هؤلاء واجتباهم بما ميزهم به من خلال

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد الثاني (٨٥)

وصفات نورانية تجعلهم أهلا للإنسانية أن تقتدى بهم في مشوار حياتها الطويل ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

آل عمران: ٣٣

" إن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم من نسل بعض ، فهم متصلو النسب ، فنوح من ذرية آدم ، وآل إبراهيم من ذرية نوح ، وآل عمران من ذرية إبراهيم ، فهم جميعا سلسلة متصلة الحلقات في النسب ، والخصال الحميدة "[١]

وهنا بداية حلقة جديدة من حلقات سلسلة النبوة، تبدأ بدعاء امرأة "عمران" ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ **آل عمران: ٣٥**

من "عمران" ؟

عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا ، ينتهي نسبه إلى "إبراهيم" عليه السلام ، ولا شك أنه كان رجلا من الصالحين ، وأن صلاحه هذا كان يدفعه أن يكون حريصا على مستقبل الدين في بني إسرائيل ، ونستطيع أن نستنتج أن أمر وفكرة نذر ما في بطن امرأته هو صاحبها ، لأن الشيء المنطقي الذي يقوم بالنذر هو الرجل وليست المرأة ، أو الأب وليست الأم " وكان هذا النذر يلزم في شريعتهم فكان المحرر عندهم إذا حرر جعل في الكنيسة يخدمها ولا يبرح مقيما حتى يبلغ الحلم ، ثم يتخير فإن أحب ذهب حيث شاء ، وإن اختار الإقامة لا يجوز له بعد ذلك الخروج ، ولم يكن أحد من أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم إلا من أولادهن حرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى "[٢]

١- المصدر السابق – (٨٥)
٢- حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص (٤٦٢) نقلا عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم – المجلد الثاني (٨٦)

أو ربما أمر النذر هذا كان اتفاق بين " عمران" وزوجته تقربا منهما إلى الله، أو كان وصية منه لزوجته ،وربما كان الزوج يحدث زوجته أن ما في بطنها ولد ، سيقدمه ليخدم الدين ، خالصا لوجه الله ، أيا كان الأمر ، فإن الاثنين – عمران وزوجته – كانا على نفس الدرجة من الصلاح والتقوى ، والحرص على الدين ، والاهتمام بمن يواصل هذا الخط في رعاية أمر الدين ، ولتمام صلاح هذا الرجل ، وكمال إيمانه ، صار علما على التدين والتمسك بما تركه أنبياء بني إسرائيل .

نوع من الإيمان والتسليم والانقياد والخشوع والخضوع التام والكامل لله ، امرأة حامل تهب ما في بطنها لله ، وهي بلا زوج وليس لديها من الأولاد ما يعوضها عن هذا الذي تهبه ، فهي تتقرب إلى الله بأعز ما لديها ، وهي لا تكتفي أن تكون عابدة لله ، وترى أن هذا لا يكفي ، ففي وقت قادم ستموت ، وتريد أن يستمر من يحمل راية العبودية والتوحيد ، ويكون في خدمة الدين .

ملامح شخصية في غاية الوضوح والرقي والسمو والنبل ، ترى وجودها كله منحصرا في التحقق من رضا الله ، وهي تهب ما في بطنها على ظن أنه ذكر ، كي يستطيع أن ينهض بعبء خدمة المعبد ، وما يترتب على ذلك من أعباء أخرى، ولكن جاء المولود أنثى . ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾آل عمران: ٣٦

لا يشغلها الحاضر بقدر ما يشغلها المستقبل ، وليس مستقبلها هي ، وإنما مستقبل الدين ،وكأن هناك هاجس لديها ، أن هناك خطرا ما ، أو أن هناك واجب مقدس يدفعها أن تهب لهذا الدين أغلى وأثمن ما عندها ، نفس الهاجس عند " زكريا" – عليه السلام – فهي قد وهبيت ما في بطنها ، وهو تمنى أن يكون له ولد، لنفس الهدف النبيل والمقصد المقدس ، خدمة الدين .

وامرأة عمران تمنت أن تكون "مريم" بعيدة عن النقائص لتناسب نبل الغرض والمقصد الذي وُهبت من أجله ، وكأنها لا تنتظر من "مريم" حمل رسالة التوحيد وخدمة الدين ، ولكن – أيضا – ذريتها يتولون ذلك ، ولأن الدعوة خالصة لوجه الله ، ورغبة في الصلاح والإصلاح فقد استجاب الله﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ آل عمران: ٣٧

وتنشأ "مريم" – ومعناها العابدة – في كفالة ورعاية وعطف وحدب النبي "زكريا" ، الطهر يحوطها ، والنقاء يشملها ،قد ورثت خير وأفضل وأنبل وأطهر الصفات عن والدها " عمران" وعن أمها ، وتخلص إخلاصا شديدا في العبادة والتبتل لله ، وكلما خلصت لله كلما زادت عنده منزلتها ومقامها ، ولا يحرمها الله من إشارات ودلائل أنه راض عنها ،ويرسل إليها ملائكته ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٤٢

" فأنت ترى أن الله – تعالى– قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة ، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه والتنويه بقدره .

وقال الفخر الرازيما ملخصه :

والاصطفاء الأول إشارة إلى ما أتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها بأن قبل الله – تعالى – تحريرها أي خدمتها لبيته ، مع أنها أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ، وبأن فرغها لعبادته وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة ، وبأن كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله.

وأما الاصطفاء الثاني فالمراد به أنه – تعالى – وهب لها عيسى – عليه السلام – من غير أب وجعلها وابنها آية للعالمين"[1] ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾آل عمران: ٤٣

" القنوت لزوم الطاعة والاستمرار عليها ، مع استشعار الخشوع والخضوع لله رب العالمين . أي : قالت الملائكة أيضا لمريم : يا مريم أخلصي العبادة لله وحده وداومي عليها ، وأكثري من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين ، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه – y .

فالآية الكريمة دعوة قوية من الله – تعالى – لمريم ولعباده جميعا بالمحافظة على العبادات ولاسيما الصلاة في جماعة .

فأنت ترى في هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول ، فقد أخبر – سبحانه – باصطفائها صغيرة وكبيرة ، ويطهرها من كل سوء ، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى ، وذلك لما لابس مولد عيسى – عليه السلام – من خوارق ، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم ، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هي بريئة منه ، ثم بعد ذلك يأمرها – سبحانه – بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين "[2]

❖ ملامح شخصية:

ونستطيع أن نكون ملامح شخصية مريم منذ مولدها ، إنسانة تعيش بمعزل عن كل موبقات ومؤثرات العالم حولها ، جدران وأبواب المعبد تحفظها مما في خارج المعبد ، وصفاتها وطبعها يمنعها أن تشبع فضولها مما يحدث ، لقد شغلت كل

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – المجلد الثاني – (١٠٢)
٢- التفسير الوسيط – المجلد الثاني – (١٠٤)

جوارحها وحواسها بالعالم العلوي ، وتعلـق قلبهـا العـامر بـالإيمان بالخـالق الأعظم ، وما كان يصل إليها من مؤثرات العالم الخـارجي كـان يصـل إليهـا مصـفى منقي ، يتناسب مع طبعها النوراني ومزاجهـا القـدسي ، فهـي متفرغـة تفرغـا كـاملا للحقيقة من هذا الوجود الإنساني وهو العبادة لله ، أما مشاعرها وأحاسيسها كـأنثى ، فقد تبددت أو تلاشت ، أو طغى عليها هـذا الإحسـاس الفيـاض ، أو تلـك النشـوة والسعادة من خلال نجاحها وتوفيقها وفوزها أن حققـت عبوديتهـا لله ، كـل وقتهـا وطاقتها مكرسان للعبادة ودراسة كتب الله وسير الصالحين مـن الأنبيـاء ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ التحريم: ١٢

" التي أحصنت فرجها أي حفظته وصانته إذ الإحصان جعل الشيء حصينا ، بحيث لا يتوصل إليه ، وهو كناية عن عفتها وطهارتها وبعدها عن كل فاحشة .

وكان من صفات مريم ابنة عمران أنها آمنت إيمانا حقـا (بكلـمات ربهـا) أي بشرائعه التي شرعها لعباده ، وبما ألقاه إليها من إرشادات عن طريق وحيه ، (وكانت من القانتين)وكانت من نسل الرجال القانتين ، الذين بذلوا أقصـى جهدهم في طاعة الله – تعالى – وفي إخلاص العبادة له "[١]

لا شيء يحدث فجأة أو مصادفة أو ارتجالا ، لابد أن يكون هناك تجهيز وإعداد وتهيئة ، لاسيما والذي سيحدث سيترتب عليه أمور تغـير العـالم تغيـيرا جـذريا ، هنـا "مريم " تعد وتهيئ لأمر عظيم الشأن ، وجليل القدر ، هذا الإعـداد قبـل أن تولـد ، وهي جنين في بطن امرأة عمران ، واستمر الأعداد والتجهيز والتهيئة ،أن تنذرها أمها لله محررة ، وتدعو الله أن يحفظها وذريتها من الشيطان ، وأن يتقبلها الله بقبول حسن ،

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - المجلد الثاني – (٤٨٤- ٤٨٥)

وينبتها نباتا حسنا ، ويكفلها نبي الله "زكريا " وأن يحوطها الله برعايته وعنايته ويرزقها رزقا حسنا ، وأن تناديها الملائكة أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ، وأن تخضع وتقنت لربها وتسجد وتركع وتكون من القانتين .

مراحل متعددة ومتواصلة ومترابطة من الإعداد النفسي والوجداني والفكري "لمريم" ، وحينما وصلت للذروة ولمرحلة الكمال الإيماني ، والتمام النفسي ، والنضج الفكري ، والاستقرار والثبات الوجداني ،جاءها ما أعدت وجهزت وهُيئت له :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٤٥ – ٤٧

ولتأصل وتعمق واشتمال "مريم" على الطهر والنقاء والعفاف ، لم تشغل بصفات المولود النورانية وما يترتب على ولادته من معجزات وخوارق عادات ، ولكنها شغلت بطهارتها ونقائها وعفتها ،من ناحية ، وما سوف يقوله عنها قومها من ناحية أخرى ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٥٦

فكل ما تتصف به "مريم" من نقاء وطهر وعفاف ، لم يشفع لها ، واتهمت في شرفها ، وتناولتها ألسنتهم الحداد ، وهذا ما كانت تخشاه .

وجاءت الإجابة حاسمة وقاطعة ، وخضعت واستسلمت لأمر ربها ، وهي المطيعة العابدة القانتة المتبتلة . ولكن هل ستتحمل تلك الإنسانة الرقيقة الوادعة المنعزلة عن صخب العالم حولها ،أعباء وثقل كونها محور معجزة ، لم تحدث لأحد من قبل ، أن تكون أم بدون أن يمسسها بشر ؟

نعم ستتحمل وتنهض بأعباء وثقل تلك المعجزة بكل نجاح وكفاءة ، وإلا لماذا كان الإعداد والتجهيز والتهيئة ؟ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ مريم: ١٦ – ٣٦

(قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا) ، قالت هذا وهي تعلم من قبل أن هذا سيحدث ، أنه سيأتي وقت وتلد فيه ، وقد استسلمت وسلمت أمرها لله، وقد جُهزت وأُعدت وهُيئت لهذا الأمر كما قلنا ، فما لها تقول هذا القول ، وتتمنى تلك الأمنية ؟

لقد قالتها من منطلق إنساني بحت ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى العلم والمعرفة شيء، وخوض التجربة شيء أخر ، فنحن كلنا نعلم أنه سيأتي وقت ونموت ،

ولكن العلم شيء ، وخوض تجربة الموت شيء آخر، ومن ناحية ثالثة أن شخصية مريم من اللطف والرقة والبراءة والعفاف والطهر والنقاء ، ما يجعلها ليست لديها القدرة على مواجهة من حولها ، فالموت أهون وأيسر من تلك المواجهة ، وحينما تجتمع كل تلك المشاعر مع آلام المخاض وهي وحيدة ومنعزلة، يظهر لك مقدار المأزق التي تعانيه "مريم" ، هي مقبلة على موقف لم تتخيل أنه ستمر به من ، فهي تعلم أنها لن ترحم ، ولن يقدر أحد حالتها أو موقفها ، نعم هي خضعت واستسلمت وانصاعت ،لأن لديها من الإيمان والتقوى ، ولكن موقف الآخرين منها ، ماذا سيقولون ، هي بالنسبة لهم امرأة أنجبت طفلا بدون أن تكون متزوجة .

وفي هذا الموقف العصيب والرهيب لم تتخل عنها الرعاية الإلهية ، فهناك صوت ملائكي يهدهد مشاعرها ، ويبث الطمأنينة ، وينشر الراحة والسكينة في نفسها ، ويشعرها أنها ليست وحيدة وليست منعزلة ، ولكن في عين الرعاية الربانية ،لا تحزني ، فهي في حصار من المشاعر القاتلة ، في حاجة إلى من يخرجها من هذا الحصار ، وفي حاجة إلى من يطعمها ويسقيها ، ليكون لديها من القدرة والقوة للمواجهة ، مع أنها لن تقدر على تلك المواجهة ، لذلك كفاها الله عبء تلك المواجهة ، بمعجزة أن تكلم الوليد في المهد .واستحال الخوف إلى أمن،والضعف إلى قوة ، والتعب إلى راحة ، والقلق إلى طمأنينة ، والحزن إلى سعادة ، والفزع إلى شجاعة وثبات ،لم تكن تدرى أنها بهذه الجرأة والقوة والقدرة أن تواجه العالم ، وهي تحمل وليدها وتتقدم من قومها ، إنها طاقة لا حد لها من الإيمان ، لم تصل إلى تلك المرحلة إلا بعد أن مرت بمراحل ، كل مرحلة كان لها أثر في شخصيتها وكيانها ، وبالتالي في شخصية الجنين وكيانه ، هذا الترقي والارتقاء ،لم يكن المقصود منه السيدة "مريم" فقط ، وإنما الجنين الذي يتكون داخلها ، لا نستطيع أن نعزل الجنين عن كل ما تتعرض له الأم ، فكل ما اتصفت به الأم من الرقة والعذوبة واللطف والشفافية ، والطهر والنقاء والصفاء والنورانية ،

والقنوت والخضوع ، وقوة الإيمان ، أورثته الأم مصفى مطهر لابنها ، وكل الدرجات التي صعدتها الأم وسمت من خلالها ، شاركها فيها ابنها ، بل هو الذي حصل وظفر وفاز بثمرة هذا الترقي والصعود ، ويأتي "عيسى" عليه السلام ،مجمع لأنبل وأعظم وأرقى وأجل وأسمى وأطهر وأنقى وأصفى الخلال والصفات .

الباب السادس
يوحنا المعمدان

شاءت إرادة الله أن تتجلى بصورة تدركها حتى الأعين الكليلة في شخصين عظيمين ، أما الأول فهو "يحيى بن زكريا" ، والثاني عيسى بن مريم عليهما السلام .

أما "يحيى" فقد ذكرت صفاته وسماته الخلقية قبل أن يكون جنينا في بطن أمه ، والمعلوم أن كل الخلائق معروفة ومعلومة صفاتها الخلقية والخلقية وهم في طي الغيب عند الله - y – ولكن مع "يحيى" أعلم الله- y – الآخرين صفات وسمات هذا النبي ، فجاءت بعض الصفات كما تمناها ودعا بها "زكريا" ، وبقية الصفات كانت من عند الله ، وأن يعلم الله الآخرين بتلك الصفات ، فهناك – ولا شك – حكمة من وراء ذلك .

فربما – والله أعلم – أن العصر وأهل ذلك العصر لم يطلعوا ولم يعرفوا ولم يدركوا تلك الصفات ، أو أن عمر "يحيى" كان من القصر بحيث لم يسمح بأن تتبدى مفعول وأثر تلك الصفات ، أو أن أهل ذلك العصر كانوا من السفه وفساد الطبع وسوء الطوية وخراب الذمة وعطب الضمير أنهم اطفئوا هذا الوهج والنور الذي جاء به "يحيى" .

فقد أثبت الله – y – تلك الصفات والسمات التي تتصف بها شخصية "يحيى"، وأن الاستعداد موجود لديه ،وأنه مهيأ ومعد ، وأن الفرصة متاحة أمام ذلك العصر أن يهتدي ويستنير ويقتبس ويسترشد من هذا النور ، والعصر كان في أمس الحاجة ، وألح العوز لمثل تلك الشخصية ، في حاجة إلى نبي قوي عالم فقيه ، جديد في أسلوبه وطريقته .

الشخصية والعصر
(صوت صارخ في البرية)

كانت شخصية "يوحنا" من الشخصيات التي لا يحتملها زمنها ولا تحتمل زمنها.

فقد كان رافضا ومتصادما وثائرا وغاضبا وناقما على العصر الذي وجد فيه ، كذلك كان عصره غير متفق ولا متوافق ولا متوائم معه ، فهو لا يطيقه بأي صورة من الصور .

ومع ذلك فلم يخلق" يوحنا" إلا في ذلك الزمن ، ولم يحتو يوحنا إلا هذا الزمنُ ؛ولكي يرفع هذا التناقض أو التضاد بين الطرفين ليس هناك إلا أمران :

أما أن يغير" يوحنا" جميع الأوضاع والمفاسد والنقائص التي لا يتفق معها ولا تتفق معه ، ويأتي بأوضاع أخرى يتفق معها وتوافقه ، وهذا – في حد ذاته – ليس بعسير ولا مستحيل على نبي ، بل من أول مهام النبي أن يصنع مقاديره ومقادير العالم من حوله ، فلديه مقدرة وقدرة هائلة على التغيير والإصلاح .

– أن يتخلص الزمن من النبي ويبعده خارج سياقه بأي صورة من الصور ، **وهذا لا يتأتى إلا في ظرفين :**

الأول : إما أن تكون شخصية النبي ليس لديها القدرة والمقدرة على الوقوف والتصدي والجهاد للتغيير والإصلاح .

الثاني :أو أن حالة العصر وأوضاع وصور وأشكال الفساد كانت أكبر من قدرة النبي ، وأن حالة البشر في ذلك العصر وفي ذلك المكان وصلت إلى حالة لا يجدي معها أي وسيلة من العلاج ، أي وصلوا إلى حالة ميئوس من إصلاحها،على الأقل في النطاق الزمني المحدود

بالنسبة للظرف الأول لا نستطيع أن نقول أن شخصية أي نبي ليس لديها القدرة والمقدرة ، وإلا ما سبب وما مبرر وجوده ؟

يوجد نبي ، إذن من أول وأهم لوازم تلك النبوة ، القدرة على إحداث تغيير جذري في العالم إن لم يكن تغييره بالكامل ، و"يوحنا "بصفة خاصة كانت لديه قدرة هائلة وبلا حدود على تغيير وإصلاح العالم حوله ،بما وهبه الله من سمات وخصائص ومقومات وإمكانات ، بل لم يسبق أن زود نبي بما زود به يوحنا ،" كان "يحيى" بارعا في الشريعة الموسوية ومرجعا مهما لكل من يفتى في أحكامها ...

وكان على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه ، وقد قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكم صبيا) والظاهر أن الله تعالى رزقه الإقبال على معرفة الشريعة حتى صار عالما بها في صباه – وقد نبئ قبل أن يبلغ الثلاثين _ وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب وكان يعمدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا ، وقد اعتمد منه وهم يسمونه ((يوحنا المعمدان))وقد سئل من اليهود هل هو المسيح ؟ فأجاب : أن لا . فسئل هل هو النبي ؟ فأجاب : أن لا . فقالوا له : لماذا تعمد إذا لم تكن المسيح ولا النبي ؟ فقال : أنا صوت صارخ في البرية ، هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة "[1]

وتنص الآيات صراحة على أنه لديه من القدرات والمواهب ما يجعله حائزا على إمكانات تخوله أن يشكل ويغير العالم وفق ما يريد ويهوى

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ آل عمران: ٣٩ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ مريم: ٧ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ مريم: ١٢ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الأنبياء: ٩٠

١ـ قصص الأنبياء ــ د. محمد عبد الوهاب النجار ــ (٣٦٩)

بالنسبة للظرف الثاني ،لا أحد لديه القدرة ولا الصلاحية أن يقرر أو يحكم على زمن من الأزمنة أنه ميئوس من إصلاحه ، أو لا جدوى ترجى منه ، فمجرد وجود نبي في هذا الزمن هو نوع من الرجاء في الصلاح ، أمنية وأمل ، بل إقرار وجزم أن هؤلاء الناس ستثمر فيهم دعوة النبي ، إن لم يكن على المدى القريب ، فعلى المدى البعيد – وليس البعيد جدا – فإرسال النبي للناس هو – في حد ذاته – استجابة لرغبة وحاجة الناس ، وما من نبي يأتي إلا ويكون على انتظار وترقب ، بل تصل حالة الناس إلى نوع من التشوق والتلهف إلى النبي، فهناك توافق قدري بين وجود النبي ، وحاجة الناس إليه بل ورغبتهم، وما العناد والإنكار والصدام والمقاومة التي يجابه بها النبي في بداية أمره ،والتي تصل في أحيان كثيرة إلى الحرب الصراح – إلا نوع من الدفاع عن مصالح قد – بل أكيد – تتبدد مع دعوة النبي ، أو عدم رغبة في تغيير الواقع الفاسد ، وعدم القدرة على استقبال عالم جديد غير مألوف ، والدليل على ذلك أن أول من يقاومون أو يحاربون النبي ، هم من بيدهم أزمّة الأمور في المجتمع ، فبمنطق هؤلاء أن هذا الداعي جاء ليفسد عليهم أمرهم ، مع أنه جاء ليصلح ، وبمنطق هؤلاء أن هذا الداعي جاء ليقضي عليهم ، مع أنه جاء ليبقيهم ويحيهم حياة تليق بالإنسان ، ويجعله يثوب إلى رشده ، ويخلص نفسه ويطهرها من الدنس والرجس والفساد .

إذن شخصية "يوحنا" كانت لديها القدرة والمقدرة على التغيير والإصلاح وتخليص العالم من كل المفاسد والشرور.

والواقع أو الزمن أو الناس ينتظر منهم الأمل والرجاء، أو هناك فرصة أن يستجيبوا ويتفاعلوا مع الداعي ويتعاطوا مع دعوته.

ولكن الواقع أو ما حدث يدل على أن "يوحنا" لم يغير ولم يصلح العالم حوله ، ولم يستثمر ولم يوظف كل ما زُود به من مواهب وقدرات وإمكانات .

وإن أهل ذلك الزمن لم ينتفعوا ولم يستفيدوا شيئا من تلك المواهب والقدرات والإمكانات .

فهل كان هناك عجز من الطرفين، عجز من النبي أن يعطي ويمنح ويرشد ويهدي الناس ،وعجز من الناس أن يأخذوا ويقتبسوا ، ويسترشدوا ويستهدوا من النبي ؟

فأين التقصير والعجز ، في النبي أو في الناس ، أو في كليهما ؟

التاريخ لا يحاسب الناس وإنما يحاسب النبي، أو لا يحاسب الناس بقدر ما يحاسب النبي .

ولو قمنا بعملية تقييم أو بحث حالة لما فعله "يوحنا" ، مقارنة بما فعله أنبياء آخرون، فسنجد الحصاد قليلا، بل قليلا جدا ، بل قد لا نجد شيئا بالمرة !

ولكن هذا الحكم أو التقييم نتيجة للنظرة المتسرعة والفكر المتعجل، الذي لا يتعمق إلى حقيقة الأمور وبواطن الأحداث.

فنحن لا نقيس عمل النبي على ما نريده ونتمناه ، ولا نحاسبه على ما لم يفعله أو يحققه من وجهة نظرنا ،وإنما يجب أن نقارن بين المهمة أو الدور أو العمل الذي من أجله أرسل ، وتوفيقه ونجاحه في القيام بتلك المهمة أو هذا العمل .

مهمة " يوحنا "

فدور ومهمة وعمل "يوحنا" هو التمهيد والإعداد لرسالة ودعوة السيد المسيح ، ولا يظن أحد أن هذا الدور أو المهمة من السهولة واليسر ، ولكنها في غاية العسر والمشقة ، مع أنها محدودة بعمل وموقوتة بزمن ، وهذا سبب عسرها ومشقتها ، فأكثر المهام والأدوار صعوبة هي التي تحدد بوقت معين لا يتجاوزه ، وأمام النبي أن يختار من الوسائل والطرق أشدها فاعلية وأبلغها تأثيرا ، ترف الوقت ورفاهية اختيار الوسيلة غير متاحين له . وهذا هو المحور الذي دارت عليه شخصية يوحنا ، وربما

يكون تفسير وصف ((حصورا)) له هذا المعنى ، فمن ناحية أن الصفات والسمات والخصائص النبيلة والراقية محصورة في " يوحنا" ، ومن ناحية أخرى أن مهمته ودوره محصور في الإعداد والتهيئة ، لذلك أوتي الحكم صبيا ، ليس هذا فحسب بل وأمر أن يأخذ الكتاب بقوة ، لا وقت ولا جهد معرض للضياع أو التبديد ، كان مختصرا ومختزلا في كل شيء ، ملابسه طعامه مسكنه طريقته أسلوبه فكره مشاعره ، كان صادما مزلزلا مجابها ثائرا صاعقا صارخا ، جاء ليفتح طريقا ،ويشق سبيلا ، جاء ليزيح الركام، جاء ليحرك الأختام من على القلوب ، ويزيل الأغشية من على العقول .

ولكن قد يثور سؤال هنا ألم يكن بنو إسرائيل على انتظار وترقب وتلهف لظهور نبي في هذا الوقت بالذات ؟

نعم كان بنو إسرائيل على انتظار لمجيء نبي .

إذن فيم كان التمهيد والإعداد والتهيئة التي جاء من أجلها "يوحنا" ؟

ومن قال إن انتظار وترقب بني إسرائيل لمجيء نبي هو نوع من التمهيد والإعداد ؟!

فقد تقوم بانتظار ضيف ولكن لا تعد ولا تمهد له ، فالانتظار شيء ، والإعداد والتمهيد شيء أخر .

بل إن الانتظار والترقب من ناحية بني إسرائيل هو الذي استدعى أن يكون هناك إعداد وتهيئة ، لأن النبي الذي كانوا ينتظرونه جاء على خلاف ما يظنونه ويتوقعونه ،فقد جاء المسيح ليكون صادما لبني إسرائيل ، كانوا ينتظرون نبيا يخلصهم مما هم فيه ، ينقذهم مما حاق بهم من ظلم وإجحاف وإهانة من الأمم الأخرى ، كانوا ينتظرون نبيا يعيد مجد وعزة وسلطان وصولجان " سليمان" ، كانوا ينتظرون نبيا يقر ويؤكد مكانتهم كشعب الله المختار ، وأنهم مميزون عن بقية الأمم والشعوب ، كانوا

ينتظرون نبيا من خلاله يذيقون الأمم والشعوب ما ذاقوه ، وينزلون بالآخرين ما نزل بهم ، كانوا ينتظرون نبيا ليكون وسيلة ثأر وانتقام ، كانوا ينتظرون نبيا يداوي جروحهم ويشفي كل عقدهم النفسية والخلقية والانحرافات والتشوهات الفكرية التي تراكمت وتكونت على مر مئات السنين .

ولكن للأسف كل هذا خارج اختصاص ومهام النبي ،النبي لا يأتي ليعيد مجد وصولة وسلطان أرضي أو زمني ، النبي لا يأتي ليرفع قوما أو شعبا أو أمة فوق أخرى ، النبي لا يأتي ليثأر أو ينتقم ، فكل ما كان بنو إسرائيل يرجونه من النبي ليس من مهامه ، لأن كل ما كان يريده بنو إسرائيل حققته الأمم والشعوب الأخرى بدون نبي ، وكل ما أخفق فيه وخسره بنو إسرائيل حدث وتحقق ومعهم ميراث عدد من الأنبياء يبلغ العشرات ، ولم يفز ولم يظفر أحد مثلما فاز وظفر بنو إسرائيل بالأنبياء .

فكان لابد وأن يأتي "يوحنا"، ليصحح وجهة بني إسرائيل ، ويردهم إلى صوابهم ورشدهم ،جاء ليخلص عقولهم من تلك الأوهام والأباطيل ، ويغسل قلوبهم مما ران عليها من الصدأ،ويعرفهم بحقيقة ودور ومهمة واختصاص الذي سيأتي بعده ، ليكونوا على وفاق واتفاق معه ، قام "يوحنا" بتمهيد الأرض وإبعاد كل النباتات والحشائش الشيطانية ، وتنحية الأشواك والصخور، وجاء المسيح ليضع البذور في الأرض .

" في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات ، فإن هذا هو الذي قيل عنه بإشعياء النبي القائل صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب . اصنعوا سبله مستقيمة " إنجيل متى الإصحاح الثالث .

" كما هو مكتوب في الأنبياء .ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك " إنجيل مرقس الإصحاح الثالث " أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله

مسـتقيمة،كل واد يمتلـئ وكـل جبـل وأكمـة يـنخفض وتصـير المعوجـات مستقيمة والشعاب طرقا سهلة ويبصـر كل بشـر خلاص الله "إنجيل لوقا الإصحاح الثالث .

" كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا . هذا جاء ليشهد للنـور لكـي يـؤمن الكل بواسطته ، لم يكن هو النور بل ليشهد للنور ،كان النور الحقيقي الذي ينـير كـل إنسان آتيا إلى العالم .كان في العالم وكوّن العالم به ولم يعرفه العـالم ، إلى خاصـته جـاء ، وخاصته لم تقبله " إنجيل يوحنا الإصحاح الأول .

" يوحنا شهد له ونادي قائلا هو الذي قلت عنه إن الـذي يـأتي بعـدي صـار قدامي ، لأنه كان قبلي " إنجيل يوحنا الإصحاح الأول .

وكان يوحنا على علم وبصيرة من مهمته ودوره ، الذي جاء من أجله .

" يأتي بعدي من هو أقوى مني الـذي لسـت أهـلا أن أنحنـي وأحـل سـيور حذائه ، أنا عمدتكم بالماء وأمـا هـو فسـيعمدكم بـالروح القـدس " إنجيـل مـرقس الإصحاح الأول .

"يوحنا" يعمد بالماء ، يغسل وينظف ويطهر وينقي ، إعـدادا وتهيئـة للتعميـد بالروح القدس .

" وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهـود مـن أورشـليم كهنـة ولا ويـين ليسألوه من أنت .فاعترفوا لم ينكر وأقرّ إني لست أنا المسيح فسألوه إذا ماذا إيليا أنت . فقال لست أنا .النبي أنت . فأجـاب لا .فقـالوا لـه مـن أنـت لنعطـي جوابـا للـذين أرسلونا. ماذا تقول عن نفسك .قال أنا صوت صارخ في البرية ، قوموا طريـق الـرب كما قال إشعياء النبي وكان المرسلون من الفريسيين فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيلياء ولا النبي أجابهم يوحنا قائلا أنا أعمد بماء ولكن في

وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه "إنجيل يوحنا الإصحاح الأول .

ولم يكتف "يوحنا"بالتمهيد والإعداد والتهيئة ، بل دل على الذي يأتي بعده وأشار إليه .

" وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلا إليه فقال هو ذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطية العالم . هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي وأنا لم أكن أعرفه . لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء . وشهد يوحنا قائلا إني قد رأيت الروح نازلا مثل حمامة من السماء فاستقر عليه ، وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله " إنجيل يوحنا الإصحاح الأول

إذن كان "يوحنا" يدرك ويعي مهمته ودوره ، أنه جاء ليمهد الطريق للسيد المسيح ، وعرف بحقيقة المسيح ، ولكن هل أدرك يوحنا حقيقة المسيح إلهاما من الله أم من خلال تعامله مع المسيح ؟

الأرجح أن الأمرين معا ، ألهم، وأيضا تعامل وتحادث وتحاور وتناقش مع السيد المسيح ، وإن كان لا التاريخ ولا الأناجيل تحدثتا عن هذا الأمر ، وكل ما ذكرته الأناجيل عن لقاء يوحنا بالمسيح كان لقاء موجزا للغاية .

"حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ،ولكن يوحنا منعه قائلا أنا محتاج أن أعتمد وأنت تأتي إليَّ ، فأجاب يسوع وقال اسمح الآن . لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر.حينئذ سمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السماء قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت "إنجيل متى الإصحاح الرابع .

والمنطق وطبائع الأمور والأحداث إن لم تؤكد فإنها لا تنفي أن يكون قد جرت وحدثت لقاءات بين يوحنا وعيسى "إن سائر أناجيلنا تشير إلى رابطة معينة بين بدء حياته العامة وبين دعوة نبي آخر كان يحث على التوبة ويقول بقرب اليوم الموعود ، والأناجيل تؤكد هذه الرابطة صراحة وإن لم تفصلها في وضوح ، والنبي المذكور هو يوحنا المعمدان ولربما عرفه عيسى ، واتصل به ، وامتثل قدوته عندما تملكت أقطار نفسه تلك الحماسة القاهرة التي سرت في أعماقه حتى سيطرت على إرادته واندفع يبشر بدعوته لما جاء النبأ بأن هيرودوس أمر بسجنه وذلك حتى لا يخلو ملكوت الله من نبي "[1]

والذي يؤكد وجود علاقة وعلاقة وطيدة بين الاثنين عدة أمور منها :

- إن الثلاثين عاما التي بلغها كلاهما محال أن تمضي هكذا بدون أن يحدث لقاء أو لقاءات وتلك الفترة ليست قصيرة ، لاسيما وأنه لم تحدث أحداث هامة أو خطيرة تشغل أي منهما عن الأخر .
- هناك صلة قرابة بين الاثنين (أولاد خالة) .
- إنهما يعيشان في مكانين ،إن لم يكونا قريبين ، فهما ليسا بعيدين عن بعضهما .
- الفترة العمرية أو السنية متقاربة ، فهما يمران بفترة الشباب وما بعد تلك الفترة بقليل .
- كلاهما مكلف بدور ومهمة منذ أن كانا أجنة ، بل قبل ذلك .
- كلاهما له موقف يكاد يكون متطابقا من عصرهم، وما كان يموج به من فساد وضلال.
- كلاهما كان له برنامج أو خطة عمل للإصلاح والتغيير.
- هناك خطوط عريضة متشابهة إن لم تكن متطابقة في شخصية كل منهما.

١- المسيحية نشأتها وتطورها – (٤٨)

إذن لا شك أنـه قـد جـرت لقـاءات بـين الشخصـيتين العظيمتـين ، وتحـدثا وتناقشا وتجادلا واتفقا واختلفا ، وربما يكون قد حدث تنسيق بينهما عن عمد أو عـن غير عمد منهما، أو أن مهمة كل منهما قد باعدت وفرقت بينهما ، وألقت كـل مـنهما في طريق ، وأيضا اختلاف شخصية كل منهما عـن الآخـر ، وبالتـالي اخـتلاف أسـلوب وطريقة كل مـنهما ، وإن كانـت الشخصـية والأسـلوب يلتقيـان في الغايـة والهـدف والمقصد .

شخصية "يوحنا"

فشخصية يوحنا لا تهادن ولا تجامل ، غير متصالحة أو متسامحة أو متوافقة مع الزمن الذي وجدت فيه ،كان شديد القسوة مع الآخرين، وأشد قسوة على نفسه ومع نفسه ،لا يرى علاجا للفساد سوى الحسم والبتر والاستئصال ، فليس هـو بالطبيـب الذي يعالج ويداوي ويشخص ويعطي العلاج وينتظر حتى تلتئم الجـروح وتشـفي ، إنما كان كالجراح الصارم الحاسم في قراراته وأفعاله وأقواله ، بيـده المبضـع ، لا يـتردد ولا يتراجع ، ولا يوقفه ردود أفعال قراراته ، " كـان يوحنـا المعمـدان مثـال الناسـك الصارم الذي لا يحابي ولا يتردد ينذر كثيرا ويبشر قلـيلا ويضـع الفـأس عـلى أصـل الشجرة ولا يبالي أن يلقي بها حطبا في الأتون "[1]

لقد رأى وأيقن مما رآه وخبره وعرفه أن الأمر مسـتعص عـلى العـلاج وعـلى وصف أنواع من الأدوية قد تصيب وقد لا تصيب ، الأمـر أكـبر وأخطـر مـن ذلـك، وكأن هناك أورام سرطانية خبيثة ، فأخذ في بتر وقطع واستئصـال تلـك الأورام ، ولم يوقفه أن تلك الأورام مستشرية في الجسد كله ، ولكن ليقضـى الجسـد تحـت مبضـع الجراح في لحظات أو في وقت ليس بالطويل خير له من أن يترك للورم السرطاني

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١١٦)

ينهش فيه ، والنهاية معروفة ومحتومة " قد وضعت الفأس في رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار " .

انظر إلى أسلوبه ، وكما يقولون الأسلوب هو الرجل ، وقد أبدل باللطف والوداعة واللين ، قوة وقسوة وغلظة ، لا يأبه بما سيتركه هذا الأسلوب في نفس السامعين ، وهل هو سينفرهم ويجعلهم ينفضون من حوله " فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا ، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم " إنجيل متى الإصحاح الثالث .

وقد يتعجب البعض من أسلوب وطريقة " يوحنا" ، فقد عهدنا من الأنبياء أن يكونوا على درجة كبيرة من الرأفة والرحمة والتسامح واللين ، وإن هذا هو الأسلوب الأفضل والطريقة الأمثل للدعوة لتأليف القلوب وتجميع النفوس لكي تهوى إلى الدعوة الجديدة ، فقد خاطب الله y سيد المرسلين في القرآن الكريم﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران: ١٥٩

لا شك أن "يوحنا" قد وصل إلى قناعة واقتناع أنه لا يصلح الأمر ويقوِّم أوده إلا بالطريقة التي اختارها ، ولم يكن يعجزه أن يختار أسلوب التسامح واللين والرأفة ، وأسلوب يوحنا أو شخصيته تكشف لنا عن مدى ومقدار الفساد والعطب والبوار التي وصل إليها الوضع ، فحينما يكون الإنسان غارقا لأذنيه في الفساد ، وقد أغلق عينيه وأصم أذنيه ، ولديه من العناد والإصرار على البقاء في الفساد ، بل لديه عقيدة ثابته بل جامدة ومتحجرة أنه على صواب وحق، وغيره على خطأ وضلال ، فهذا

الإنسان لا يصلح معه شيء ، لقد كان يوحنا بمثابة شخص أشرف على قطعة أرض يباب ورأى الدود والأشواك الشيطانية والنباتات الجهنمية ، فأخذ الفأس يشق به باطن الأرض ، يعريها ، ينظفها ، يعرضها للشمس والهواء ، وبمقدار قوته وسرعته في الضـرب بمقدار نجاحه في مهمته .

مكونات شخصية :

ولكن ما الذي شكل وكون وصاغ شخصية "يوحنا" لتكون على هذا النمط ؟

تجمعت في شخصية "يوحنا"صفات وراثية وأخرى خلقية وثالثة مكتسبة.

- فقد ورث عن والده صفات النبوة ، وكانت متأصلة ومستقرة في شخصيته ، ومن ضمن ما ورث حالة الخوف التي كانت مسيطرة عـلى "زكريـا" عليه السلام ، والتـي حركت وبعثت رغبته أن يكون له وليا يرثه ويرث ميراث النبوة في آل يعقوب ، ولكن حالة الخوف عند "زكريا" الذي بلغمن الكبر عتيا، تحولت عند الابن الشـاب القـوي الفتى الأبي إلى حالة مـن الغضـب والنقمـة والاشـمئزاز والنفـور والثـورة والتمـرد والرفض لما عليه الموالي من انحراف وضلال وفساد وزيف ، واتسعت دائرة الغضـب والنقمة لتشمل العالم كله ، فقد كان "يوحنا"يرى العالم أنه مستنقع عفن حافل بالكفر والإلحاد والوثنية والظلم والظـلام ، وأن الحـاكمين مـا هـم إلا رسـل شر واسـتبداد وقهر، وإنهم عون مع الشياطين ليكونوا وسائل لسحق الآدمية وتشويه الإنسانية .

والذي غذى حالة الغضب تلك وأذكى وأضرم من نيرانها وجعلها لا تنطفئ ولا تهدأ حادثة قتل والده ، ومطاردة جنود هيردوس له وهو ما يزال رضيعا لذبحـه ، فلا شك أن أمه وهي تهرب به من مكان إلى مكان بعيدا عن الأعين الباحثة والمترصدة ، قد حكت وقصت عليه كل تلك الأحداث المأساوية، والده يقتل لأنه لم يرشدهم إلى مكان ابنه ، وأمه تعيش مطاردة متخفية خائفة فزعة من أن يصلوا إلى ابنها ليذبح ،وقد تقتل هي أيضا ،تصور حالة تلك المرأة ، ما نوع اللبن الذي سترضع به ابنها ؟ ما

شكل النشأة والتربية التي ستنشأ عليها وتربي ابنها ؟ثم بعد ذلك تخيل نوعية تلك العلاقة التي تربط هذا الشخص بالعالم ، عالم يستقبل نفس سمحة راضية طاهرة نقية قدسية محبة نورانية ، بكل هذا الشر والكراهية والحقد الأسود والمقت ، كذلك لا نشك أنه قد أدرك وعرف أن بعض اليهود المقربين منه والمحيطين به ، نفوسهم غير بريئة ، وأيديهم تقطر من دماء والده ، فهم متواطئون مع السلطة الرومانية ، فهذا دأبهم وديدنهم ، الغيرة والحسد يأكلان قلوبهم كل آن وكل حين ،فهذا متأصل في نفوسهم ومركوز في طبائعهم ، ألم تفور نفوسهم بالحقد والحسد لمجرد أن يتولى "زكريا"كفالة "مريم" عليها السلام ؟ وكان كل منهم يرى أنه الأجدر والأكفأ من "زكريا"، ولم يتنازلوا ويرتدوا على أدبارهم إلا بعد إجراء القرعة وإلقاء الأقلام ،ولا شك أنهم كانوا يتمنون أن يموت "زكريا"بدون أن يخلف أحدا من صلبه ،لأن معنى أن يأتي "زكريا" بمن يرثه ، معنى ذلك أنه سيحجب عنهم المكانة ويمنع عنهم المنزلة التي كانت ستؤول إليهم بموت "زكريا" ، وهذا الذي بسببه يرجح أن بعضهم له يد في مؤامرة قتل "زكريا"، وأيضا محاولة ذبح "يوحنا"وهو طفل رضيع ، فقد شاءت إرادة الله أن تخيب مساعيهم وهو طفل ، وإن حققت أهدافها ومقاصدها وهو رجل .

كل هذه الأحداث والأمور المأساوية منها والمفجعة لم تغب عن فكر "يوحنا".
وكل تلك المشاعر والأحاسيس المحزنة منها والمؤلمة لم تبعد عن وجدان "يوحنا".
لذلك فليس غريبا أن نراه معتزل الناس بعض الاعتزال، وأن تكون لهجته حادة وأسلوبه صارما، وطريقته حاسمة، حتى طريقة ملابسه وطعامه وحياته بصفة إجمالية

" وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة ، وذلك معنى وصفه في القرآن بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية يسمعها من أبويه ويتلوها في خلواته ، وكان كثير العزلة ، شديدا

على نفسه في تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس في ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد، يصوم أكثر الأيام ، ويقتات من الجراد والعسل البري ويهيب بالناس في صوت قوي صارم : توبوا صوت صارخ في البرية كما قال الأنبياء الأقدمون"[1]

– أما الخلقية ، وهي تلك الصفات والميزات التي وهبها الله له استجابة لدعوة عبده"زكريا"،ومنا وفضلا من الله ، إنه من الصالحين وأنه رضيا ومصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا ، والمنزلة الأخرى أن الله هو الذي تولى تسميته وجعله فريدا ولا نظير له في تلك الصفات من قبل ، وأنه أتاه الحكم صبيا .

ومعنى أن الله نص على تلك الصفات في القرآن من قبل أن يولد "يحيى" ، أنه متصف منذ أن ولد، وهذا ما تميز به "يحيى" عن بقية الأنبياء السابقين ، ولذلك قال بعض علماء التفسير في تفسير قوله تعالى﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ ﴾ مريم: ٧

أي لم نجعل له نظيرا أو مثيلا أو شبيها من قبل ، فهو إمام مقدم في تلك الصفات والميزات والخلال.

– المكتسبة ، شخصية زودت بكل تلك الصفات ، تعتبر مجمعا لكل الخلال النبيلة الكريمة الراقية ،وهي ليست في حاجة إلى ما تكتسبه أو تقتبسه أو تتعلمه ، بل الشخصية هنا عبارة عن مكونات وطاقات وإمكانات مختزنة تنتظر من يأخذ منها ويستهديها ويستنيرها ويسترشدها ، ومع ذلك فتلك الشخصية في حاجة أن تكتسب من المعارف والمعلومات لتكون على صلة بزمانها ومكانها ، المكتسبات هنا نوع من

١- عبقرية المسيح – (١١٧)

التواصل مع العالم المحيط بالشخصية ، من شأنها أن توسع من دائرة إدراك الشخصية – أيضا – تعمق وتؤصل من وعي الشخصية ، فيدرك ويعرف من أمور عالمه ما لا يدركه ولا يعرفه غيره ، ونستطيع أن نقول إن "يوحنا" قد استوعب استيعابا عميقا كل ما في عصره من دقائق وخفايا وديانات وعقائد ومذاهب وملل ونحل ، وخبر وسبر الشخصيات الرئيسة المتحكمة في أزمة الأمور سواء كانوا ولاة رومان أو كهنة من اليهود على اختلاف فرقهم وتعدد مشاربهم ،ودوافع ونوازع وأهداف ومقاصد كل شخصية من تلك الشخصيات ، ونقائص وعيوب ومفاسد وأطماع كل شخصية من تلك الشخصيات . وسط هذا البحر المتلاطم الأمواج والمظلم، كان "يوحنا" يقف وحده متسلحا بإيمانه وشجاعته وجرأته وقوته وصبره وتصميمه وعناده وإصراره وصدقه وصراحته ،وقدرة لا حدود لها على المواجهة والمجابهة والتمسك بالحق . من كل هذا يتبدى لنا مقدار ما كان يمثله "يوحنا"من خطر وفزع يصل إلى حد الرعب على كهنة ورؤساء الكهنة من اليهود وعلى ولاة الرومان الذين كانوا يهيمنون على البلاد ومقدرات العباد في ذلك الوقت .

وقد كان متجردا تجردا كاملا ومتفرغا تفرغا تاما لدوره ومهمته ، فليس في حياته ما يخاف عليه أو يخاف منه أو يحرص عليه ،لا يريد من العالم حوله شيئا،فليس له مطمع في أي شيء

الصدام :

شخصية بتلك المكونات وتلك الصفات والخلال حتما ولزاما تكون صادمة ومتصادمة مع مفاسد عصرها ، وكذلك مع جميع رموز القوة والبطش والقهر والاستبداد ، سواء كانت كهنوتية أو سياسية أو فكرية أو اجتماعية ، فهناك خطر من"يوحنا"على رؤساء الكهنة والكهنة ،لأنه فاضح وكاشف عن كل نقائصهم وفسادهم وإفسادهم وزيفهم ، وكذلك خداعهم وريائهم ، إنه يجردهم من كل

مسوح الكهنوت، ويحطم فوق رؤوسهم تلك القلاع والحصون التي يحتمون ويتحصنون داخلها، ويكشف كذب دعاويهم وضلالهم وأباطيلهم، وأنهم كما قال عليهم (أولاد أفاعي) ،وأنهم لا يستحقون ما يحيطهم به عامة الناس السذج من إجلال واحترام ، وتقدير وإعزاز ،يصل إلى حد التقديس ، وأنهم كذابون ومفترون ومضلون ومفسدون ، لم يكشف نبيٌ بني إسرائيل خلال سلسلة الأنبياء الطويلة كما كشفهم وفضحهم "يوحنا" ، لذلك لا نستبعد أن أراء وأيدي بعض كهنة اليهود اجتمعت مع الوالي الروماني – إن لم يكن بالتنفيذ فبالتحريض – للتخلص من "يوحنا" – وإن لم يكن بالرفض فبالصمت والصمت هنا نوع من التواطؤ – ، المعركة بين هؤلاء و"يوحنا" معركة مصير ، إما هم وإما هو ، و"يوحنا" لم يترك لهم خيارا آخر ، ليس هناك تصالح أو وفاق أو تهادن أو تسامح بينه وبينهم ،وهو الذي اختار أن يكون الصراع على تلك الدرجة من الحدة والضراوة الشراسة .

وكذلك هناك خطر مستطير من "يوحنا"على الحكم والسطوة والسلطان الروماني ، وقد نتعجب متسائلين : وما شأن "يوحنا"بالسلطان الروماني على بلدان ومدن فلسطين ؟

شيء لا يطيق أن يتحمله أي نبي أو رسول ،أن يرى ظلما أو إجحافا أو غبنا واقعا على إنسان ،أن يرى أي صورة من صور استغلال واستعباد الإنسان للإنسان ، وجوهر كل الديانات قاطبة هو تحرير الإنسان من تلك العبودية ، لتكون العبودية الحقة لله الواحد الأحد ، لأن في هذا – وحده –العزة للإنسانية والبشرية ، والمكان والزمان الذي وجد فيه "يوحنا" كان يتعرض أهله إلى أسوأ أنواع المهانة والعذاب والإذلال والتنكيل ، فقد كانت تلك البلاد واقعة تحت الحكم الروماني ، وهو حكم يقوم على القوة والبطش والاستبداد والقهر ،ليس في البلاد المستعمرة للإمبراطورية الرومانية فحسب ، بل في عقر الإمبراطورية الرومانية وعاصمتها (روما)، فقد كان

هناك نظام العبيد ، وكانوا يتعرضون لأخس وأحقر المعاملة ، مما جعلهم يثورون ، وفي العادة العبيد لا يثورون إلا إذا شعروا أنهم يعاملون معاملة ما دون العبيد،بمعنى أنهم لا يظفرون حتى بما يقتضي وتلك المنزلة من معاملة ، فظهرت أشهر حركة أو ثورة للعبيد في التاريخ ، أقضت مضجع الإمبراطورية وهي في قمة مجدها وقوتها.

" ذلك أن العبيد الذين كانوا يشتغلون بالزراعة في الضياع كانوا يعانون من أوضاع بالغة السوء على يد السادة أصحاب هذه الضياع ، وأسوأ منها كانت أوضاع العبيد المبارزين أو المجالدين gladiatores الذين كانوا يتعرضون للهلاك في أثناء مباريات المبارزة التي يقومون بها ، وقد بدأ هؤلاء ثورتهم بزعامة مبارز من تراقيا يدعى سبارتكوس ، واعتصموا بجبل فيزون ، وانضم إليهم عبيد الأرض الذين ضاقوا ذرعا بما يعانون في ضياع النبلاء ، ونجحت حركة الثوار وأخذت أعدادهم تتزايد حتى بلغوا سبعين ألفا واستطاعوا في نهاية عام ٧٣ ق.م أن يسيطروا على كل جنوب إيطاليا.

وانقضى العام التالي (٧٢ ق.م) والعبيد يحرزون النصر تلو النصر ، على القوات الرومانية الحكومية ، حتى استطاع البرايتوركراسوس،أن ينزل بهم هزيمتين كبيرتين وأن يقتل زعيمهم سبارتكوس "[١]

هذا في داخل الإمبراطورية فما بالك بتلك البلدان الأجنبية التي تسيطر عليها روما ،فقد كانت كل المستعمرات عبارة عن مصدر يمد روما بالأموال التي تجبى ظلما وافتراء من الفقراء المطحونين والمساكين لتضخ في خزائن روما يستمتع بها الأمراء والنبلاء والقواد العسكريين وفئات معينة من الشعب الروماني ، ولتهيئ لهم حياة

١- مجلة عالم الفكر – المجلد الثاني عشر – ١٩٨١- مقال بعنوان (الثورة الرومانية المرحلة الثالثة) د. محمد عواد حسين (٧١٤)

خرافية من الرفاهية والبذخ والإسراف الخارج عن كل حد ومنطق ،"ونظم بومبي الأوضاع في هذه الولايات الجديدة التي ضمها إلى ممتلكات روما في الشرق ، فوضع لها دساتير خاصة ونشر في أرجائها الحضارة الإغريقية بإقامة العديد من المدن الحرة وشجع الإدارات المحلية على النهوض بأعبائها واستطاع أن يأتي للخزانة الرومانية بمبالغ ضخمة هائلة بفضل الضرائب التي فرضتها هناك وتعويضات الحرب التي جمعها من المقهورين "[1]

وكانت "أورشليم" من أتعس وأفقر المدن " وفي عهد هيرودس الزاهر كانت أورشليم تضم عددا من السكان يقارب مائة ألف نسمة ولكن الفقر قد ضرب عليها مع أراضي فلسطين برمتها من جراء الحروب التي دارت في عهدي فيسبان وهارديان "[2]

ولم يقتصر الأمر أن قامت الإمبراطورية الرومانية بفرض الضرائب الباهظة على الفقراء ، ولكنها فرضت بل أوجبت عليهم عبادة أو تقديس حاكم روما ، وكان حكام روما يظنون أن تلك العبادة أو العقيدة هي الرابط الذي يربط الأبعاد المترامية الشاسعة للإمبراطورية برباط واحد لا انفصام له ،" وكان أو غسطس بالنسبة للرجل المدني رئيسا للدولة وبالنسبة للجندي قائدا أعلى ، ومع ذلك كانت هناك حاجة ماسة لشيء أبعد من ذلك يكون بمثابة البؤرة التي يتجمع فيها الولاء ، هذا الولاء الذي تحتاج الإمبراطوريات المترامية الأطراف والمتعددة الأجناس إلى الاستعانة به ،وقد توفر هذا الشيء في عبادة الحاكم ، وهي وسيلة قد لجأت إليها العروش الهلينستية منذ زمن الإسكندر الأكبر فقد كان لملوك أسرة (سليوكوس) معابدهم الخاصة بهم وكهنتهم ، كما ورث البطالمة منزلتهم المقدسة عند الفراعنة ، وكان الرجال البارزون

١- المصدر السابق – (٧٢)
٢- حضارة روما – دونالد .ر.دولي (٣٢٠)

من الرومان قد أغدق عليهم ألقابا مقدسة في بـلاد اليونـان وفي الشرـق منـذ عهد (فلامينيوس) كما أن عبادة الآلهة (روما) dearoma كانت قد انتشرت انتشارا واسعا، وكل ما كان ينقصه الشرق هو ربط عبادة أوغسطس بعبادة هذا الآلهة وتنظيم طقوسها ومن ثم أقيمت معابد لعبادة الإلهة روما وأوغسطس" [1]

ظلمات بعضها فوق بعض ، وعالم معقد تعقيدا لا مثيل له ، لم يكلف "يوحنا" نفسه في البحث عن طريقة لإصلاحه أو تقويمه ؛ لأنه كان دون كـل إصـلاح ، ودون كل تقويم ، كل ما طلبه من الناس – كل الناس – أن يتطهروا بالماء من دنس ورجـس وخبث ذلك العالم ، ثم بعد ذلك اختار طريقة المواجهة والمجابهة والصدام ، لأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي تتفق ومكونات شخصيته ، ففتح بذلك كـل الجبهـات ، أو انفتحت عليه ، ولم يضع في حسبانه – شأن كل الأنبياء – هل هو بقادر عـلى مواجهـة كل تلك القوى والجحافل وجيوش الشر وجنود البغي والعدوان أم لا ؟

الأنبياء لا يفكرون بتلك الطريقة ، لأن من يفكر بتلك الطريقة ، لابد أن يلجأ إلى المساومة ، أو يضطر إلى التنازل أو التراجع أو المهادنة أو التصالح أو المناورة ، بيـنما "يوحنا" ثابت عند موقفه لا يتزحزح ،يعلم علم اليقين أن هؤلاء عـلى باطـل وفسـاد وضلال ، وليس من ثم من يقف أمامهم ، ويعلـن – مجـرد إعـلان – أنهـم ضـالون ، ويضع الأسماء على المسميات ، كي لا يلتبس الأمر ويصبح الحق باطلا والباطل حقا ، إذن فليقف هو منفردا أو وحيدا ، ولكن في هذا قد تكون نهايته ، ويقضى عليه .

فلـيكن فمنـذ أن ولـد والشـهادة قـدر مقـدور عليـه ، فليستشـهد ، ليتـولى المفسدون والضالون والمضللون قتله ، وليكن قتله أول مسمار يدق في تـابوت هـؤلاء ،ليكن "يوحنا" صوتا صارخا يزلزل عروش الطغاة.

١- حضارة روما (٢٢٥)

استشهاد "يوحنا" :

علاقة من نوع ما نشأت بين "هيردوس" الوالي الروماني ، وبين زوجة أخيه غير الشقيق

" فيلبيس"، رأى "يوحنا" تلك العلاقة فجورا وفسقا ، وظل ينـدد ويهاجم الوالي الروماني على مسلكه الفاضح والمشين ، مما حدي بالوالي أن يأمر بسجن "يوحنا"، وفي ليلة كان يحتفل فيها الوالي الروماني رقصت ابنة زوجة أخيه ، فأسكره رقصها فوق سكره ، فتمنى عليها ، فأوحت الأم إلى ابنتها أن يأتي لها برأس "يوحنا " جزاء له على تشهيره بها ، وتنديده بالعلاقة التي بينها وبين (هيردوس) فأمر جلاديه أن يأتوا لها برأس "يوحنا " ." لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه ، إذ كان قد تزوج بها ، لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك ، فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر ، لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه ، وإذ سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور ، وإذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس في مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل ،دخلت ابنة هيروديا ورقصت فسرت هيرودس والمتكئين معه ، فقال الملك للصبية مهما أردت اطلبي منى فأعطيك ، وأقسم لها أن مهما طلبت منى لأعطيك حتى نصف مملكتي ، فخرجت وقالت لأمها ماذا أطلب ، فقالت رأس يوحنا المعمدان ، فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة أريد ان تعطيني حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق ، فحزن الملك جدا ، ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها ، فللوقت أرسل الملك سيافا وأمر أن يؤتى برأسه ، فمضى وقطع رأسه في السجن ، وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر ". [1]

١- إنجيل مرقس - الإصحاح السادس .

خمر ودماء :

والرواية – هكذا – شأن أغلب الروايات التاريخية تجافي المنطق والعقل من ناحية ، وتتجافى مع منطق الأحداث من ناحية أخرى . فمهما كان هذا الرجل مستهترا وفاسقا ، ومهما كان مخمورا، ومهما فتن وأعجبه رقص ابنة عشيقته ، لا يصل الأمر أن يكافئها بأن يذبح لها إنسانا، ناهيك أن يكون هذا الشخص هو"يوحنا"! وهذا دليل جلي على فساد هذا العصر فسادا لا مثيل له ، فمن المعروف ومن المعتاد أن يهب حاكم فاسد امرأة ما أعجبته أو فتنته أن يهبها ذهبا أو أرضا أو عقارا ، أو أي شيء من هذا القبيل ليرضيها او يكافئها ، وهذا في حد ذاته نوع من الفساد لأنه فاسد يهب داعرة ، ولكن أن تكون الهبة والمكافئة رأس إنسان ، فهذا يدل أن دماء الإنسان تتساوى والخمر الذي ترتع به الكؤوس في أيدي الفاجرات ، ويفيض من الكؤوس ويسال على الأرض !

ومن غير المنطقي أن يودع "يوحنا" السجن لأنه بدأ يشهر بالعلاقة الآثمة بينه وبين زوجة أخيه ، لأن مثل تلك النوعيات من العلاقات ، ولاسيما لو كانت بين علية القوم تكون في طي الكتمان ،فإذا شاعت وذاع أمرها ، وأخذ القاصي والداني يتناقل أمرها ، فهذا دليل على أن أصحابها لا يعبئون بها ولا يكترثون ظلت في طي الكتمان أم أصبح أمرها مشاعا على الألسنة ، وأظن أن شاغل وشغل "يوحنا" أكبر من أن ينفق وقته وجهده في نصح والهجوم على والى فاسق وامرأة داعرة .

الأمر أكبر من كل هذا ،الأمر يتعلق – أولا وأخيرا – بطبيعة شخصية "يوحنا"، وأحوال وأوضاع ذلك العصر بأكمله ،وقد آل "يوحنا" منذ البداية مهاجمة بل محاربة كل صور الفساد والظلم والقهر والاستبداد، وأن يقف يناصر المظلومين والمقهورين والمطحونين ، وما كان أكثرهم في ذلك العصر ،

والذي زاد من خطورة "يوحنا" على رموز الفساد والظلم سواء من الولاة الرومان أو الكهنة اليهود أن صوت يوحنا وتعاليمه ومواعظه بدأت تسمع من جمهور الناس ،وكل يوم يزداد المؤيدون والمقتنعون به ، وبدأ أمره يذاع ويشتهر في مدن فلسطين ،وبدأت شخصيته وطريقته تفرض سلطانها على المحيطين به بسبب غرابة أو عدم تعود الناس على شخصية "يوحنا" وطريقة كلامه ، وقوة إقناعه ونصاعة ووضوح منطقه ، هنا نبي بكل جلاله وعظمته ورقيه وسموه ونبله وشجاعته وجرأته وصدقه وإخلاصه وقدسيته ، يطلب من الناس أن يتطهروا ويتوبوا وأن .... وأن....

- هناك فئة أيقنت أنه نبي وأن دعوته حق وصدق .
- وهناك فئة لم تقتنع أو تؤمن بذلك ، ولكن اقتنعت به كمصلح وثائر ومتمرد على صور وأنواع وأشكال الفساد .
- وهناك فئة لم تقتنع به أنه نبي أو مصلح أو ثائر ، ومع ذلك خافته وهابته ، وحاولت أن تبتعد عنه، كي لا تنال منه اللعن والهجوم ، وكان "يوحنا" لا يجارى في الهجوم الضاري على من يقف في طريقه أو لا يعيره أذنا صاغية .

إذن "يوحنا" يمثل خطرا مستطيرا على السلطة والسلطان والصولجان ، سواء كانت رومانية أو كهنوتية ؛ لأن كليهما فاسد ومضل ، وكل يوم يمضي ، بل كل ساعة يزداد هذا الخطر ويستفحل ، وأظن أن الولاة الرومان ربطوا بين الحاضر و الماضي ، فما المانع أن يشكل "يوحنا"– وقد تجمع حوله الكثيرون وهم في ازدياد مطرد كل يوم– جملة اعتراضية على سياسة روما في هذا الجزء الهام من العالم ، فقد حدثت انتفاضات وثورات اعتراضا واحتجاجا على طريقة حكم الرومان ، وهذا ما قامت به فئة من فئات اليهود وقد خرج هؤلاء من مدينة "الجليل" " ولا يبعد أن يكون الغلاة الجليليون إتباع يهودا الجليلي فرقة متطرفة من فرق الآسين ، لأنهم يسلكون مسلكهم

في التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمـل لتحقيـق النبـوءات وتقريب يوم الخلاص وهم الـذين ثـاروا ونظمـوا العصـابات في السـنة السادسـة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الإحصاء الذي صدر مـن ((كرينيـاس)) حـاكم سوريا وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا القيصر أو عبيده الذين يـدينون لـه بالسيادة ، وحجـتهم أن طاعـة القيصرـ مـن عبـادة الأوثـان ، وأن إحصـاء الشـعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ، ولما رفع الملك (هيرود) تمثـال النسرـ القيصري فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة إليه وانتزعـاه عنـوة وأنـذرا إخوانهما من يعيده إلى مكانه بالموت ، وقد ثار هؤلاء بقيادة (يهودا الجليلي) ومات هو وأبناؤه وذوه في إبان الثورة ، وكانـت الدولـة الرومانيـة تحـذر الفتنـة في هـذه البقعـة المتوسطة بين القارات الثلاث ،فكانت تؤثر التقيـة والمـداراة في معاملـة الثـائرين ولا تأخذهم بالقمع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحلم والأناة "[1]

بهذا المنظور يمكن اعتبار دعوة يوحنا – بصورة مـن الصـور أو بمعنـى مـن المعاني – إن لم تكن ثورة فهي نذر ومقدمات للثورة .

وعلى الأرجـح إن الـوالي الرومـاني في فلسـطين، والكهنـة في أورشـليم، قـد اجتمعوا على كلمة واحدة ورأي واحد ، هو ضرورة وسرعة التخلص من "يوحنا".

وفي الأغلب أنه قد استعملت وسائل وطرق كثيرة في الإغواء والإغـراء كـي يقلع "يوحنا" عن دعوته أو على الأقل يجعلها في نطاق ضيق ومحدود ، وحيـنما لم تجـد تلك الوسيلة ، لجئوا إلى التهديد والوعيد والإيذاء بكل صوره ، وحينما لم تفلـح هـذه أيضا، لم يكن هناك من طريقة سوى القبض عليه وسجنه ، كنوع من تجميد و تحجـيم دعوته .

ولكن في حالة مثل حالة "يوحنا" لا يمثل السجن ضررا له أو قمعا لدعوته.

١- عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد (٣٠)

أما سجنه ، فأظن أن "يوحنا "لا يجد فارقا كبيرا بين وجـوده خـارج السـجن ووجوده داخله ، فهو قد سجن نفسه داخل دوره وقيمه ومبادئـه ورسـالته ، وسـخر كل لحظة من وجوده لأداء مهمته ، معرضا وزاهدا عن كـل مـا في الوجـود مـن متـع وشهوات وملذات ، فحياته أو فكره ومشاعره لن تتغير كثيرا بالسجن .

أما دعوته ، فأظن أن وجوده في السجن سيقدم للدعوة دفعا ووقودا ، وأن أنصاره وتلاميذه وأتباعه قد زاد عددهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى زاد تمسكهم بمعلمهم ، وزاد تمسكهم بما دعا إليه ، وأنهم بصورة أو بأخرى كانوا يتصلون به ويتصل بهم ، بل وكان هناك اتصال وتراسل بينه وبين عيسى -عليه السلام-،

"أما"يوحنا" فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه.

وقالله :أنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟

فأجاب يسوع وقال لهما :اذهبا واخبرا "يوحنا" بما تسمعان وتنظران ، العمـي يبصرون والعـرج يمشـون والـبرص يطهَّـرون والصـم يسـمعون والمـوتى يقومـون والمساكين يبشَّرون وطوبى لمن لا يعثر فيَّ .

وبينما ذهب هذان ابتدأ يسوع يقول للجموع عـن"يوحنـا" مـاذا خـرجتم إلى البرية لتنظروا . أقصبة تحركها الريح ، لكن ماذا خرجتم لتنظروا .أ إنسانا لابسـا ثيابـا ناعمة ، هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك ، لكن مـاذا خـرجتم لتنظروا . أنبياء . نعم أقول لكم وأفضل من نبي .فإن هذا هو الذي كتب عنـه هـا أنـا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك . الحق أقـول لكـم لم يقـم بـين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان .ولكن الأصغر في ملكوت السـموات أعظـم منـه . ومـن أيـام "يوحنـا"المعمـدان إلى الآن ملكـوت السـموات يُغصـب والغاصبون يختطفونه . لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبـأوا ، وإن أردتـم أن تقبلوا فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتي ،من له أذنان للسمع فليسمع .

وبمن أشبه هذا الجيل ، يشبه أولادا جالسين في الأسواق ينادون إلى أصحابهم ويقولون زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تلطموا، لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ، فيقولون فيه شيطان ، جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة ، والحكمة تبرَّرت من بنيها "إنجيل متى الإصحاح الحادي عشر .

أثر السجن في شخصية " يوحنا":

كم لبث "يوحنا" في السجن ؟

لا ندري ، فلم يذكر التاريخ شيئا،وفي الغالب لم يطل مكوثه في السجن ، كذلك لا نعرف إلى أي مدى أثر السجن في شخصيته ، إلا أننا نستطيع أن نستنتج من مكونات شخصيته أنها زادته حدة وقوة وإصرارا على مواقفه ، وربما يكون قد عرض عليه أن يخرج من السجن بشروط ، وأنه رفض تلك الشروط ، وإزاء إصراره تواضعت تلك الشروط ، على الأقل أن يكف عن الهجوم والتنديد بفساد الحكم الروماني ، وعدم تناوله لمباذله وفساده ،لأن من أول مبررات سجنه ، أن " يوحنا" يعتبر أول من تناول أسلوب وطريقة حياة الولاة الرومان ، ومعنى هذا هو بداية النقد والنقض لهذا الحكم في تلك البلاد التي كان يحرص الرومان أن تظل خاضعة ومستسلمة ، إن هو باب أول من فتحه هو "يوحنا"، وهو لم يرع في ذلك أي حرج ، " وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك (هيرود) فإنها البؤرة التي استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهم على غير شريعة وقتل الأخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبي على التطهر كفئا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة " [1]

١- عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد (٤٨)

الغريب أن ما طالب به "يوحنا" أو هاجم البلاط من أجله ،نجده هنا كفي روما قد طولب به ، " ثم تبع ذلك (في عام ١٧ق.م) برنامج للتشريع الاجتماعي الغرض منه الحد من تدهور الأخلاق الرومانية وإعادة الفضائل القومية التي كانت سائدة في فجر تاريخ روما فقانون ((يوليوسللزنا lex Julia de adulteriis قد جعل الزنا (الذي حدده القانون الروماني بالجماع بين امرأة متزوجة ورجل غير زوجها) عملا إجراميا وقد كانت هناك عقوبات صارمة – وصلت إلى حد الإعدام في بعض الحالات – تطبق على الأشخاص المذنبين ، ولم يستثن من هذا القانون الأزواج ذوي الهمم " [١]

إذن ما يحدث في بلاط (هيردوس) خطير لغاية ، ليس من وجهة نظر "يوحنا" فحسب ، بل من وجهة المشرع اليوناني الذي حدد مفهوم الزنا ووضع له عقوبة صارمة تصل إلى حد الإعدام ولا تستثني أحدا مهما كان موقعه ومنصبه .

على هذا فبقاء "يوحنا" في السجن لم يجد نفعا ، فهاهم تلاميذه يحملون كلماته يطيرونها هنا وهناك ، ولا يعدمون وسيلة للاتصال به ، وهو لا يعدم وسيلة لتوصيل ما يريد توصيله لهم ،وها هو الوالي الروماني يكتشف مدى فشل وسيلة السجن بعدما فشلت وسائل الترغيب والترهيب ، والذي يشعر بالخوف والرعب كهنة أورشليم بعدما فضح حقيقتهم لعامة الناس .

وليس بعد السجن إلا الإعدام .

وكان إعدام "يوحنا" حكما معلقا ينتظر أن ينفذ ، وكان في حاجة إلى مبررات موضوعية تستوجب الإعدام ، وإن كانت تلك المبررات موجودة وجاهزة من الطرفين الروماني واليهودي ، ومن عجيب الأمر أن "يوحنا" لم يحاكم ، ولم يصدر بحقه أي حكم يدينه أو يجرمه

١- حضارة روما – دونالد. ر .دولي- ترجمة جميل يواقيم الذهبي – وفاروق فريد - (٢٠٧)

ومعنى محاكمته هو الإدانة للسلطة الحاكمة والسلطة الكهنوتية لليهود قبل أن تدينه ، لأن "يوحنا" لم يقل شيئا سوى الحق المشاهد والمعروف ، وكل ما فعله "يوحنا"أن توافرت لديه الجرأة والشجاعة أن يقول ما خاف الآخرون من قوله .

ليلة مشأمة :

هل فعلا قُتل "يوحنا"بالطريقة التي رواها التاريخ لنا ؟

وهل فعلا تم القتل لا لشيء إلا استجابة لطلب غانية رقصت فأجادت ، وأغرت فسلبت لب وعقل الحاكم ، فتمنى عليها فطلبت رأس "يوحنا" ، بإيعاز من أمها والآخرين ؟

وهل هناك أسباب أخرى استوجبت قتل "يوحنا" ؟

أما وجود الأسباب للتخلص من "يوحنا"فكثيرة ولا عد لها ولا حصر ، والراغبون في التخلص من "يوحنا" على كافة الأصعدة كثيرون.

وإخراج عملية قتله هل تمت مصادفة وارتجالا وبنت ساعتها ، ووليدة الحالة التي كان الجميع مستغرقا فيها ، أم أنها أعدت بليل ، وأحكمت خيوطها من نساء ورجال البلاط على حد سواء ، ومن النساء خاصة ، لأنهن في ذلك المكان كنَّ وقود الغواية وسبل الفساد وشراك الاستدراج .

ليلة تُعمد أن تكون في قمة البذخ والفجور والعري والاستباحة والاستهتار والاستخفاف بكل المحرمات

والقيم والمبادئ.

وكما يعد ويدفع الإنسان ممن حوله لاتخاذ أخطر وأهم وأنجح القرارات المصيرية.

كذلك يعد ويدفع الإنسان ممن حوله لاتخاذ أحط وأخس وأبشع القرارات.

في هذا الجو الملتهب والمشبوب بالفسق والفجور والدعارة والزنا بالمحارم،

أي ظلال لشخصية "يوحنا"أو أي صدى لكلماته ، كفيل بإفساد وتبديد ما هم فيه من متع وشهوات وغرائز انطلقت من عقالها لا يجب أن يشم رائحة "يوحنا"، لا يجب أن يطوف طيفه بالعقول ، أو يتراء يشخصه بالنفوس ، يجب إبعاده ، يستلزم إقصائه ، يجب كتم أنفاسه ، فهم سعداء أنهم وصلوا إلى أدنى دركات الدناءة والانحطاط ، هم يخوضون في الدنس والرجس والفسوق ، هم غرقى في مستنقعات الضعة والخيانة .

في تلك الليلة كل رسل الشر والفساد والضلال والفجور وشياطين الإنس والجن ، تركت أماكنها في جميع أنحاء العالمين ، وحضرت تلك المأدبة ، لتتجمع وتتمركز وتنحصر في تلك البقعة الدنسة القذرة لتحضر سفك أطهر وأنقى وأقدس الدماء .

وأخال أنه قد قتل وهو في معية الله ، يناجيه ، يحدثه ،ويتعبد له ، فما تظن ليل "يوحنا"غير ليل ناسك متبتل ، نقي نوراني قدسي .

بل أخال أنهم حينما دخلوا عليه شارعين سيوفهم التي تقطر كراهية وحقدا وغضبا ومقتا ، وعرف مقصدهم أنه استمهلهم حتى يصلي ويتعبد ويتبتل إلى خالقه ، حتى يكون هذا آخر عهده بالدنيا ، ثم أسلمهم نفسه ليفعلوا به فعلتهم النكراء .

ولا يظن أحد أن قتل "يوحنا كان استجابة فاسق وفاجر لرغبة داعرة ، لأنه قد فُتن برقصها ، ولكنه كان تلبية لرغبة عالم سفلي منحط دنئ يأبى إلا أن يعيش بل يكون وجوده في مستنقعات العفن والرذيلة .ولكن الذي سفك دماء يوحنا ذئاب الظلام ، والذي لعق دماءه كلاب وعبيد الشهوات .

الباب السابع
دراسة الشخصية

نحن لم نر نبيا من قبل ، ولم نتعامل مع نبي ، شاء قدرنا أن نخلق في المدة التي انقطع فيها سلسال الأنبياء ، ولا ندري إن كان هذا من سوء حظنا ،أم غير ذلك ، وكل العلاقة التي تربطنا بهم أقاويل أو حكايات أو روايات في التوراة والإنجيل ، وآيات في القرآن الكريم ، والأكثر منا يقف على عتبات تلك النصوص ولا يتجاوزها ، قانعا أنهم نوعيات مميزة ومصطفاة ومجتباة من البشر ، كلفهم الله – y – بمهمة وقاموا بأداء تلك المهمة على أكمل وأتم وجه ، والبعض يتجاوز ظاهر النصوص ويلج داخلها معتبرا أنهم – الأنبياء – نوعيات من الخلائق تجاوزوا وفاقوا الطبع البشري ، ومضوا مصعدين حتى تعدوا وسموا عن الملائكة ، ونحن حين نعتمد على تلك النصوص – فقط – في معرفة وفهم ودراسة هؤلاء فقد ظلمناهم ظلما بينا – وأيضا – ظلمنا أنفسنا ظلما فادحا.

ظلمناهم : لأن النصوص التي نعتمد عليها في معرفتهم ، لا نستطيع أن نستخلص كل ما فيها من طاقات وإمكانات نفسية وفكرية ، لأن قدرتنا أو قدرة الأغلبية – في استنطاق أو استفراغ ما في النصوص مشكوك فيها ، أو على الأقل ليست بالصورة المرضي عنها ،أو ما نأخذه أو نستنتجه أو نستخلصه من معنى لا يتناسب ومقام النبوة فنحن نمر مرا على تلك الآيات ، وأظنك تتفق معي ، أو قد لا تختلف أننا مقصرون تقصيرا شديدا في إعطائها حقها من التفكير والتدبر ، بدليل قوله تعالى﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ الحشر : ٢١

فمن منا يستطيع أن يدعي أنه قادر على فهم القرآن كما يجب أن يكون الفهم ، ومن منا يستطيع أن يدعي أنه يتأثر التأثر الكامل بما في القرآن من معان ومقاصد

ومرام كما يجب أن يكون التأثر ، مثلما كان يتأثر الرسول ويستعبر حينما كان يسمع : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ النساء: ٤١ – ٤٢ فليس بيننا وبين الأنبياء سوى النصوص، ونحن مقصرون في التعامل مع تلك النصوص ، إذن نحن لا نقدر الأنبياء التقدير الذي يليق بهم ، ويتناسب مع مقامهم الشريف .

أما المواقف المروية عنهم فنحن لا نعطيها ما تستحق من اهتمام ، إما لأننا قد ألفناها من كثرة دورانها على الألسنة ، أو لانتحالنا العذر بظروف زماننا الذي يمنعنا أن نضع الكعب على الكعب ، أو للنظرة الدونية التي ننظر بها إلى أنفسنا ، وبذلك لا نستطيع أن نقتدي بالأنبياء أو حتى نكون قريبين منهم فيما فعلوه من أفعال ، وفيما تصرفوه من تصرفات .

وظلمنا أنفسنا :لأننا حُرمنا من خير عميم ونفع كثير ، حينما ابتعدنا عن هذا الصنف الممتاز والعظيم والجليل من البشر ، أو لم نقترب القرب الحميم منهم ، ولم نحاول أن نقرب المسافات التي تفصل بيننا ، أو نحاول أن نزيل تلك الحجب والموانع التي تحول بيننا وبينهم ، فكل ما نفعله أن نردد أسماءهم على أطراف شفاهنا ، حتى لو شغلنا بهم بعض الوقت ، فكل الأوقات نتشاغل عنهم، أو لأننا نعلم في قراره نفوسنا أنهم من صنف من المخلوقات ، ونحن من صنف آخر ، وهم من عالم ونحن من عالم آخر ، لذلك بعدت الشقة بيننا وبينهم، و ضعفت الصلة وكادت تنقطع بيننا وبينهم ، وهذا – في حد ذاته – أمر مؤسف ، ووضع محزن .

ولكي نغير ونبدل هذا الأمر والوضع ، ونقوي الصلة بيننا وبينهم لابد أن نعكف على دراسة شخصياتهم ،الدراسة التي تمكننا من أن نتشرب فكرهم ورؤيتهم ونظرتهم ودوافع مواقفهم في حياتهم .

أهمية الدراسة :

بعض الناس لا يهمه ولا يعنيه دراسة الشخصية في قليل أو كثير ، معتقدا أن الأمر لا يستحق كبير مشقة أو كثير عناء ، فالشخصية – بالنسبة له – هي ما يظهره الشخص من أقوال وأفعال وتصرفات ، أو ما يعلنه من أفكار وأراء ، أو هي ما يكونه الآخرون عن الشخص من أفكار وانطباعات ، وأنه ليس من الضروري ولا اللازم لكي تتعامل مع الآخرين أن تعرف شخصيتهم، وأن معرفة الشخصية نوع من الترف العقلي ، لا الأحوال ولا الظروف التي يمر بها الإنسان الآن تسمح له بذلك ، وإذا أردت معرفة إنسان ما – في عرف هذا الشخص – يكفي أن أتعامل معه ، ومن خلال بعض المواقف والأحداث ستظهر شخصيته ،أو في أسوأ الأحوال استفسر من الآخرين الذين تعاملوا معه ليخبروني عن شخصيته .

وكل هذا نوع من الوهم والخداع والتضليل ، فهناك الشخصية ، وهي ما يريد الشخص أن يظهره للآخرين ، وهذا في العادة يكون غير حقيقي ، لأنه تغلب عليه صفة التجمل ، أو ما يريد الآخرون أن يكون عليه الشخص ، وهذا أيضا غير حقيقي لأنه نوع من التعسف . وهناك حقيقة الشخصية ، وفي الغالب لا الشخص على استعداد أن يظهر حقيقة شخصيته للآخرين ، ولا الآخرون على استعداد أن يعرفوا – بموضوعية – حقيقة الشخصية ؛ لأن الناس يرون ما يحبون أن يروه .

ولكن إذا أسقطنا كلام وأراء الشخص عن نفسه .

وإذا استبعدنا كلام وأراء الآخرين عن هذا الشخص .

فماذا يتبقى لنا ؟

لا شيء !

إذن نحن مضطرون – بل مرغمون – أن نعود إلى أراء الشخص عن نفسه وأراء الآخرين ، رغم اعتقادنا أن هذين لا يعدان أساسين للدراسة .

وهنا تظهر أهمية أو ضرورة أو حتمية الدراسة ، لأنك في حاجة أن تستخلص أو تستنتج من تلك المبالغات والأوهام والأقاويل والأهواء والتجمل والتعسف ، في حاجة أن تستخلص الحقيقة ، ولكي تصل إلى هذا ، أنت في حاجة إلى غربلة ونخل وتصفية هذا الكم الضخم من كل ما ورد إليك أو تحصلت عليه عن الشخصية ، من كافة المصادر ، ثم تأخذ المغربَل والمنخول وتعرضه على العقل والمنطق ، وينبغي أن يتفق أو يتلاءم أو يتواضع مع طبيعة الدراسة ، فأنت تدرس شخصية إنسانية ، من لحم ودم وأعصاب ،صرامة العقل وجفاف المنطق ينبغي – إلى حد ما – أن يراعا أنهما يتعاملان مع موضوع حي ، وقد يكون – وهذا شيء طبيعي – متغيرا ومتقلبا ومتحولا ومتطورا وناميا ، وأنه خاضع للمشاعر والأحاسيس والميول والأهواء والرغبات .

ثم بعد ذلك تضع ما خلص إليك في إطاره الزماني والمكاني.

وليس المقصود – هنا – بالزمان الآنية الموجودة فيها الشخصية ، ولكن وضع الشخصية في صيرورة الزمن ، فهناك الماضي وماضي الشخصية ، وهناك الحاضر وحاضر الشخصية ، وهناك المستقبل ومستقبل الشخصية ، ولابد وأن يوجد علاقة تربط بين هذين الخطين – الزمان والشخصية – فهل هناك اتفاق ووفاق بين هذين الخطين ، وإذا كان هذا حادث فإلى إي مدى ، وإذا كان هناك اختلاف وخلاف – أيضا – فإلى أي مدى ؟

والمقصود بالمكان ، أثر الشخصية في محيطها المحلي الضيق ، وبالتالي أثر المكان في الشخصية ، فهل هناك تأثير وصدى للشخصية في المكان ، وهل يزداد هذا الأثر ويتسع الصدى ؟

وليس الإطار الزماني والمكاني عنصرين جامدين ، ولكنهما يتفاعلان مع الشخصية ، والشخصية تتفاعل معهما ، فهناك علاقة حية ونامية ومتطورة ومتجددة بينهما ، بمعنى أن فعل الزمان – تقدمه وصيرورته – سيزيد من دائرة واتساع المحيط المكاني لأثر الشخصية .

هذا إذا كانت العلاقة حية ونامية ومتطورة بين الشخصية وإطاريها ، أما إذا لم يكن هناك علاقة ، أو أن العلاقة بينهما جامدة ومتدهورة ، بمعنى كلما تقدم الزمن كلما ذبل وضعف وبهت أثر الشخصية ، وبالتالي تقلص وانكمش المحيط المكاني للشخصية ، إلى أن ينعدم أثر الشخصية ويصبح لا مكان للشخصية بعد أن فقدت زمانها ، وهذا ما نسميه بانتحار الشخصية ، أو باغتيال الشخصية ، وهناك فرق بين الاثنين .

أما انتحار الشخصية فهو انسحاب إرادي ، لم تستطع الشخصية تحمل أو مقاومة الضغوطات والصمود في ميدان معركة إثبات الوجود ، والانتصار على أعدائها أو على خصومها بأي صورة من الصور ، لأسباب كثيرة ، منها عدم التكافؤ في القوة ، أو لضعف وخور في الشخصية ، فآثرت الخروج من تلك المعركة ، وقد يكون هناك – ولا شك – مبررات وقناعات لتلك الشخصية جعلتها تتخذ لا نقول هذا الموقف ، ولكن نقول أنه خيار للشخصية ترى فيه أنه الأسلم لها ولغيرها .

أما اغتيال الشخصية فهو رغبة من حول الشخصية أن يقضوا عليها – وقد تعرض أغلب الأنبياء لذلك – لأسباب كثيرة ، وهؤلاء يتخذون أساليب وطرقا كثيرة لذلك ، إما بمحاولة القتل ، أو تشويه الشخصية ، وتشويه الشخصية يتخذ أساليب كثيرة ومتنوعة ، إما باتهامه بالسحر ، أو أنه يستعين بالشيطان ،أو أنه مصاب بالجنون ، أو أنه يدعي الإلوهية كما رمى اليهود السيد المسيح بذلك ، لذلك يجد النبي نفسه موزعا بين أمرين :

الأول :هو محاولة إقناع من حوله بجدية وأصالة وأحقية دعوتـه ، بالاحتكـام إلى العقل والمنطق .

والثاني : مقاومة ومجالدة ومجاهدة جميـع صـور العـداوة والخصـومة والحقـد بالاحتكام إلى الأدلة والبراهين ، ولكن كل هذا يجب أن يتم وفـق زمـن محـدد – وإن كان بعض الأنبياء أتيح لهم من الزمن ما لم يتح للآخرين ، ولكن لأن كل منهم كان له ظروفه الخاصة – لا يتجاوزه النبي ، كذلك للنبي مهمة ودور معين ومحدد لا يتعداه ، فهو محدد تحديدا قاطعا من قبل السماء .

مهمة النبي :

النبي ليس كالأب الشفيق الذي يظل يتعهد أبناءه بالحب والحـدب والرعايـة إلى أخر يوم في عمره ، فليست مهمة النبي لها هذا الدوام والاسـتمرار ، وليسـت مـن مهمة النبي هذا الصبر والانتظار ، ولكن النبوة فترة محدودة بزمن وموقوتة بمدة ، هي نوع قوي وحازم وحاسم من التبليغ والتنبيه ، أو هي إقامة الحجة عـلى البشرـية ، وفي نفس الوقت عرض وتقديم دليل وبرهان للإنسانية ، فإذا سـارت عـلى طريـق الحـق والاستقامة واستنارت بنور الرسالة وهدي النبوة ، فقد انتفعـت بجـدوى الرسـالة ، وإن تنكبت جادة الطريق فقد حرمت مـن النـور والهـدى ، وهنـا لا انتحـال معـاذير بالجهل وعدم العلم ، وفقدان الدليل وانعدام النـذير أو البشـير النبـي لم يـأت لـيعلم البشر كيف يـأكلون أو كيـف يشرـبون أو كيـف يسـيرون أمـور حيـاتهم المعيشـية أو ينظمون أمور حياتهم الدنيوية ، تلك الأمور لم يكن لنبي أن يشـغل بالـه بهـا أو يفكـر فيها ، ولكن جاء لمهمة محددة وأمر واضح لا لبس فيـه ، جـاء لـيعلم الإنسـان كيـف يكون إنسانا . جاء ليزيح هذا الركام ، ويجلو هذا الصدأ ،جاء لـيخلص الإنسـان مـن القيود والأغلال ، جاء ليحرر الإنسان من العبودية الباطلة الكاذبة ليضـعه في مكانـه الصحيح والحق حيث وضعه الله .

والأنبياء والرسل ليسوا حقا للإنسانية تطالب به السماء ، وإنما هـم – الرسـل والأنبياء – منة وفضل وإحسان من السماء لأهل الأرض ، فلو استقامت البشرية على فطرتها السوية لتوصلت إلى الهدى والرشاد من أقرب السبل ، فقد وضـع الله – y – وبث في تلك الفطرة ما يهدي ويرشد البشرية إليه ، ومجرد أنه هو الخالق لتلك الفطـرة والمبدع لها ، فهذا كفيل أن تهفو وتصبو إليه ، ولكن حيـنما تـتراكم عـلى تلـك الفطـرة الكثير من الحجب ويطول عليها العمر ، تضع وتصنع الكثير مـن الموانـع والحـواجز بينها وبين الخالق ، وتضل ضلالا بعيدا ، وتسير في طـرق الكفـر وسـبل العصـيان ، ودروب الإلحاد ، وحينما لا يكون من سبيل لإزالة تلك الحجب ، وتبديد تلك الموانع والحـواجز ، والعـودة مـن طريـق الكفـر إلى الإيـمان ، وسـبيل العصـيان إلى الطاعـة ،ودروب الشرك إلى التوحيد ، يأتي الرسل والأنبياء ، ليكشفوا ويزيلوا ما تـراكم عـلى الفطرة السوية ، ويهدوا الضال، ويرشدوا العاص ، وعملهم هذا لا يقابـل – في أكثـر الأحيان – بالترحـاب أو بـالقبول ، أو بـالحوار الـذي يرتكـز عـلى المنطـق والعقـل ، ولكنهم يجابهون بالعناد والعداء والسخرية والاستهزاء ، والمـؤامرات التـي تصـل إلى الاغتيال والقتل ، ذلك لأن الفطرة خرجت عن سوائها ، تبدلت ، تغيرت ، تحورت ، تشوهت ، طمست ، أصبح لديها الحق باطلا ، والباطل حقا ، وقليل – بـل أقـل مـن القليل – حافظوا على نقاء الفطرة ، من أن ينالها تبـديل أو تغيـير أو طمـس أو تشـويه ،وهؤلاء هم الذين يرتكز ويعتمد أو يبدأ بهم النبي ويكـوَن مـنهم قاعدتـه الصـلبة ، وهم الأنصار أو الأصحاب أو الحواريون أو التلاميذ ، ويهتم النبي اهتماما عظيما بهم ، لأنه يعلم أن المدة أو الفترة التي سيمكث خلالها في هذا العالم لا تتسع وعظيم وجليل وخطير رسالته ، يعلم أن عمره مهما طال فإنه موقوت ، بينما الرسالة لا حد لها ،

ويعلم أيضا أن أخطر المراحل التي ستمر بها رسالته ليس وهو على قيد الحياة ، وهو بين الناس يحدثهم ويحدثونه ، يحاورهم ويحاورونه ، ولكنها تلك الفترة التي ستعقب غيابه عن هذا العالم ، ويكون هناك سؤال قلق يدور في ذهن النبي ، هل ستبقى الرسالة وتدوم وتستمر تعاليمه وأقواله ، ويربو ويزيد المؤمنون به ، أم أن رسالته ستنتهي بموته، ويتقلص ويقل المؤمنون والمتمسكون بالرسالة ؟

وصف النبي :

إذا وُهب الإنسان نفسا طاهرة ذكية ، وروحا سمحة طيبة ، وأخلاق راقية سامية ، فإن هذا – لا شك – سينعكس على شكله الخارجي ، فهناك علاقة وثيقة بين باطن الإنسان وظاهره ،وإن ما يحدث في الداخل ، أو ما انطبع عليه الداخل وفطر عليه له أثر وتأثير كبير على الخارج ، مهما حاول الإنسان أن يفصل بين ظاهره وباطنه أو خارجه وداخله ،أو يخالف بينهما ، فإنه حتما الاتصال والتأثير متبادل بين الاثنين ،لأنهما في حقيقة الأمر رافدان لمكون واحد وهو الإنسان ، فإن الباطن يستدعي الظاهر ،والظاهر دليل حي على الباطن .

وقد اتسق الشاعر مع تلك الحقيقة حينما قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة　　　وإن خالها تخفى عن الناس تعلم

وقد قال ذلك لأنه يعلم أن الظاهر لابد منم على ما في الداخل ، مهما حاول الإنسان أن يغير أو يبدل الظاهر ليخالف الباطن .

وما من نبي إلا ووصف – بصورة أو بأخرى – بالجمال ، ولابد ولزاما وحتما أن يكون النبي جميلا ، لا لأن الجمال من لوازم النبوة ، أو عنصر مساعد يعينه ويساعده في الدعوة ،ولكن لأن النبي كيان صيغ وأحتوى واشتمل على جميع أنواع وأصناف البر ،فهو أولا بشري قد اكتملت وتمت بشريته ، فلا عيب ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط خلقي أو خُلقي ، ثم جاءت النبوة لتصعد وترتقي بهذا البشري

مرحلة أخرى ، أو مقاما أرقى وأعلى ، من خلال ما منحه الله وأفاض عليه من علم وحكمة ، وإحاطته برعايته واهتمامه ، وتأييده وتثبيته بمدد إلهي من عنده .

إذن فالنبي مخلوق قد قويت وتأصلت وتجلت صلته بالعالم الإلهي ، لأنه في النهاية يتحدث عن الله – y – أو باسم الله ، هناك أنوار لا تفيض عليه فحسب ، وإنما تفيض منه على من حوله ، لأن تلك الأنوار ملأت كيانه وامتلأ بها ، فكان ولا بد أن تفيض ، لتنتقل إلى الآخرين ، لتصلهم بالله ، كما اتصل النبي – مع الفارق الشديد بين الاتصالين – وهناك في شخصية النبي شيء ما يجعل الناس ينجذبون إليه إراديا ولا إراديا ،أو شيء ما يجذبهم إليه ، مثل النور الذي تنجذب جميع الخلائق نحوه ، ويجذبهم إليه ، ويشيع في طوياهم الأمن والسكينة والسلام ، ويشعرون وهم مشتملون به بالسرور والبهجة والسعادة ، إنهم أمام شيء مختلف لا مثيل ولا نظير له ، صنف متفرد ومتميز من البشر ، لا إنه ليس ببشر إنه يعلو عن ذلك ويمضي مصعدا إلى درجات عليا من الرقي والسمو ، ويشبه هذا ما قالته النسوة في حق "يوسف" عليه السلام ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ يوسف: ٣١

فالأثر الذي تركه "يوسف" في نفوس النسوة ، أو التأثر الذي تأثرن به يخفي وراءه جمال وجلال النبوة ، ليس مجرد جمال شكل أو ملاحة وجه وكفي ، وإلا لما كان له هذا التأثير الهائل عليهن ، وانظر إلى التعبير القرآني فور رؤيتهن له، ((أكبرنه)) إن الكلمة تصور وتنقل تلك الحالة التي اشتملتهن واحتوتهن بل اقتحمتهن بدون أن يتكلمن ، لقد ذهلن عن كل شيء حولهن لأنهن في أسر تلك الحالة ، لا ، هن لم يذهلن عمن حولهن ، بل ذهلن عن أنفسهن ، لقد توقف وتجمد الإحساس بكل شيء وأي شيء ،إلا التواصل والاتصال بهذا الشعور والإحساس ، فهن فقدن الإدراك

والإحساس حتى بأيديهن ، وحينما امتلأت نفوسهن بهذا الإحساس الفريد فاض على ألسنتهن وعبرن عنه ، وكان التعبير في قمة الرقي والسمو ، وشغلن عن الجمال بخالق الجمال ،ومبدعه ، وهو الله – y – وهذا هو المفهوم الحقيقي للجمال أو قل فلسفة الجمال ، أنه يحرك ويخلصك من كل تأثير أو شعور ويصلك بالمصدر الرئيسي للإبداع والخلق "والمراد بهذه الجملة الكريمة التعبير عن صنع الله في خلقه أي : وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن : ننزه الله – تعالى – تنزيها كبيرا عن صفات العجز ، ونتعجب تعجبا شديدا من قدرته – سبحانه – على خلق هذا الجمال البديع ، وما هذا الذي نراه أمامنا بشرا كسائر البشر ، لتفوقه في الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تخلب الألباب "[1] ولكن كيف يشبهنه بملك وهن لم يرين الملائكة ؟

إذا ارتقيت وعلوت بالبشري إلى أقصى حد ، فليس أمامك إلا أن تدرج هذا البشري في مصاف الملائكة ، كما إذا أردت أن تسفل بالبشري فليس أمامك إلا أن تدخله في مصاف الشياطين ، فليس أمامنا إلا هذان النطاقان ، الملائكة والشياطين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن إدراك الجمال ، شيء فطري ، وأن يصل الإنسان – بإدراكه – إلى مبدع وخالق الجمال كذلك شيء فطري ، طبعنا الله عليه " (مَا هَٰذَا بَشَرًا) نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور ، واثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم ، وذلك لأن الله ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما ، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك ، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين ولا أجمع للخير من الملائكة"[2]

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد السابع – (٣٥٣)
٢- تفسير الكشاف – للزمخشري – المجلد الثاني – صفحة ٣١٧

وليس هناك من هو أقدر على تقدير جمال الرجل مثل المرآة ، والنبي رجل، إذن ليس هناك أقدر من تقدير جمال النبي كالمرأة ، ليس جمال الشكل فحسب ولكن هناك وراء جمال الشكل رصيد لا ينفد ولا ينضب وهو جمال الشخصية .

شخصية النبي :

هناك فرق شاسع بين شخصية الإنسان العادي وشخصية النبي ، كالفرق بين المصباح المعطوب الذي لا يصدر عنه ضوء ولا حرارة ، والمصباح الصالح الذي يتوهج بالضوء والحرارة ، أو كالفرق بين عود من الحطب الجاف اليابس ، وبين فرع أخضر ريان مزهر مثقل بالثمار، أو كالفرق بين قطعة من الفحم المتحجر في جوف الأرض ، وبين فرقد منير في السماء .

على هذا فكل ما نكتبه عن النبي لا يتسامى بأي صورة من الصور إلى شخصية النبي ، لأن مطلوب منا – وقد أردنا أن نكتب عن النبي – أن نجلي جوانب من شخصيته ، أو نلقي الضوء على نواحي مستورة أو مظللة بظلال عدم الفهم من شخصيته ، أو نوضح خطوط أو سمات أو خصائص تلك الشخصية ، وهذا لا يتأتى لنا إلا إذا توافر لنا ميزة الإحاطة بالشخصية ، وبالنسبة للنبي ، فنحن المحاط بنا ، ولا نستطيع أن نحيط به ، فلم نوهب ما وُهب ، ولم نميز بما مُيز به ، ولم نعد لما أُعد له ، ولم نهيأ لما هُيأ له ، إذن كل كتابتنا عن النبي ليس فيها من تصوير شخصية النبي – كما خلقه الله – بقدر ما فيها من تصوير لمفهومنا نحن لشخصية النبي ، إذن ونحن نكتب عن النبي ،– بدون أن نشعر أو نتعمد – نكتب عن أنفسنا ، نبحث وندرس شخصيتنا نحن وليس شخصية النبي ، إذن ما علاقة شخصية النبي بهذا الأمر إذا كان كل ما نكتبه لا ينصب على شخصية النبي ؟!

أعظم ما يفعله النبي – وكل ما يفعله عظيم – أنه بكل مقدرة وكفاءة وجدارة ينبه ويوقظ ويستفز ويستنفر أنبل وأفضل وأجمل وأجل ما في النفس الإنسانية من

صفات وخلال ، النفس الإنسانية كالمنجم ، فيه التبر وفيه التراب ، فيه الجواهر النفيسة القيمة مطمورة ومخبأة في باطن الأرض ، وفيه كذلك قطع الحجارة التي لا تساوي شيئا ، يأتي النبي وبعين الخبير المقدر والمثمن لقيمة الأشياء ، ويلتقط ويميز ويفصل ما بين التبر والتراب ، ما بين الجواهر والحجارة، ويعلمنا إذ نحن جاهلون ، الفرق بين الغالي والرخيص ، والقيم والرديء ، الشريف والخسيس ، العالي والدنيء ، ثم بعد ذلك يأخذ بأيدينا – مترفقا متعطفا – ليتدرج بنا في معارج الرقي والسمو النفسي والخلقي والفكري والوجداني ، لنلج – وهو يتقدمنا – عوالم الطهر والنقاء ، بل يعلمنا كيف نبدع وجودا إنسانيا راقيا ، يليق بالإنسان بحكم أنه مخلوق مكرم من قبل الخالق العظيم .

إذن ونحن نكتب عن النبي ، نكتب عن أشرف وأنبل جزء في شخصيتنا ، ذلك الجزء الذي يرجع إلى النبي فضل صقله وشحذه وتهذيبه ، فهو – الجزء – نبوي الصياغة ، نبوي الرونق ، نبوي العبق ،وعلى ذلك فنحن – بكتابتنا تلك – لم نخرج عن شخصية النبي ، فنحن نكتب عن شخصية النبي ونحن متلبسون به، أو وهو متلبس بنا ، أو كلانا متلبس بالآخر ، وفي كل تلك الأمور النبي – بشخصه الجليل – قائم وماثل أمامنا ، نكاد نلامس أطراف ثيابه الطاهرة ، ونشعر بأنفاسه الذكية المباركة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، هناك هوة شاسعة وعميقة ،تفصل ما بين ما هو إنساني بحت وبين ما هو نبوي ، وتلك الهوة من المحال – لنا نحن البشر – عبورها أو تخطيها ، والوحيد الذي يمكننا من ذلك ويعيننا على ذلك هو النبي نفسه ، لأنه الوحيد الذي عبر – بفضل الله – تلك الهوة ، وهو يفعل ذلك من خلال محاولتين :

- أن يهدئ من غلواء واندفاع وشدة ووطأة النبوة ، من خلال بساطته وتواضعه واقترابه الحميم من الناس وترفقه بهم ، وعطفه عليهم ، والحرص كل الحرص على هداهم وإرشادهم من أقرب الطرق وأيسر السبل إلى الحق ، واضعا في

- اعتباره مدى ضعفهم وجهلهم وعنادهم وتعنتهم ولجاجهم ،وأن النبوة التي أنعم الله بها عليه ، لا تميزه عنهم أو تعلو به عليهم ، وإنما تضع عليه مسئوليات جسام ، أن يتحمل جميع أنواع وأشكال الإيذاء ، ويصبر على اللأواء والنصب ، وهذا ما وضحه السيد المسيح حينما انتقدت فئه من اليهود المسيح لأنه يجلس مع سيئ السمعة والخطاة " وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانا جالسا عند مكان الجباية اسمه متى ، فقال له اتبعني ، فقام وتبعه ، وبينما هو متكئ في البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا وات كأوامع يسوع وتلاميذه ، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ، فلما سمع يسوع قال لهم لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ما هو ، إني أريد رحمة لا ذبيحة لأني لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة " [1]

يعرف مهمته ودوره كنبي ، عمله مع المرضى ليداويهم ، ومع الخطاة ليهيدهم ،سيتعامل – وهو النبي الكريم – مع أصناف كثيرة من الخطاة والعاصين والمجرمين ويخالطهم ويتحدث معهم ويناقشهم ويجادلهم ، ويشاركهم همومهم ومتاعبهم متفهما لهم ، مترفقا بهم ، حانيا عليهم ، ليأخذ بأيديهم ، ويعبر بهم ذلك البحر الهائج المتلاطم الأمواج الذي تغشاه ظلمات فوق ظلمات من الخطيئة والعصيان ، ليعبر بهم إلى بر الهداية والسلام .

- أن يدفعهم ويحضهم ويحفزهم أن يبذلوا أقصى ما لديهم من طاقة وإمكانية ، أن يرتقوا – على قدر ما يستطيعون – إلى مكانة ومكان النبوة ، من خلال ما يبثه في نفوسهم وأرواحهم ، من تجليات وأنوار النبوة ، وسوف يكلفهم النبي من أمرهم شدة وعسرا ،ليعلمهم كيف ينتصرون على أنفسهم ، ويعلون على رغبات الجسد ،ويتحدون إغراءات وزخارف الدنيا ، ليكونوا – بعد ذلك – أهلا أن ينتسبوا

١- إنجيل متى – الإصحاح التاسع .

- إلى النبي ، وقد عاتب المسيح – في رفق – تلاميذه حينما طلب منهم أن يسهروا معه ، فوجدهم قد ناموا ، لأن الجسد هو الذي يهيمن عليهم وهو يتعب أم الروح فلا تتعب " ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياما ، فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة ، اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف "[1]

لذلك ونحن نكتب عن شخصية النبي تحقيق وتأكيد على نجاح وتوفيق النبي في عبوره بنا تلك الهوة الشاسعة العميقة ، التي تفصل بين البشري والنبوي، وفي نفس الوقت نجاح وتوفيق لنا أن عبرنا مع النبي – أو كما علمنا النبي – تلك الهوة ، بحيث نلتقي نحن وهو على أمر واحد وأمر جامع ، هو تحقيق ورعاية الحق والخير والجمال في الوجود الإنساني ، أو إقامة الوجود الإنساني على تلك الأسس .

وأظن أن أول من سمح لنا وأذن أن نكتب عن شخصية النبي هو النبي نفسه ، لأنه اختار– في كثير من المواقف – أن ينحاز – عن فضل وكرم منه – للجانب البشري ليس على الجانب النبوي ، ولكن بإزاء الجانب النبوي ، فانحيازه للجانب البشري ليس على حساب الجانب النبوي ، فهو مصان ولا يمس بأي صورة من الصور ، ولكنه نوع من التعاطف والمشاركة الحميمة من النبي لبني البشر ، ليس لأنه منهم ، ولكن دافعه إلى ذلك حبه ورحمته بهم .

وصف السيد المسيح:

يطيب لنا نحن – أبناء العصر الحديث – أن نرسم صورة وصفية لما نحبه أو نكرهه ، وهذا في حد ذاته شيء محمود ، وهو ثمرة من ثمار التطور العقلي والارتقاء الفكري ، لأن الصورة –سواء كانت تعتمد على الألفاظ والمعاني ، أو الخطوط والأصباغ والألوان – تستحضر تجميع الجزئيات والمتفرقات والأعضاء المتعددة

١ـ المصدر السابق ـ الإصحاح السادس والعشرون .

لتكــون في النهايــة كــلا واحــدا ، وهــذا يســاعد في تخيــل الشخصــية، أو استحضارها بكل ملامحها وسماتها وخصائصـها ، وأشـد مـا تكـون القـيم والمبـادئ والفضائل تأثيرا حينما تكون مشخصة أو متلبسة بأشخاص ، أو الأشخاص متلبسون بها ، بل لا قيمة أو لا أثر لكل القيم حينما تكون مجردة أو معنى من المعاني إلا في عقـل المفكرين والفلاسفة ، فما قيمـة أو أثـر الأمانـة إن لم تـترجم سـلوكا وفعـلا وتصرـفا ويحققها رجل أمين ؟ ففي أن يوصف رجل بالأمانـة ،هـذا دليـل عـلى وجـود صـفة الأمانة وجودا حقيقيا ، وليس مجرد معنى طائف أو حائر بالأذهـان ، ووجـود رجـل أمين دليل على قدرة البشر على الارتقاء والتسامي ليصلوا ويحلقـوا إلى تلـك المعـاني ، ويبثوا فيها الحياة ، ويسدوا أو يعبروا أو يتجاوزوا تلـك الهـوة الواسـعة بـين مـا هـو واقعي وبين ما هو عقلي ، بين ما يوجد في الأذهان والضمائر وبين مـا تحققـه الأفعـال والتصرفات .

ومع إيماننا القوي بأن جميع الأنبياء عبارة عن مجمعات لكل الفضائل والخلال النبيلة والعظيمة ، إلا أننا – نحن البشر – في شوق أن نراهم بشرا يمشون على الأرض ، يتحدثون ويتصرفون وهم راضون ،وهم غاضبون ، وهـم محبطـون وهـم راجـون ،نريد أن نسعد بقدرة وإمكانية هؤلاء ، أنهم نجحوا بالفعل وتفوقـوا بـالواقع ، أنهـم حققوا درجات من التعالي والسمو ، وارتفعـوا بـالطبع الآدمـي والجبلـة البشرـية إلى درجات عظمى ، لأن نجاحهم في هذا هو نجاح لنا ،لأنهم فعلوا هذا من منطلق أنهم بشر ، فإذا كان هناك بشري ما ، قام بدور نبي ونجح في ذلك نجاحا عظيما ، فـإن كـل بشري داخله نبي ، إن لم يكن بالفعل فبالقوة ،وهذا سبب حبنا العميق للأنبياء ، أنهـم يترجمون ويجسدون كل طاقاتنـا وإمكاناتنـا الروحيـة ، ويفجـرون مـا في داخلنـا مـن المخزون النوراني الذي أودعه الله – y – في خلقتنا ، ولكن هذا المخزون في حاجة إلى من يخرجه كما يخرج النار من الزند .

لكل هذا نحن لدينا رغبة جارفة وشوق شديد أن نرى الأنبيـاء رؤيـة العـين، وهذا في حد ذاته محال ، فليس على الأقل أن نتتبع أوصافهم تتبعا دقيقا أصيلا، نصوغ صورة وصفية لا لشـيء إلا لإرضاء هذا الشوق وإرواء هذا الحب، فالشوق والحـب يستدعيان موضوعا أو ذاتا يكون صدى أو يعكس هذا الشوق والحب ، وهذا ما دفع موسى – عليه السلام – أن يتطلع إلى رؤية الله – y –﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ لأعراف: ١٤٣

وطلب الرؤية هنا ليس متعلقا بمسألة الإيمان ، ولكنها متعلقة بمسألة الشوق والحب لله في قلب "موسى" ، فإذا امتلأ قلب "موسى" بالشوق والحب، طاقت نفسه البشرية إلى رؤية من يشتاق إليه ويحبه .

فرسم صورة وصفية للأنبياء لا يطلبها من لا يؤمن بهم ، ولكـن يطلبهـا مـن يحبهم وفي شوق ولهفة ورغبة أن يراهم رؤية العين .

رؤيتـان :

نحن لن نصدق كل ما كتبه المؤرخون ، أو كل ما ورد إلينا من أخبـار المـاضي القريب أو البعيد ، لأن هناك أحـداث وحـوادث تخـالف العقـل والمنطـق ، وأخـرى تخالف منطق الأحداث نفسها ، وهناك أحداث ذكـرت لا دليـل ولا برهـان عليهـا ، وهي في أمس الحاجة إلى الدليل لتدمغ بالصدق .

وأيضا لن نكذب كل ما كتبـه المؤرخـون أو ورد إلينـا مـن وقـائع التـاريخ ، فمحال أن كل من كتب وسجل مفتر أو كذاب ، وإلا تساوت الكتابة والتسجيل مـع عدم الكتابة والتسجيل ، فالمفتر والكذاب لـيس في حاجـة إلى تقـديم وثيقـة لافترائـه وكذبه للإنسانية لتشهد عليه بذلك ،ولكن نحن لا نستبعد فيما كتب أن يكـون تلـبس بالمبالغة أو التجميل أو الإفراط والتفريط ،أو التهويل أو التهوين ، ولكل شيء أسبابه ومبرراته .

وكتابة الأعداء الكارهين المذرين عن شخصية ، ليست ككتابة المحبين المقدرين المنصفين، وبين كتابة هؤلاء وهؤلاء قد تحدث بلبلة وحيرة بين الحق والباطل، وبين الإثبات والنفي ، فهذا أثبت صفة ما ، وجاء آخر ونفى تلك الصفة ، أو أثبت ما يناقضها ، إذن لن يبقى شيء من سمات وصفات الشخصية ، وإن بقى فهي سمات وصفات باهتة ضعيفة لا قوام ولا كيان لها . ولكن هذا يحدث إذا أتينا بما كتب تاريخيا ووضعناه جنبا إلى جنب ولم نمحص أو نبحث أو ندرس أو نحلل ما ورد إلينا .

فنحن نهتم بما كتبه الأعداء والكارهون ، ولكن نبعد عنه ونخلصه من التهوين والتفريط ، وكذلك نهتم بما كتبه المحبون المنصفون ، ولكن سنجنب عنه المبالغة والإفراط ، ولابد أن نتجشم هذا العناء ، لأننا في حاجة إلى ما كتبه المهونون والمفرطون ، لأنهم يكتبون عن شخصية وجدت بالفعل ، وأتخذ منها موقفا ، أيما كان هذا الموقف ، ولكنهم بخسوا حقه لشيء ما في صدورهم ، بغض النظر عن موقفهم ، هم أسدوا خدمة إلى الإنسانية ، أنهم كتبوا عن هذا الشخص ، ولم يتعاملوا معه بمبدأ الإهمال والتجاهل والنسيان .

ونحن في حاجة إلى ما كتبه المحبون والمقدرون، لأنهم كشفوا أو أظهروا جوانب تبرر مدى حبهم وأدركوا أن تلك الجوانب فيها إفادة وإثراء لضمير الإنسانية، ومع ذلك فلو خلصنا تلك الجوانب من المبالغة ، لبقيت ثابتة ولم ينلها شيء .

وإذا كان عملنا هذا محاطا بالعسر والعنت ، مع الشخصيات التاريخية ، فإنه – على العكس – أشد ما يكون يسرا وسهولة مع شخصيات الأنبياء ؛ لأن هؤلاء صنف مصفى ومختار من الناس قد اكتملوا خلقا وخلقا ، فليس ثمة نبي دميم أو قبيح

الشكل والمنظر ، فمن ضمن مواصفات وصفات النبي أن ترتاح وتستقر وتسعد العين بالنظر إليه ، ناهيك عن الإيناس والسرور والبهجة بسماعه والإنصات إليه ، ففيه كمال الخلقة كبشر . ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٤٥]

فهو نبي يتصف بالوجاهة ، هذا إذا طبقت معايير الوجاهة الدنيوية فهو وجيه ، وبمعايير الوجاهة في الآخرة فهو وجيه " أي ذا جاه وشرف ومنزلة عالية ، يقال وجه الرجل وجاهة من باب ظرف وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس ، واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو الذي يواجه الإنسان به غيره ، وعيسى عليه السلام شهد الله تعالى له – وكفى بالله شهيدا – شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة في الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة في هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها " [١]

" والوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس ، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة " [٢]

والنظر إلى وجهه ، يبعث في النفس الإحساس بالراحة والسكينة والأمن والسلام ، ليس هذا فحسب ، بل يدفع النفس – في كل رفق وحنان – أن تديم النظر إلى هذا الوجه ، لتجعل كل تلك المشاعر موصولة ولا تنقطع ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى حتى ترتشف وتشبع وتتشرب من تلك السمات والملامح ، لتجعلها زادا لها تجتره وتستعيده إذا غاب عنها صاحب الوجه في الواقع فلا يغيب عنها في الخيال والتصور ، فالنفس الإنسانية لا تمل ولا تضيق ولا تسأم من النظر إليه ، بل يحلو لها

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الثاني – صفحة (١٠٧)
٢- تفسير الكشاف – الزمخشري – المجلد الأول – (٤٣٠)

أن تستمر وتديم وتطيل النظر إليه ، لذلك اتسمت أغلب نصائحه بـالطول ، وأنه يستغرق وقتا ليس بالقصير ، لأن المسيح شعر أن من أمامه أو من حوله يطلبـون الاستزادة ، ولو شعر منهم بغير ذلك لأوجز واختصر ، وأغلب من رآه أحبه ،أو قـل أن من رآه فليس من اليسير عليه أن يدرج ملامح هذا الوجه الكريم في جملـة الوجـوه أن يمر بها أو تمر به ، بدون أن تترك أثرا ، وأثرا بليغا فيه " من أقدم الصـور الوصـفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم رواتها أنها كتبت بقلم ببليوس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدول الرومانية ، رفعها إلى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد وجاء فيها :

" أنه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويـدعوه تلاميـذه بابن الله . وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه . شعره كلون الخمر منســرح غـير مصـقول ، ولكنـه في جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس في وجهه شية ، غير أنه مشربـب بنضـرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس في فمه ولا أنفه ما يعاب ، وعينـاه زرقاوان تلمعان ، مخيف إذا لام أو أنـب، وديـع محبـب إذا دعـا وعلـم ، لم يـره أحـد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكي ، وهو طويل له يـدان جميلتـان مسـتقيمتان ، وكلامـه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب ، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال "[1]

قد لا نقبل تلك الرواية التاريخية ، شأن موقفنا من أغلب الروايات التاريخية ، التي تفتقد الدليل والبرهان على صدقها ، أو وجود روايات أخرى تعضـدها وتقويهـا ،ولكن في نفس الوقت ليس هناك ما يبطلها أو ينفيها ، أو يعارضها ويكذبها ، لـذلك تقف الرواية في منطقة وسطى بين القبول والرفض، بين التصديق والتكذيب ، بين

١ـ عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (٩٢)

التوثق والأبطال ، فمن شاء قبلها وأراح عقله وضميره ، ومـن شـاء رفضـها وآثر الراحة والسلامة على التعب والمشقة .

أما وأن الرواية لا تصدمنا بغير ما نتخيله أو نتصوره عن المسيح ،ولـدينا مـن الشواهد النفسية والدلائل العقلية ما لا يجعلها مرفوضة ، ومـا ترسـمه مـن خطـوط وسمات وصفات ، لا نقول تنطبق تمام الانطباق على صفات وسمات المسيح ، بل تشير وتومئ – ولو من بعيد – إليه ، فما المانع أن نتبناها ونعتـد بهـا ونأخـذها في الاعتبـار ، ونحن معذرون في هذا لأنه " ولـيس في الأناجيـل إشـارة إلى سـمات السـيد المسـيح تصريحا أو تلميحا يفهم من بين السطور "[١]

ونحن حينما نبحث عن معنى (عيسى) اللغوي يمدنا بشيء – ولو ضـئيل – عن بعض صفاته والتي نجد لها صدى في بعض ما ورد إلينـا مـن روايـات تاريخيـة " وهو اسم ينبئ عن البياض والصفاء والنقاء . قـال الراغـب : عيسـى اسـم علـم وإذ جعل عربيا أمكن أن يكون من قولهم بعيرا عيسى ، وناقة عيساء وجمعها عيس ، وهي إبل بيض يعتري بياضها بعض الظلمة ، أي فيها اغـبرار قليـل يعطـي بياضـها صـفاء ونقاء وجمالا "[٢]ومن صفاته الطهر والنقاء والرقي والسـمو وأنـه مبـارك أيـنما كـان ، فالبركة تحل وتنتقل منه إلى من حوله " وقيل المسيح : فعيل بمعنى فاعل ، للمبالغة في مسحة الأرض بالسياحة للعبـادة ، أو مسـحه ذا العاهـة ليـبرأ أو بمعنـى مفعـول أي ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب "[٣]

١- عبقرية المسيح – (٩٣)
٢- التفسير الوسيط (١٠١)
٣- التفسير الوسيط – (١٠٦)

شخصية السيد المسيح :

تتسم شخصية السيد المسيح بالشمول والعمق والثراء والتعدد ، فهي كالماء الصافي الرقراق تتلون وتتشكل حسب المنظار الذي تنظر من خلاله له .

فهو الزاهد في كل متع الحياة المعرض عن كل ما فيها من مباهج إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو الراغب في كل ما يدخل على القلب المسرة والمقبل على ما يبعث في الروح البهجة إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو المفكر المتأمل الذي يسبر الأمور ليصل إلى عمق وجوهر الحقيقة يجليها ويظهرها في أبسط وأيسر صورها وأشكالها إذا نظرت إليه من هذا الجانب.

وهو المتلبس بأمور وشؤون الحياة اليومية للناس ،حتى أبسط الناس ، الملم والعارف بكل مشاكلهم ومآزقهم وأزماتهم إذا نظرت إليه من هذا الجانب.

وهو اللين المتسامح الرحيم العفو ،حتى يخيل لك أن قلبه صيغ من نور ، فليس ثمة مكان للغضب أو النقمة أو الغلظة أو الفظاظة إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو الثائر الغاضب الناقم الحاسم الحازم ، لا أحد يستطيع أن يقف أمامه أو يهدئ من ثورته أو غضبه ، وهو لا يرضى بأنصاف الحلول ، فهو لا يهادن ولا يصالح ، إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو السياسي المرن الصبور الخبير بأساليب وخفايا ونوازع ومرامي خصومه ، ويظل سائرا معهم ، ويمد لهم من حبال الصبر والاحتمال حتى تلتف تلك الحبال حول أعناقهم إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو الفيلسوف الذي يجادل ويحاور ويناقش ، ويقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، ويصرع خصومه أو محاوريه ومجادليه ، من خلال نظرته الإنسانية الرحبة ، وعقله المتفتح ومنطقه الواضح المباشر إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو الشاعر المحتفل والمحتفي بمواطن ومظان الجمال في الطبيعة ، فاتحا للنفس الإنسانية نوافذ وأبوابا لتطل من خلالها على هذا الجمال الذي يجعل الوجود الإنساني أكثر إشراقا ، وأشد وضاءة ، ويصوغ كلماته وعباراته بأسلوب يمس شغاف النفس الإنسانية ، لتتصل بينابيع الخير والجمال ، لتبدأ عهدها الحقيقي والصادق والطاهر بالوجود والكون . إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو النبي الذي عهد على نفسه أن يطهر الوجود الإنساني ، ويخلصه مما به من أوزار وأثقال ،ويصل الإنسانية بخالقها ومبدعها إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو الرسول ، الذي وعى وفهم مضمون رسالته ، ومدى أهميتها وخطورتها في هذا الزمان وفي هذا المكان ، وقام بمهمته ، وأدى دوره ، مستهينا وغير مبال بما يقف أمامه أو يعترضه أو يمنعه من تبليغ رسالته ، حتى لو كان في هذا هلاكه وموته .إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهو الإنسان الرقيق العذب الحالم الوضيء الجميل الجليل ، الذي شارك المعذبين في عذابهم والبؤساء في بؤسهم والمحرومين في حرمانهم ،وجبر كسر الإنسان ، وأقال عثرته ، وقبل خطيئته ، وتغاضى عن ضعفه ، وزرع في نفسه الأمل والرجاء والسعادة ، بعد أن كان الإنسان أسير اليأس والقنوط والشقاء ، إذا نظرت إليه من هذا الجانب .

وهناك جوانب كثيرة أخرى يضيق المقام عن حصرها ، لذلك كثرت الأناجيل ، حتى ربت عن العشرات " وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع – أي بكثرة الأصوات – وهي إنجيل مرقس وإنجيل متى وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ، مع طائفة

من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد " [1] ، وكلها عن شخصية واحدة ، ولكن كل كاتب أو مسجل كان ينظر إلى جانب غير الذي ينظر إليه الآخر ، وكلها تتكامل وتتعاون في تكوين صورة لشخصية المسيح ، وكل إنسان يجد ما يريده ويأخذ ما يرغبه ، وشخصية المسيح تجسد آمال وطموحات وأحلام أي إنسان وكل الإنسانية

" فإنجيل متى مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد .

وإنجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب ((الأمم)) ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل ((المحافظين)) والإيمان بالآهية المسيح .

وإنجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه إلى سري كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجه الإنسانية

ويحضر في ذهنه ثقافة السري الذي أهدى إليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية

وإنجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن ((الكلمة)) logos ووصف فيه التجسد الإلهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة "[2]

مكونات شخصية المسيح:

ولكن ما سبب هذا الثراء والتنوع الذي تتسم به شخصية المسيح ؟

يرجع هذا الثراء والتنوع إلى كثرة وتعدد الروافد التي ترفد الشخصية، والمصادر التي أسهمت في تكوين وصياغة الشخصية.

١-عبقرية المسيح (١٩٠)
٢- المصدر السابق (١٩٢)

فقد تأثر المسيح تأثرا مباشرا، وتأثرا غير مباشر بشخصيات تركت أعظم وأجل الأثر فيه.

فشخصية المسيح فيها من أثر " زكريا" – عليه السلام – الكثير ، فقد سمع الكثير عنه ، من أقرب المقربين ، وهي أمه السيدة "مريم" ، فلا شك أن مريم كانت تكن لزكريا شعورا بالامتنان والإجلال ممتزجا بالحب والمودة ، ذلك الرجل الذي أصر أن يكفلها ، ويشملها بكل عنايته ورعايته ، ويتخذها كابنة له، فلا شك أنها تحدثت لابنها عن هذا الشيخ الحنون الوقور ، وأطالت في الحديث ذاكرة مناقبه ومكارمه ، ومواقفه ، ولا شك أن شخصية الفتي وهو ينصت لأمه قد تأثرت كثيرا على الأقل بمشاعر الأم الرقيقة العذبة وهي تتحدث عن كافلها في إعزاز وإجلال ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لا نستبعد أن "عيسى " قد قرأ كثيرا عن "زكريا" ، وشخصية "زكريا" وما تنطوي عليه من صفات وما اتخذته من مواقف ،وشخصية "زكريا" من الشخصيات التي لا ينكر تأثيرها القوي والطاغي ، وكانت شخصية "عيسى " في طور التكوين والتأثر ، ولديه قابلية لا حدود لها أن يأخذ ممن حوله ما يراه مفيدا ونافعا ،ونلمح ظلال وأثر" زكريا " في عيسى واضحا جليا ، فقد كانت تصرفات "عيسى " – وهو الشاب الذي لم يتجاوز العقد الثالث من عمره – تصرفات يغلب عليها التريث والتؤدة وتغلفها حكمة وعقل الشيوخ ، وأظن إن تلك الأمور لم تخذله طوال سني دعوته ، لأنها كانت من ملامح شخصية عيسى الرئيسة ، والتي أعانته كثيرا وعضدته في دعوته ،وساعدته – بكل مقدرة وكفاءة – أن يخرج من مواقف حرجة كثيرة ، وأن يتجنب تلك الشراك التي كان أعداؤه ينصبونها له على الدوام، بغية إحراجه أو توريطه .

أثـر الأم :

وكان أعظم الأثر وأجلّه وأعمقه ، أثر الأم ، وأظن أن كل ما كان يتصـف بـه "عيسى " من صفاء ونقاء وسمو ورقي وأريحية ورحمة وعطـف وشـفقة ورأفـة كـان يرجع في أغلبه إلى أثر الأم ، فعلاقة السـيدة "مـريم " بابنهـا "عيسـى" ، قـد تعـدت وتجاوزت البنوة بمراحل ،كذلك علاقة الأمومة – وليس هناك أرقى وأنقي من تلـك العلاقة – ولكنها تجاوزت تلـك العلاقـة بمراحـل أيضـا . ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة مريم:٣٢] نخال أنه لا يوجـد أم أثـرت في ابنهـا كـما أثـرت السيدة "مريم " ، وكذلك لا يوجد ابن تأثر بأمه كـما تـأثر السـيد المسـيح ، فمنـذ أن بشرت السيدة "مريم " بالمسيح ، وهي تمر بحالة وجدانية ونفسية غريبة وعجيبـة مـن ناحية ومن ناحية أخرى عسيرة وشديدة ، ولك أن تتخيل حالـة تلـك المـرأة الرقيقـة الوديعة التي قررت أن تعتزل العالم ، وتبتعد عن صـخب وضوضـاء الحيـاة ، راضـية قانعة ، وأن تعتكف عابدة ، في رعاية وكفالة نبي من الأنبياء ،وفجأة يزلزل هذا الهدوء ويصدع هذا السكون ويعصف بهذا الاستقرار والسـلام النفسي ـ التـي تعيشـه زيـارة ملك ، وليس بالأمر الهين ولا اليسير ولا المعتاد أن يقابل الإنسـان ملكـا ، لاسـيما إذا كان هذا الإنسان امرأة ، وبالأخص لو كانت تلك المرأة هـي "مـريم" ، ويخبرهـا أنـه مرسل إليها من قبل الله ، لأي شيء ؟ أنه سيهب لها غلامـا ذكيـا ! وبعفويـة وتلقائيـة مطلقة تعجبت ، كيف يحدث هذا وقد قررت ونفذت الاعتكاف والرهبنـة والابتعـاد عن أمور الحياة ، وعلى حد علمهـا أن المـرأة لا تـأتي بـالغلام إلا بطـريقتين ، وهـي لم تسلك أي مـن الطـريقين ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة مريم:٢٠] ولكن الملك يخبرها أن الله – y – قضى بأن يكون لها غـلام ، لـيس هذا فحسب ، وإنما سيكون نبيا وتمضي شهور الحمل بطيئة ثقيلة ، ويختلف المفسرـون عن مدة الحمل " حملت مريم ، بالمسيح ، بمجرد نفخ الملك في جيبها ، وطبيعي أنها قد

مرت بجميع أدوار الحمل إلى أن ولدته ، والقرآن الكريم لم يـذكر عـن تلـك الأدوار شيئا .

ويقول البيضاوي: كانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ستة ، وقيـل ثمانيـة . ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره ، وقيل ساعة كما حملته نبذته ؛والذي أميل إليـه أن كـل هذا تكلف من أصحاب هذه الأقوال ، لأن أمره في الحمـل لمـا كـان عجيبـا أرادوا أن يجعلوه في مدة الحمل أيضا عجيبا ، ونحن ليس في أيـدينا مـا يثبـت العجيبـة في مـدة الحمل ! فالأليق أن يحمل على الأمر الطبيعي الذي جرت العادة بمثله " [١]

والحالة النفسية والوجدانية التي تمر بها الأم أثناء أشهر الحمل ، لا ينكـر أحـد تأثيرها وأثرها على الجنين ، وشيء طبيعي ، وإنساني أن تكون " مريم " خائفـة وجلـة قلقة ، وهي تتحسس بطنها ، والجنين ينمو ويكبر بمرور الأيام وكر الشهور ، ويتجمع ويتركز كل خوفها ووجلها وفزعها ساعة الولادة ، إلى الدرجة أنها تتمنى الموت بـدلا مما تمر به ، وهنا كذلك لا أحد ينكر حالة الأم على أعصـاب ونفسـية الجنـين ، وأيضـا حالتها وهي ترضعه ، فليس هناك في الوجود كله أشد ارتبطا والتصاقا وامتزاجا مـن الجنين بأمه ، وهو داخل بطنها ، وأيضا وهو طفل يرضع من ثدييها .

تلك الحالات العصيبة والحرجـة التـي مـرت بهـا الأم ، ولا شـك أثـرت في المسيح ، تفسر لنا الكثير مما كان يتصف به ، أو جعلته مهيأ– بصورة ما – أن يتأثر تأثرا بليغا بما كان محاطا به من أحوال وظروف وأوضاع ، فقد كان مهيأ ولديه اسـتعداد أن يكون حزينا وقلقا ، متأججا ومشتعل الشعور ، متوفر الإحساس ، مرهـف ، رقيـق ، سريع التأثر بآلام الضعفاء والمظلومين والمقهورين

١- قصص الأنبياء – د . عبد الوهاب النجار – (٣٧٨)

رحيم عطوف ، متسامح ، لين ، متواضع ، لا يتوقف عن التفكير ليل نهار ، وكان لا ينام إلا غرارا ، وقد نصح تلاميذه أكثر من مرة بالسهر " اسهروا إذا لأنكم لا تعلمون في أي ساعة يأتي ربكم ، واعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب ، لذلك كونوا أنتم أيضا مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان " [١]

فهو يعتبر النوم نوعا من الغفلة والإهمال ، ويجب على الإنسان أن يكون مستعدا في جميع أوقاته ،وفي موضع آخر ينعي على تلاميذه النوم ،" ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياما ، فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة ، اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة ، أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف ، فمضى ثانية وصلى قائلا يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك ، ثم جاء فوجدهم أيضا نياما ، إذ كانت أعينهم ثقيلة ، فتركهم ومضى أيضا وصلى ثالثة قائلا هذا الكلام بعينه ، ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا .." [٢]

والمؤثرات البيئية التي تتعرض لها الشخصية – على اختلاف أنواعها وإشكالها – من شأنها أن تنشط وتفعل الاستعدادات المورثة ، فلولا ما قوبل المسيح بهذا العناد والتعنت والمقاومة الشديدة والمريرة من رجال الدين اليهودي والكهنة ، ولولا تلك المؤامرات والمكائد التي كانت ترسم وتحاك ضده ، بغية إحراجه أو توريطه ، ما وجدت مسحة الحزن والأسى والمرارة التي تصبغ شخصيته ، وتلون أغلب مواعظه وأقواله وأحاديثه ، والنظرة الأسيانة التي ينظر بها إلى الأمور حوله ، ومع ذلك فقد قاوم قوة تلك المؤثرات الوراثية ، وضغط وعنف المؤثرات البيئية ، لتظهر وتتجلى

١- إنجيل متى – الإصحاح الرابع والعشرين

٢- المصدر السابق – الإصحاح السادس والعشرين .

إرادة وتصميم وجلال وعظمـة الشخصـية ، فهـو يتحـدى الحـزن واليـأس والإحباط والقنوط ،ويقاوم الظلم والظلام والاستبداد بكل صوره وأنواعه ، ويدعو إلى الحياة والحب والبهجة والسرور ، وإسـعاد الـروح بكـل مـا في الحيـاة مـن مظـان ونواحي الجمال ، هو شخصية مفعمة بـالجمال ، فـتلمس الجـمال في أفعالـه وتصر ـفاته وأقواله وتعبيراته وحركاته ، وإيماءاته ، وإشارته، كذلك اتسمت شخصـيته بالحيويـة والنشاط ، وسرعة الانجاز والفراغ من المهام التي يكلف نفسـه بهـا ، لـذلك لم يكـن يحدد مكانا أو مكانين يجلس إليهما وينتظر الناس يجيئون إليـه ، وإنـما كـان هـو الـذي يذهب إلى الناس في الوديان والجبال والأسواق والمعابد والأسبلة ، وأي مكان يتجمع فيه الناس ، وكان كثير التنقل سريع الحركة ، وفي عجلة من أمره ، لأنه أدرك أن مـدة بقائه على هذه الأرض قليلة ، لأن دوره محدد ، ومهمته موقوته "لا تظنـوا أني جئـت لأنقض الناموس ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل " ومرسل إلى أمـة معينـة وهـم بنـو إسرائيل ، في مرحلة من مراحل الدعوة ، وحينما اتجه بدعوتـه اتجاهـا عالميـا وإنسـانيا ،شعر أن المهمة في حاجة إلى جهد خارق وإلى وقت مديد ، بينما العراقيـل والمعوقـات توضع أمامه ، وتقام بينه وبين ما يريد تحقيقه ، وكان لابد أن يواجه كل هذا ، لأنه قـد أصبح هدفه تغيير العالم ، وإعادة صياغة الإنسان .

وأهم مـا أودعـت الأم ابنهـا – أو ورثتـه إيـاه - الرحمـة بـالمرأة والضـعفاء واليتامى والمساكين والمحرومين والخطاة والمذنبين ، هذا الإحسـاس والشـعور الـذي يفسر لنا ويوضح ويجلي كثيرا من مواقف وأفعال السيد المسيح ، فالأم لم تنس موقفهـا الحرج والعصيب وقت أن كانت تقف وسط قومها تحمل ابنها ، وهي تـرى ملامحهـم وتكاد تسمع كلمات الاتهام والافتراء موجهة إلى شخصها ، وليس هنـاك مـن مـدافع سوى الله ، لا شك أنها كانت تشعر بمشاعر الانكسار والمذلة والإهانة ، حتى أنها

تمنت الموت ، فليس من الهين تبديد هذا الأثر ، وربما يكون هـذا الشـعور قـد انتقل إلى الابن فيما انتقل من مؤثرات ، لذلك آل المسيح أن يكون نصيرا وعونا للمرأة حتى لو كانت مذنبة أو خاطئة ، لأنه يعلم أن الذنب أو الخطأ قد لحقـا بهـا مـن جـراء ضعفها وذلها وهوانها على الناس .

أثر "يوحنا" :

لن نستطيع أن نفهم شخصية المسيح فهـما صـحيحا ، ولـن تتبـدى مكونـات ومقومات تلك الشخصية العظيمة إلا إذا فهمنا أو عرفنا أو أدركنا أو أحطنا بشخصية "يوحنا" ، لأنهما شخصيتان متكاملتان ، كل منهما يكمل الآخر ، أو إن شـئت فهـما – بصورة من الصور أو بمعنى من المعاني – شخصية واحدة !

شخصية واحدة ذات وجهين ، أو ذات بعدين ، أو همـا شخصـيتان يضـمهما إطار واحد ، أو غاية واحدة ، وهدف واحد ، ومن عجيب الأمر أنهما وجـدا في زمـن واحد وفي مكان واحد ولهدف واحد ، وإن اختلفت وسـيلة وأسـلوب وطريقـة كـل واحد منهما .

وأهمية أثر "يوحنا" ، أنه إذا غاب عن أذهاننا ولم نضعه في اعتبارنا وحسابنا ، تبدت وظهرت شخصية المسيح متناقضة ، وغير سوية ، ففـي بعـض المواقـف يكـون المسيح متسامحا لينا إلى أقصـى حد ، بل متجاوزا ومتعديا كل حدود التسامح واللين ، وفي بعض المواقف يكون حازما حاسما قاطعـا ، ماضـيا إلى هدفـه وغرضـه كالسـهم المنطلق بأقصى قوة وسرعة ، غير ما ناظر إلى ما يترتب على تلك المواقف من نتائج قـد لا يحمد عقباها ، حتى أنك تتعجب مما تراه أمامك ويحار المرء ، أي الشخصيتين هـي الشخصية الحقيقية للمسيح ، وإذا كانت تلك أو تلك ، فلم التذبذب والتـأرجح بـين الاثنين ؟

وفي الحقيقة أن ليس ثمة تناقض أو اختلال في الشخصية ، وليس هناك شخصيتان ، كذلك ليس هناك تذبذب أو تأرجح .

وإنما هناك شخصية سوية ناضجة متكاملة كأتم وأوضح ما يكون التكامل ، فالشخصية الكاملة أو المتكاملة هي التي تملك القدرة ، أو يكون لديها استعداد أن تتخذ جميع المواقف ، وتكون قادرة على أن تتعامل – بكل قدرة وكفاءة – مع جميع المواقف على اختلافها ، فلديها استعداد أن تكون متسامحة لينة رحيمة ، إذا اقتضى الموقف ذلك ، ولديها استعداد أن تكون متعنتة فظة غليظة ، إذا اقتضى الموقف ذلك ، فالشخصية التي لا تملك إلا أن تكون متسامحة لينة رحيمة فقط شخصية بها نقص ، كذلك الشخصية التي لا تملك إلا أن تكون متعنتة فظة غليظة بها عوار ،وقد جلى القرآن هذا الأمر : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح:٢٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة المائدة:٥٤]

ملامح شخصية المسيح :

فهنا الشخصية تملك أمر نفسها ، ولديها مطلق الحرية أن تتنقل بين اتخاذ ما تشاء من مواقف ، وعظمة الشخصية تتبدى وتتجلى في اختيار ما يتناسب والموقف وما تستدعيه الحالة ، وأن تستثمر – في النهاية – ثمرة ونتيجة تلك المواقف ما يحقق صالحها ونفعها ، أو ما يحقق هدفها ويصلها إلى غاياتها ، من أقرب طريق .

وعظمة الشخصية – كذلك – تتبدى وتتجلى في الوصول بالتسامح واللين والرحمة إلى أقصى وأبعد صورها ، فلم نسمع أحدا قبل المسيح يقول أحبوا أعداءكم ، وتغاضوا عن مسئكم، ولم نر أحدا قبل المسيح يتسامح ويعفو – وهو النبي – عن المذنبين والخطاة ، بل ويقف بجانبهم ويدافع عنهم وينتحل لهم الأعذار ، لدرجة أنه وجه له اللوم في ذلك ، لأن مدى تلك السماحة لم يألفوها ، ولم يروا مثيلا لها من قبل ، لذلك أنكروها ، وأنكروا على المسيح أن تصدر منه .

والصفات الطيبة الحميدة التي يتصف بها الإنسان لها نطاق محدد لا يستطيع الإنسان أن يتجاوزه ، فقدرتنا محدودة في هذا الأمر ، فمثلا صفة الكرم، فمجرد أن يعطي الإنسان الآخرين من ذات اليد – ولو قليل- فهذا في حد ذاته نوع من الكرم ، وقد تتسع قدرة الإنسان على الارتقاء في هذا الأمر إلى أن يؤثر الآخرين عن نفسه ، من ذات اليد ومن ذات النفس ، ويرتقي أكثر وأكثر إلى أن يكون الكرم صفة ثابتة ومستقرة في طبعه ، ويرتقي أكثر وأكثر إلى أن تصير تلك الصفة أو الطبع لا سيطرة ولا تحكم فيه ، بل هو المسيطر والمتحكم فيه ، فهو – الإنسان – لا يملك إلا أن يكون كريما ، بل كل سعادته وسروره وبهجته وهو يمارس تلك الناحية من طبعه ،هنا يتحول الإنسان إلى قيمة في حد ذاتها ، فلا نقول عليه أنه كريم ، ولكن نقول عليه (كرم) ، أصبح مقياسا أو معيارا على نسبة اتصاف الناس بتلك الصفة ، فهو القمة أو المنتهى الذي وصلت إليه تلك الصفة . وقليل من الناس من يصل إلى تلك المرحلة ، أو تتحقق فيه تلك الصفة، أو يحقق تلك القيمة ، وقد لا يستطيع الوصول إلى هذا الأمر إلا الأنبياء والرسل، لأنهم – حقيقة – يقدرون على ما لا يقدر عليه غالبية الناس ، وهم يرون في أنفسهم – وهم محقون في ذلك – القدرة والمقدرة على الوصول إلى ذلك، بما وهبهم الله به من ميزات من ناحية ، ومن ناحية أخرى دائما

الأنبياء طامحون إلى أن يكونوا قيمة ، بمعنى أنهم لا يرتضون أن يحققـوا نسـبا ما من الصفات الطيبة ، فالنبي لا يرتضي أن يتصف بالتواضع مثلا ، لأن أي إنسان في مقدرته أن يتصف بتلك الصفة ، وهو ليس إنسان عاديا ، ولكنه يحقق الصفة في أقصى معانيها ، بل متجاوزا لحدودها ، وبذلك يتحول إلى قيمة ، إلى أن يكون التواضع نفسه

التسامح عند المسيح:

وينطبق ما ذكرناه على المسيح في جميع صفاته التي يتصف بهـا ، لاسـيما صـفة التسامح ، فتلك الصفة بلغت ذروتها لديه ، ليس هذا فحسب بل تعددت تلك الذروة بمراحل ،إلى الدرجة التي منحها المسيح مفهوما أشمل وأعمق ، فنحن نفهم التسامح أنه عبارة عن الصفح والعفو والغفران عمن أساء إلينا ، هذا إذا أساء عن غير قصـد ، ويكون التسامح أنبل وأشرف إذا كان عن قصد ، ويكون التسامح أكثر نبلا وشرفا إذا تكررت الإساءة ، ومع ذلك يتكرر التسامح، " وإن أخطأ إليك أخـوك فوبخـه ، وإن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ورجع سبع مرات في اليوم قـائلا أنا تائب فاغفر له " [1] والمسيح لا يقصد العدد خاصة ، ولكنه دلالة على الكثرة ، لأنـه في موضع آخر قال سامح أخاك إلى سبعين مرة " حينئذ تقدم إليه بطرس وقال يـا رب كم مرة يخطئ إلى أخي وأنا أغفر له ، هل إلى سبع مرات ، قال له يسـوع لا أقـول لـك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات "[2]

هنا التسامح ليس لديه حد يقف عنده ، وإنما هو يأتي على قدر الخطأ ليحتويه ، فإذا كان الخطأ عظيما وكبيرا ، يأتي – أيضا – التسامح عظيما وكبيرا ، وإذا تكرر الخطـأ والإساءة أكثر من مرة ، فيتكرر التسامح أكثر على قدر تكرار الخطأ ، هنـاك رصـيد لا ينفد من التسامح .

١- إنجيل لوقا – الإصحاح السابع عشر.
٢- إنجيل متى – الإصحاح الثامن عشر .

ومع ذلك فإن المسيح ينقل التسامح نقلة أخرى ، فهو لا يطالب أن تصفح وتعفو وتغفر ، عمن أخطأ وأساء ، ولكن يطالب منك أن تقف موقف المحب ليس لمن أخطأ في حقك أو أساء إليك ، بل أن تحب عدوك ! لكني أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضا،ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا ، وكل من سألك فأعطه ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه ،وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا ، وإن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم ، فإن الخطاة أيضا يحبون الذين يحبونهم ، وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم ،فإن الخطاة أيضا يفعلون هكذا ،وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل " [1]فنحن نفهم دعوة إنسان لنا أن نحاول – وإن كان هذا شيئا ليس باليسير – أن نزيل الكراهية والبغض من قلوبنا لإعدائنا ، ولكننا نقف مندهشين إذا دعانا داع أن نزيل تلك الكراهية ، ليس هذا فحسب ، بل نضع مكانها الحب . فإذا أحببنا أعداءنا ، فماذا يكون شعورنا نحو أصدقائنا أو أحبابنا ؟

هنا يتضح مفهوم التسامح عند المسيح ، فهو يزيل الفوارق بين المتناقضات ، ويمحو الفواصل والاعتبارات التي تفرق وتميز بين الناس ، فالجميع لديه سواء ، فالمرأة الخاطئة لديه ، لا تثير غضبه ونقمته ، ولا تستفز نفوره واشمئزازه ، فهي ومن لم تخطأ سواء ، بل المرأة الخاطئة أولى برعايته واهتمامه ، وإذا حركت لديه شعورا ما ، فهو شعور بالشفقة

١- إنجيل لوقا – الإصحاح السادس .

والرأفة ، فهو ينظر إليها من ناحيتين :

- إن هذا الخطأ أو الذنب الذي ارتكبته – أيـا كـان – لم يخرجهـا عـن كونهـا إنسانا ، ويدرجها في مصاف آخر ، فهي إنسانة قبل أن تخطأ ، وهي – كذلك – إنسـانة بعد أن أخطأت وأذنبت ، على هذا فـلا يجـب أن تتغـير نظـرتي إليهـا بـأي حـال مـن الأحوال .

- أن الذنوب والأخطاء ، عبارة عن أمراض ، والمخطئ والمذنب مريض ، في حاجة إلى كل رعاية واهتمام ، ورحمة وشفقة ، وصبر ، ويد حانية تعالج وتطبب مرضه ، حتى يشفى ويبرأ من مرضه .

المسافات التي تفصل بين من أذنب ومن لم يذنب لا وجود لهـا ، تسـامحه أزال الفرق بين الاثنين ، أو قل محي وعصف بكل المواقف التي يتخذها ويقفها النـاس إزاء من أخطأوا وأذنبوا . " وبينما هو متكـئ في البيـت إذا عشـارون وخطـاة كثـيرون قـد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه ، فلما نظر الفريسيون قـالوا لتلاميـذه : لمـاذا يأكـل معلمكم مع العشارين والخطاة ، فلما سمع يسوع قـال لهـم : لا يحتـاج الأصـحاء إلى طبيب بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ما هو إني أريد رحمة لا ذبيحة ، لأني لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة "[1]

وأكثر المخلوقات انكسارا ومذلة في هذا المجتمـع هـي المـرأة ، وإذا أخطـأت فهي في نظرهم ملعونة ، والجميع يجتنبونها كما يجتنب الكلب الأجرب ، إلا أن المسـيح كان له موقف آخر يتسق مع شخصيته التي فطرت على التسامح ، وصيغت من العفو والمرحمة " وسأله واحد من الفريسين أن يأكل معه ، فدخل بيت الفريسي واتكأ ، وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متكـئ في بيـت الفريسي جـاءت بقـارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما

١- إنجيل متى – الإصحاح التاسع.

بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب ، فلما رأى الفريسي ـ الـذي دعـاه ذلك تكلم في نفسه قائلا لو كان هذا نبيا لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما هـي أنهـا خاطئة ، فأجاب يسوع وقال له يا سمعان عندي شيء أقوله لك ، فقال قل يـا معلـم ، كان لمداين مديونان على الواحد خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون ، وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعا ، فقل أيهما يكون أكثر حبا له ، فأجاب سمعان وقال أظن الـذي سامحه الأكثر ، فقال بالصواب حكمت ، ثم التفت إلى المـرأة وقـال لسـمعان ، أتنظـر هذه المرأة ، إني دخلت بيتك وماء لأجل رجلي لم تعط ، وأما هي فقـد غسـلت رجـلي بالدموع ومسحتها بشعر رأسها ، قبلة لم تقبلني ، وأما هي فمنذ دخلت لم تكـف عـن تقبيل رجلي ، بزيت لم تدهن رأسي وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلي ، من أجل ذلك أقول لك لقد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيرا ، والذي يغفر له قليـل يحـب قليلا ، ثم قال لها مغفورة لك خطاياك ، فابتدأ المتكئون معه يقولـون في أنفسـهم مـن هذا الذي يغفر خطايا أيضا ، فقال للمرأة إيمانك قد خلصك ، اذهبي بسلام "[١]

لا شك أن المرأة أحست أنها قد ولـدت مـن جديـد ، فقـد جـاءت بمحـض اختيارها إلى المسيح نادمة باكية ، وفعلت ما يدل على عظيم حبها وتقـديرها وإجلالهـا للمسيح ، وحبها هذا يدل على أن نفسها لم تدنس بعد ، وأنها تتمنى أن تنسلخ من عالم الخطيئة والرذيلة ، وإلا لما بحثت عن السيد المسيح ، وذهبت إليـه، في حاجـة إلى مـن يفتح لها أبواب الصفح والغفران ، في حاجة إلى من يعيد إليها شعورها بآدميتها، ويرد لها كرامتها وإنسانيتها التي سـلبها المجتمـع الظـالم منهـا ، وحرمهـا مـن أن تعـود إلى الصواب والرشاد . وقد ظن من حوله – وهو النبي – أنه سيتخذ موقفا ما مـن تلـك المرأة الخاطئة ، ولكن شخصية المسيح المتسامحة تمنعه أن يتخذ موقف القاضي ،

١ـ إنجيل لوقا – الإصحاح السابع .

ويصدر أحكاما على الناس " وقال له واحد من الجمع قل لأخي أن يقاسمني الميراث ، فقال له : يا إنسان من أقامني عليكما قاضيا أو مقسما " [1]

المال في نظر المسيح :

فتسامح المسيح دفعه أن يزيل كل ما من شأنه أن يفرق بين الناس أو يميز بينهم ، وأكثر ما يفرق بل يوقع العداوة والبغضاء بين الناس المال ، فهو لا يحب المال ، ولا يحب الأغنياء ، وقد سأله رجل النصيحة ، وكان غنيا فقال له " يعوزك شيء واحد ، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملا الصليب ، فاغتم على القول ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله ، فتحير التلاميذ من كلامه ، فأجاب يسوع أيضا وقال لهم يا بني ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله ، مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله ، فبهتوا إلى الغاية قائلين بعضهم لبعض فمن يستطيع أن يخلص ، فنظر إليهم يسوع وقال ، عند الناس غير مستطاع ، ولكن ليس عند الله ،لأن كل شيء مستطاع عند الله " [2]

وبدلا من أن يشغل الإنسان باله وفكره بعمل المشروعات التي تدر عليه الكثير من المال ، ويكنز من الكنوز الكثير ، فليشغل باله أن يكنز كنوزا من الأعمال الصالحة ، والتي لا يجرى عليها ما يجرى على المال من تلف وسرقة وضياع " لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ

١- المصدر السابق – الإصحاح الثاني عشر .
٢- إنجيل مرقس– الإصحاح العاشر.

وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا ، سراج الجسد هو العين ، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله منيرا ، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلما ، فإن كان النور الذي فيك ظلاما فالظلام كم يكون " [1]

وأيضا التسامح في الطبع وفي الفكر والعواطف وفي القول ، أزال الفارق بينه وبين تلاميذه ، بين ما هو بشري وبين ما هو نبوي ، فهو لا يرى فارقا كبيرا بينه كنبي ، وبين غيره ، وجعل الكثيرين لا يفهمونه وهو يعبر عن تلك العلاقة الحميمة بين الإلهي والبشري ، أو بين الغايات البعيدة التي يتمنى أن يصل إليها البشر ، وبين واقعهم الذي يعيشونه ، يريد من الجنس البشري أن يكون وحدة واحدة ، لا شيء يفرق بينهم ، كذلك يريد من هذا الجنس أن يكون شديد القرب من الله ، أن يتصل بالله اتصالا وثيقا ، لأن إذا قويت العلاقة بين البشر وبعضهم ، وكذلك بين البشر وخالقهم ، فقد حل البشر والسعادة والسرور في قلوب وضمائر البشر قبل أن تحل على الأرض .

الشدة عند المسيح :

بمقدار لين المسيح وتسامحه ، كانت شدة المسيح وتمسكه ، وأكثر ما كان المسيح متشددا كان على نفسه ، فقد ألزم نفسه منذ بداية الرسالة بل قبل ذلك ، بأسلوب وطريقة لا نقول عنها أنها قاسية أو جافة وغليظة في الحياة ، ولكنه لم يعش حياته كإنسان أو بشر ، حتى العلاقات الإنسانية بأقرب الناس إليه وظفها لتخدم هدفه الأعلى والأسمى " وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلموه ، فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن

١- أنجيل متى – الإصحاح السادس .

يكلموك ، فأجاب وقال للقائل من هي أمي ومن هم إخوتي ، ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخـي وأختي وأمي "[1]

ولقد نذر كل لحظة من لحظات وجوده في سـبيل السـعي لتحقيـق هدفـه ، لم يكن يأكل أو يشـرب ، ينام أو يصحو ، إلا ليحقق هذا الهدف ، وكان على استعداد أن يضحي بكل شيء ، بل هو ضحى فعلا ، من أجل هذا الهدف ، وماذا يملك الإنسـان غير أن يقدم ويهب نفسه ووجوده في سبيل الهدف الذي يراه يعلو على كـل شيء ، وفي هذا السياق قال المسيح قولته والتي تعثر في فهمهـا الكثـيرون حتـى تلاميـذه " الحـق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكـم حيـاة فـيكم ، مـن يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليـوم الأخـير ، لأن جسـدي مأكل حق ودمي مشرب حق ، من يأكل جسدي يثبت في وأنا فيه "[2]

ولأنه كان شديدا على نفسه ، كان أيضا شديدا على هؤلاء المنـافقين والمـرائين والمدلسين ،وشدته تعددت كل الحدود وتجاوزت كل الموانع ، لاسيما مع رجال الدين والكهنة ، الذين كانوا يبجلون ويخشون ويهابون من جميع الناس، فهو لم يرع لهم تلـك المكانة والمنزلة والهالة شبه المقدسة عند عامـة النـاس ، وإنـما هـاجمهم بـل وفضـحهم وشهر بهم على الملأ ، وكشف عن مساوئهم ومخازيهم، وأنزلهم من تلك المكانة العليـا التي كانوا يتربعون عليها ولم يهتم ولم يخش تهديدهم وسعيهم للإيقاع بـه ، وانحصرـ جل جهد المسيح في التفرقة بين المظهر والجوهر .

١- إنجيل متى – الإصحاح الثاني عشر .
٢إنجيل يوحنا – الإصحاح السادس .

المظهر والجوهر:

للدين جانبان : مظهر وجوهر .

ولا بأس أن يتواجد الاثنان معا ، وهذا الشيء الطبيعي ، أن يكونا متلازمين ، بل الأفضل أن يكونا شيئا واحدا ، أن يكون جوهر الشيء هو مظهره، ومظهر الشيء هو جوهره ، ولكن هذا شيء صعب وعسير التحقيق إلى حد ما ، فالإنسان مطالب أن يتعامل مع الناس على مختلف طباعهم ومشاربهم ، وقد يرى أنه من الأصلح ألا يطلعوا على جوهره ، إلى حين ، أو لأن الظرف والحال لا يستدعي مكاشفتهم بجوهره ، وفي بعض الأحيان لا يكون الإنسان حريصا على إظهار ومكاشفة الناس بما يبطنه ، لأن لا رقيب ولا مطلع عليه سوى الله ، ولا محاسب ولا مجازي عليه سوى الله ، فهي مساحة أو منطقة خاصة بين الله والإنسان ، وهو ما اصطلحنا عليه بتسميته (الضمير) .

إذن هناك جوهر وهناك مظهر.

ولا ضرر أن يكونا شيئا واحدا.

وكذلك لا ضرر أن يكون هناك جوهر بلا مظهر.

ولكن الضرر كل الضرر أن يكون هناك مظهر للدين والجوهر غائب، أو لا وجود له .

هنا يكون الدين عبارة عن شكل خاوٍ خرب لا فائدة ولا جدوى منه.

وحينما يدرك الإنسان ، ويرتضي أن يكون الدين على هذا الشكل ، فإنه يحاول أن يستعيض عن الجوهر بالشكل ، ولأن لا شيء يغني عن الجوهر ، فيلجأ إلى المبالغة في التمسك بالشكل مبالغة تخرجه عن كل عقل ومنطق ليوهم الآخرين أن وراء هذا الشكل جوهرا ، وجوهر عتيد ، وحينما يداوم الإنسان على هذا الفعل مدة طويلة بازلا كل جهده ليقنع الآخرين ، وبدون أن يشعر ينزلق ويكون أول المقتنعين ،

ويتحول الوهم – لديه – إلى حقيقة ، والتدليس إلى واقع، والكذب إلى صدق . هذا المنطق أو تلك الحالة في البداية ينتشر ويسود على استحياء بين الأفراد ، ثم يقوى ويشتد ، ثم يتصاعد بين الجماعات ، وبعد ذلك ينتشر بين الأمم والشعوب ، ويصبح سمة عامة وثابتة ومستقرة ، وميزة تميز هذا العصر ، ولا يقتصر هذا الأمر على جانب واحد من جوانب ذلك العصر ، بل يشمل جميع جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فهي سمة ممتدة ومنتشرة ومتغلغلة إلى الصميم ، وطالما الاهتمام منصبٌ ومركز على المظهر فصنو المظهر هو البذخ ، والبذخ الذي لا يقف عند حد ، لأن البذخ هنا ليس نوعا من الترف أو الرفاهية ،وإنما وظيفة البذخ هنا إدارة الرأس أو تخدير الضمير ، لمنع الإنسان من التفكير في المبرر من وراء هذه المبالغة ، أو الإحساس بالمحرومين ، أو بضحايا هذا البذخ ، وهذا ما كان يسم عصر الميلاد " كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهي من جانب البحث السياسي أو جانب البحث الاقتصادي أو الديني أو الثقافي إلى نتيجة واحدة : وهي أن ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق أن ينتقل بها إلى العصر الذي بعده دون أن يطرأ عليه طارئ ، ولن يكون ذلك الطارئ غير طارئ انقلاب شامل . بلغ فيه من ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه في عصر واحد ، وقد يقال أنهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية، فما كان البذخ إلا ضربا من الرياء الاجتماعي ، لأنه معلق في جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء "[1]

إذن فهناك فساد مطبق ، وأخطر ما يكون الفساد حينما يتطرق إلى النفس الإنسانية ليغير بعض ثوابتها أو يبدل منها ، حينئذ هي في حاجة إلى مجهود جبار ليقضي على هذا الفساد ، ويعيد إلى النفس ثوابتها لكي لا تخلط بين المظهر والجوهر ،

١- عبقرية المسيح- عباس محمود العقاد – (١٢٢)

أو بين الثابت والمتغير ، أو بين الباقي والزائل ، أو بين الصادق والزائف ، ما بين الحقيقة والوهم ، الأمر في حاجة إلى نبي ، لأنك لا تبغي إصلاح جانب من جوانب النفس ، وإنما تبغي إصلاح شامل للنفس ، ثم أنت تخاطب أهم وأخطر فئة من فئات المجتمع ، رجال الدين والكهنة ، والمفروض أنهم حراس القيم والمبادئ ولا نبالغ لو قلنا إنهم منبع القيم ، وكان من أهم أهداف السيد المسيح محاولة الإصلاح من أمرهم وشأنهم ، وإن أبوا – وهذا ما حدث – فيجب كشفهم وفضحهم على الملأ ، لأنهم في تلك الحالة هم أساس الفساد ، وهم الذين يرعونه بل ويحمونه ،ويعملون على بقائه واستدامته ، وهو لم يأت بشريعة جديدة ، لأن ذلك العصر لم يكن في حاجة إلى شريعة جديدة ،وإنما كان في حاجة إلى تصحيح مفهوم الشريعة بصفة خاصة ومفهوم الدين بصفة عامة ، والأهم التمييز بين المظهر والجوهر ، وأن الدين هو علاقة خاصة جدا بين العبد وخالقه ، والإنسان وهو يؤدي أعماله لا يبتغي به سوى وجه الله فقط ، إذا حدث ذلك فإن النية صالحة والضمير يقظ .

" احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات ، فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع وفي الأزقة لكي يمجدوا من الناس ، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم ، وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك ، لكي تكون صدقتك في الخفاء ، فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية .

ومتى صليت فلا تكن كالمرائين ، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس ، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء يجازيك علانية ، وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم، فإنهم يظنون أنه

بكثرة كلامهم يستجاب لهم ، فلا تتشبهوا بهم ، لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه "

" ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس أنهم صائمين ، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم ، وأما أنت متى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك ، لكي لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذي في الخفاء ، فأبوك الذي في الخفاء يجازيك علانية "[1]

وكان المسيح ينتهز كل فرصة وأي فرصة ليشنها حربا شعواء ، لا يبقى فيها ولا يذر ، لاسيما تلك الفئات المنتسبة إلى الدين ، أو الذين يدعون أنهم يمثلون القيم والمبادئ ، أو قل حماة القيم والمبادئ " وفيما هو يتكلم سأله فريسي أن يتغدى عنده ، فدخل واتكأ ، وأما الفريسي فلما رأى ذلك تعجب أنه لم يغتسل أولا قبل الغداء ، فقال له الرب أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة ، وأما باطنكم فمملوء اختطافا وخبثا ، يا أغبياء أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضا ، بل أعطوا ما عندكم صدقة فهو ذا كل شيء يكون نقيا لكم ، ولكن ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تعشرون النعنع والسذاب وكل بقل وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله ، كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك ، ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تحبون المجلس الأول في المجامع والتحيات في الأسواق ، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لا يعلمون .

فأجاب واحد من الناموسيين وقال له يا معلم حين تقول هذا تشتمنا نحن أيضا ، فقال وويل لكم أنتم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة الحمل وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم ، وويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم ، إذا تشهدون وترضون بأعمال آبائكم ، لأنهم هم قتلوهم ، وأنتم

١- إنجيل متى – الإصحاح السادس .

تبنون قبورهم ، لذلك أيضا قالت حكمة الله إني أرسل إليهم أنبياء ورسلا فيقتلون منهم ويطردون ، لكي يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم ن من دم هابيل إلى دم زكريا الذي أهلك بين المذبح والبيت ، نعم أقول لكم إنه يطلب من هذا الجيل ، ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ، ما دخلتم أنتم والداخلون منعتوهم."[1]

إنه كالجراح بيده مبضعه ، وبالعين الخبيرة يرى الأورام التي تكاد أن تفتك بجسد المجتمع ، وتفسد الدين والعقيدة على الناس ، وباليد المدربة ، وبكل حسم يستأصل تلك الأورام والأجزاء المتعفنة الخبيثة ، ليطهر الدين من سموم المنافقين والمرائين والخبثاء ، ويعيد للدين وجه الطاهر النقي السمح ، ويظهر الجوهر الحقيقي ، والمعدن الأصيل للدين ، لقد آل على نفسه أن يشعلها نارا ، يحرق فيها الزيف والتزوير والكذب الذي طالما عاش فيه بنو إسرائيل ، "جئت لألقي نارا على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت ، ولي صبغة أصبغها وكيف انحصر حتى تكتمل ، أتظنون أني جئت لأعطي سلاما على الأرض ، كلا أقول لكم ، بل انقساما ،لأنه من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين واثنان على ثلاثة ، ينقسم الأب على الابن ، والابن على الأب ، والأم على البنت ، والبنت على الأم ، والحماة على كنتها ، والكنة على حماتها "[2]

وموقفه معروف حينما دخل معقل رجال الدين والكهنة ، " ودخل يسوع إلى الهيكل وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وباعة الحمام ، وقال لهم مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص "

١- إنجيل لوقا - الإصحاح العاشر .
٢ -المصدر السابق – الإصحاح الثالث عشر .
إنجيل متى – الإصحاح الحادي والعشرون .

ويتصاعد غضبة ونقمتـه لتشـمل "أورشـليم" ، ويصـمها أنهـا مدينـة قاتلـة الأنبياء " يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين ، إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريـدوا ، هـو ذا بيتكم يترك لكم خرابا لأني أقول لكم إنكم لا ترونني مـن الآن حتـى تقولـوا مبـارك الآتي باسم الرب "[1]

ولنا أن نسأل ، هل الشدة كانت طبع أصيل في شخصية المسيح ، أم أنها شيء طارئ على شخصيته تدفعه الأحداث والحوادث إليها ، أم أنه يلجأ إليهـا لأنـه يراهـا الأسلوب الأمثل لمعالجة ما يراه يحتاج إلى معالجة من أمور ؟

شخصية المسيح شخصية مكتملة ومتكاملة ، فالأحداث لا تدفعه أو تشـكله ، وإنما هو الذي يدفع الأحداث ويتحكم فيها كـما يشـاء ، وكثـير مـن المواقـف التـي تعرض لها ، كانت كفيلة أن تخرجه عن حلمه وحكمته ، ولكنه لم يفعل ، وهو يملـك أن يتحكم في مشاعره وعواطفه ، كذلك ما يتخذه من مواقف ويقـوم بـه مـن أفعـال وتصرفات ، ولكنه كان يجنح إلى الشدة ويستفز ويستنفر – شأن كل الأنبيـاء – حيـنما يجد أن الدين يمس بسوء ، أو أن الحق يلتبس بالباطل ، أو أن المظهـر الزائـف يطغـى على الجوهر الحق ، كذلك حينما يرى اسـتغلالا باسـم الـدين ، ويـرى رجـال الـدين يسلكون مسلك اللصوص والتجار الجشعين والمستغلين لضعاف الناس والمحرومين والمساكين منهم ، ومع ذلك فإن شدته لا تترك هذا الأثر المؤلم في النفس ، لأنه لم يكن يقصد من ورائها الإيذاء ، ولكنه كان يهدف أن يثوب ويرجـع الضـال إلى رشـده ، أو يقف الإنسان أمام نفسه ويحاسبها ليقوم من اعوجاجها ، ويلم شتاتها ، فشـدته نابعـة من حرصه وحبه ورحمته وشفقته ، شدة تهدي ولا تضل ، تجمـع ولا تفـرق ، تجـذب ولا تنفر ، توقظ في النفس مشاعر الاستجابة والتأثر والاقتناع ، ولا تحرك فيها مشاعر

١ـ المصدر السابق – الإصحاح الثالث والعشرون.

الغضب والعناد والنقمة ، والدليل على ذلك أن جميع الذين كان المسيح شديدا معهم ، لم يبادلوه شدة بشدة ، ولم يلغوا في كلامه ومواعظه ونقده لهم بل تجريحهم وفضحه لهم ، وإنما كانوا يستمعون ولا يحركون ساكنا وكأن على رؤوسهم الطير ، حتى ينتهي من كلامه وحديثه ،لأنه يقول الحق ،حتى لو كان مرا ، وجلال وعظمة شخصيته كانت تفرض سطانها على المستمعين فلا تجد مقاطعا له أو مشوشا عليه لأنه " فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهت الجميع من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة "

الباب الثامن
المرأة في حياة المسيح

هل الأوفق والأصدق أن نقول المرأة في حياة المسيح ، أم المسيح في حياة المرأة ؟

الذي نعرفه وعلى يقين منه ، أنه لم يسبق أحد المسيح في أن يقف هذا الموقف النبيل والعظيم من المرأة ، نعم كان المسيح يعطف ويحنو على جنس الإنسان بصفة عامة ، ولكنه كان يعطف ويحنو على المرأة بصفة خاصة ، وكان يقدر مدى ضعفها وهوانها على الناس ، وأنها لا تملك من أمر نفسها شيئا بقدر ما كان الناس يملكون من أمرها ومصيرها ،وأنهم كانوا لا يحسنون التصرف في أمرها ، ويستغلون ضعفها أسوأ استغلال ، لذلك كان مصيرها على مر التاريخ ، في غاية التعاسة والشقاء ، وإذا أردنا أن نختار أكثر المخلوقات التي ظلمت واضطهدت ، وصادفت من المقادير أسوأها ، ومن الحظوظ أنكدها ، فسيقع اختيارنا – ولا شك – على المرأة ،لقد أدرك المسيح بثاقب فكره وبعد نظره وشمولية وعيه وسعة قلبه ورحابة نفسه ، وضع المرأة على مر التاريخ في عصره ، وكانت مكانتها في التوراة لا تحسد عليها بأي حال من الأحوال .

كذلك مكانتها ووضعها في عصر السيد المسيح " وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ،ويعم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان "[1] ومن حسن حظ المسيح أن حباه الله – تعالى – أمًا كمريم – ، – فنستطيع أن

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٢٤)

نستنتج من خلال صفاتها وسماتها ، تلك التنشئة النبيلة والتربية العظيمة ، التي نشأت وربت الأم ابنها عليها ، وإن هذا ترك أجمل وأجل الأثر في شخصيته ، تقديرا وامتنانا وعرفانا للأم بصفة خاصة ، وللمرأة بصفة عامة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [سورة مريم:٣٢]

• نظرة المسيح إلى المرأة:

نظرة المسيح إلى المرأة تجلي جانبا عظيما من جوانب شخصيته ، فهو يرى أن الرجل والمرأة ليس اثنين ، بل هما شيئا واحدا ، كل منهما يكمل الآخر ، وكل منهما في حاجة إلى الآخر ، لأن الله – y – هو الذي خلقهما على تلك الشاكلة ، فليس هناك ميزة تميز الرجل على المرأة ، والمرأة ليست أقل ولا أدنى من الرجل ، فالذي خلقهما هو الله ، واقتضت قدرته ومشيئته أن يكون هناك ذكر وأنثى ، وأن يكون هناك علاقة مقدسة لا انفصام لها ، لا أن تخضع تلك العلاقة لكلمة تقال من الرجل ، وهو المهيمن والمتحكم في أن تدوم تلك العلاقة وتتصل ، أو تنتهي وتنفصل ، وفي رأيه أن علاقة الزواج لا ينبغي أن تفصم إلا لعلة واحدة ، ومن طلق أمرآته دفعها إلى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فإنه زان " وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب ، فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى ، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان ، قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق ، قال لهم إن موسى من أجل قسوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هكذا وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني ، والذي يتزوج بمطلقة يزني "[1] وللأثر الذي تركته الأم في الابن ، لم ينظر المسيح للمرأة تلك النظرة المتدنية

---

١ -أنجيل متى – الإصحاح التاسع عشر .

التي كان يُنظر إليها في ذلك الوقت ، ولكنه نظر إليها نظرة كلها إجلال واحترام وتقدير ، حتى المرأة الخاطئة ، لم تستثر في نفسه –وهو النبي – أي شعور بالكراهية أو الاشمئزاز أو الغضاضة ، وإنما شعور بالعطف والرحمة والتفاهم والتقدير للظروف والأحوال التي دفعتها إلى ذلك ، وهو يعلم أن تلك المرأة تستحق الرثاء أكثر مما تستحق اللعن ، فهي ضحية للظروف والأحوال السيئة في المجتمع ،ولا شك أنها قاومت كثيرا ، وحاولت أن تتمسك بأهداب الفضيلة ، فلا يوجد امرأة وجدت أبواب الكرامة والشرف والعزة مفتحة أمامها ، وتفضل عليها المهانة والضعة والخسة ، وإذا كان هناك من يستحق اللعن فهو المجتمع الذي ألجأ هذا المخلوق الضعيف – بعدما جرده من كل أسلحته وجردة أيضا من كل حقوقه الطبيعية – أن يسلك هذا الطريق .

لقد شمل المسيح المرأة بكل العطف والحدب ، وأدرك أنها في مسيس الحاجة إلى الرعاية والاهتمام ،والأهم الصفح والغفران والتسامح ليقيلها من عثرتها " ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقابا بعد أحقاب وأطبقت عليها الفتنة في العصر خاصة أكاما فوق أكام – فإذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قراره وجدانها ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها درس من دروس الحب القدسي ، ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرفة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة وهي باقية عالية : صورة الغفران ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر شعرها. "[1]

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٢٤)

وقد صدم السيدُ المسيحُ من حوله بموقفه النبيل هذا من المرأة ، كانوا ينتظرون منه موقفا يتناسب ويتوافق ونظرتهم للمرأة ، بل كانوا ينتظرون منه موقفا أكثر حدة وتطرفا ، من هذا المخلوق المهان الممتهن ، كانوا ينتظرون منه أن يصب اللعنات فوق رأسها ويطردها من ملكوت الله ، أليست هي مصدر الفتنة، وسبب كل الشرور والموبقات ، وإن حلت المصائب والكوارث بقوم فهي المسئولة عن ذلك ؟!

لم يفعل المسيح ما كانوا يتوقعونه ، بل كان يتعامل مع المرأة ، لا بما تستحقه أو لا تستحقه ، بل كل هذا النبل والسمو والرقي والطهر والنقاء الذي كانت تشتمل عليه نفس المسيح ، فأضفت شخصية المسيح على المرأة احتراما وإجلالا وحبا وعطفا وحنانا يليق بالمرأة ودورها العظيم في الوجود " والتفت السيد إلى تلميذه وإلى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم أنه نبي ويجهل أنها امرأة خاطئة ، فقال ((أتنظر إلى هذه المرأة ! أني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء ، لكنها غسلتهما بالدموع ومسحتها بشعر رأسها . ولم تمنحني قبلة وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي ، ولم تدهن رأسي بزيت ، وهي قد دهنت رجلي بالطيب .. ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه ..))

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح بابا للرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت للنقمة والعقاب " [1]

❖ درس جليل :

وسبب موقف السيد المسيح من الخطاة والجناة ، هو تعظيمه للقيمة الإنسانية في حد ذاتها ، وقد كان أمامه خياران ، إما أن يضحي بالإنسان ، ويغلق أمامه أبواب الرجاء والغفران ، وبذلك يخسر الإنسان ، وإما أن يتغاضى عن الذنب ، ويصفح عن

١- المصدر السابق (١٢٤-١٢٥)

الخطاة والجناة ، وبذلك يفوز بالإنسان ويحافظ على تلك القيمة العظيمة ، والمسيح كان على استعداد أن يتغاضى عن كل شيء ويضحي بكل شيء ويفرط في كل شيء ، في سبيل أن يخلص بالإنسان سليما معافى مبرأ من أي صراع داخلي يقضي على سلامة وأمنه النفسي ، فهل أنا إذا رفعت سيف العقاب على الرؤوس ، وعصا العقاب على الأجساد ، وصببت اللعنات على المذنبين أكون قد انتصفت للأخلاق ، وحافظت على القيم ، ودافعت عن الخير؟ أم أن فعلى هذا راجع إلى مقدار الشر المتمكن من نفسي ، والعُجب والكِبر والغرور المهيمنين على فكري ، بدليل أن الذي يوقع العقاب على هؤلاء يكون في غاية التشفي والقسوة والغلظة ، وفي نفس الوقت الذي أصدر فيه حكمه بالعقاب ،أو قام بتنفيذ العقاب تخلي أو تخلت عنه الصفات الإنسانية من الرحمة والمغفرة ، لأنك قبل أن تدين فلانا وتحكم عليه لابد أن تضع نفسك موضعه ، وتحل محله ، وتحيط نفسك بنفس الظروف والأحوال التي أحاطت به ، أو تسأل نفسك : هل أنا مبرأ من الخطايا والذنوب ؟ هل أنا معصوم من المعصية ومن فعل الشر حتى أتولى القضاء بين الخلق وأصدر أحكاما تدين هذا وتجرم ذاك ؟

ولكن المأساة الكبرى أن الذي يدين ويعاقب الخطاة والمذنبين هو منخرط في مصاف هؤلاء ، كل ما في الأمر أن عين العدالة غفلت عنه ، أو هو نجح أن يستتر عنها ، أو أن يخدعها ويخادعها ، او احتمى بجاهه ومنصبه وماله أن تصل يد العدالة إليه ، بينما غيره لم يستطع أن يفعل ما فعله ، إذن حقيقة الأمر هنا أن مذنبا يعاقب مذنبا ، ومخطئا يدين خاطئا ، وأن الجميع في قفص الاتهام ، القاضي والمذنب ،بل أن الأكثر إجراما هو القاضي ، وقد أجرم مرتين ، مرة حينما برأ نفسه من كل خطيئة ، ومرة حينما أصدر حكما بالإدانة على إنسان ، لذلك تنصل المسيح في جميع مواقفه أن يكون قاضيا أو حكما " برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : أيها المعلم ! مر أخي

يقاسمني الميراث وظن أنه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : أيها الإنسان ، من أقامني عليكما قاضيا أو حسيبا "[1]

وكأن المسيح يوجه دعوة لهؤلاء ، وهو قبل أن تحاكم غيرك حاكم نفسك ، وقبل أن تدين غيرك دين نفسك ، ولا يوجد إنسان على ظهر الأرض بلا ذنب أو خطيئة ، وهذا المنهج أو تلك الرؤية التي اتخذها المسيح حينما جاءوا له بالمرأة الخاطئة ، وانتظروا أن يصدر عليها حكما بالقتل جزاء على ما اقترفته من ذنب ، كما هو موجود في التوراة ، وكان هذا – بحق – مأزقا وضعوا المسيح فيه ظنا منهم أنه لن يستطيع أن يخرج منه إلا وقد تنكب جادة الصواب ، فهو إن حكم بتبرئة المرأة فهو بذلك يكون قد خالف التوراة ، وهو أن حكم عليها ، يكون قد أقام من نفسه حاكما وحسيبا على الناس وهو ما ليس له بحق ، ولكن المسيح كان أكبر من مكرهم ، ورد سهام الغدر والحقد إلى نحورهم ، والأهم أنه أنقذ المرأة من مخالبهم ، وخلص بها من أنيابهم

" وتعمدوا وهو في الهيكل أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون دروسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم ، هذه امرأة أخذت وهي تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ .. إن الشرك مكشوف على وجه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا .. إن قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وإن قال أطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبي الشَّرَك ، ولو أنه مكشوف معروف .

١- المصدر السابق – (١٢٦)

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهي من القضية إلى حل لا يدعي به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه إليه ، وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائما ورد عليهم رياءهم في وجوههم وكسر الشرك بقدميه من كل طرفيه ، وهو يقول لهم : ((من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر)) .

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعي تنفيذها ولا يجامل رياءهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : أين المشتكون منك ؟ أما دانك أحد ؟ ... فقالت : لا أحد أيها السيد . فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك . فاذهبي ولا تخطئي . "[1]

ما هذا الشموخ في الفكر؟

ما هذا النبل في العاطفة ؟

ما هذا الجلال في التصرف ؟

لا أحد يدينك .

ولا أنا أدينك .

فاذهبي ولا تخطئي .

وماذا يفعل الأنبياء غير أن يفجروا ينابيع الرحمة والصفح والغفران في ضمائر البشر ؟

وماذا يفعل الأنبياء غير أن يجبروا كسر الضعيف ، ويعزوا الذليل ، وينصفوا المظلوم ؟

وهل هناك أولى من المرأة بالرحمة والصفح والغفران ؟

وهل هناك أولى من المرأة بالجبر والإعزاز والإنصاف ؟

١- المصدر السابق– (١٢٧)

ولن تخذل المرأة غريزتها في أن تعرف من الذي يجود عليها بالحب والود الخالص .
ولن تخون المرأة فطرتها في أن تعرف من الذي يسخو عليها بالعطف والحدب الصافي .
واقتربت المرأة قربا حميما من المسيح ، لأنه كان سبيلها الأوحد إلى الرقي والنبل والأريحية ،

" وقد أطبقت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النساء، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كأنهن مأسورات مسحورات ، ومنها من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون أفئدتهم بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء ، ولكن الرجل العظيم الذي يجتذب إليه قلوب النساء لأنه يشبع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة أعظم في نفوسهن أثرا من كل عظيم ، وهو الذي من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط الظنون "[1] وقيل أن زوجة الوالي الروماني (بيلاطس) الذي أمر بالقبض على السيد المسيح ، أرسلت إليه قائلة " إياك وذلك البار ، لأني تألمت اليوم كثيرا في حلم من أجله "

نعم أحبت المرأة المسيح لأنه أنصفها وكرمها وأعزها ، وآثرها بحبه وعطفه ، وقدر طبيعتها ومشاعرها "وفيما كان يسوع في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فسكبته على رأسه وهو متكئ فلما رأى تلاميذه ذلك اغتاظوا قائلين لماذا هذا الإتلاف ، لأنه كان يمكن أن يباع هذا الطيب بكثير ويعطي للفقراء ، فعلم يسوع وقال لهم لماذا تزعجون المرأة فإنها قد عملت بي عملا حسنا ، لأن الفقراء معكم في كل حين وأما أنا فلست معكم في كل حين ،فإنها إذا سكبت هذا الطيب على جسدي إنما فعلت ذلك لأجل تكفيني ، الحق

١- المصدر السابق – (٩٤)

أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم يخبر أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها " [1]

نعم ، إن المنطق يقول : كان أمام المرأة أن تحضر خبزا بهذا المال للفقراء خير من أن تبدد هذا المال في إحضار قارورة طيب وتسكبها على رأس السيد المسيح ، ولكن السيد المسيح كان له رأي يخالف ما يقوله المنطق وما يقوله تلاميذه ، فأولا: المال مال المرأة تفعل به ما تشاء ، وليس لزاما عليها أن تنفقه على الفقراء ، ثانيا : رأت المرأة أن فعلها هذا سيسعدها ويدخل السرور على قلبها أكثر مما لو أنفقت المال على الفقراء ، ثالثا : أن عملها هذا خال من الرياء والنفاق لا تريد به شهادة من أحد أن لها فضل على أحد ، رابعا : إن دافعها إلى ذلك شدة إيمانها وحبها للسيد المسيح ، وأرادت أن تعبر عن هذا الإيمان والحب بما يتفق وطبيعتها ، وأيضا بما يتفق وجلال وعظمة وسمو ورقي السيد المسيح ، فليس من اللائق بعد ذلك أن تصدم المرأة في مشاعرها وعواطفها نحو السيد المسيح ، لاسيما وأن بقاء المسيح بينهم موقوت بزمن محدود ، والفقراء موجودون لمن شاء أن ينفق عليهم ، ثم إن ما قامت به المرأة كان ذا اثر بالغ في المسيح ،أنه أعتبر هذا الطيب لتكفينه ، وليس بكثير عليه أن يضمخ بالطيب في أيامه الأخيرة .

• المرأة تاريخيا

المرأة بالنسبة للأمم والحضارات الإنسانية كالنبض بالنسبة للجسم ، فمن خلال حالة النبض يتسنى لنا الحكم على الجسم وتشخيص حالتيه من الصحة والسلامة أو الاعتلال والعطب ، نعم هناك مؤشرات كثيرة يمكن من خلالها معرفة حالة الجسم ، ولكن النبض هو من أصدق وأوضح وأيسر المؤشرات التي تكشف وتظهر وتبين ما نحن في حاجة إليه لنقرر بعد ذلك ما نشاء من تشخيص وفحص وعلاج .

١- إنجيل متى – الإصحاح السادس والعشرون

كذلك وضع المرأة في المجتمعات والحضارات ، فلكي نتمكن من الحكم على المجتمعات وتحديد درجتها من التخلف أو التقدم ، من العلم أو الجهل ، من المدنية أوالهمجية ، من الرقي أو البدائية ، يستدعي الأمر فحص ودراسة ومقارنة ، وكل هذا في حاجة إلى وقت وجهد ، وربما بعد أن ننفق الكثير من الجهد ونبدد الكثير من الوقت ، قد يكون حكمك في النهاية محل نقاش ومراجعة وأخذ ورد ،وكل هذا لا نقول يقربك من اليقين ، ولكن على الأقل لا يقربك من رأي تطمئن إلى اشتماله على نتيجة حاسمة ورأي قاطع .

وليس الأمر كذلك مع المرأة، فحالما تحدد مكانة ووضع المرأة في ذلك المجتمع تظهر لك أو تستطيع أن تستنتج أو تستخلص مقدار وحظ هذا المجتمع من التطور أو التخلف، فهي – كما قلنا – النبض الكاشف عن حالة المجتمع .

وربما يرجع ذلك إلى الصلة الوثيقة والعلاقة المتينة بين المرأة والتقدم والتمدن ، فحينما يصل المجتمع إلى درجة عالية من الأخذ بأسباب التطور ، لا يرى أن هذا يتم ويكتمل إلا إذا كانت المرأة أيقونة أو عنوانا لتلك الحالة ، بسبب أنها أقدر وأكفأ في تجلية هذا التقدم وتجسيده في صورة سلوك وأفعال وتصرفات ، أو هي الأقدر في استثماره وتوظيفه وترجمته في مناحي الحياة ؛ لأنها مغرمة ومفتونة بالزينة ، فهنا مجالها للإبداع والتفنن والابتكار ، والزينة لا تتوافر أو لا يهتم بها ويعكف عليها إلا بعد الفراغ من الأساسيات والضروريات .

أو حينما تتطور المجتمعات وتقطع شوطا بعيدا في هذا المجال تختفي أو تتضاءل الميزات الجنسية وتتبدد الفروق ، ولا يبقى ثمة معيار في التفرقة بين الرجل والمرأة إلا بالفكر والكفاءة والعلم والثقافة ، ولا يعامل الإنسان إلا كمخلوق راق له كل التكريم ، وينظر إليه أو تختلف درجة التقدير بمقدار ما يقدمه للمجتمع

والآخرين من خدمات أو بمقدار ما يسهم به في رفد مسيرة التطور والتقدم ، هنا يحدث التوازن أو المساواة بين الرجل والمرأة ، بل لا يكـون هنـاك رجـل وامـرأة ، هناك عضوان ، لكل منهما نفس الحقوق والواجبات ، وكل مـنهما يبحـث عـن أوجـه التكامل التي يستطيعان أن يسهما فيها .

ولن يكتب ولن يقدر لأي مجتمع من المجتمعـات أن يتقـدم ويتطـور ، وهـذا الكائن – المرأة – بمنأى أو بمعزل عن أن يكرم أو يحاط بالاهتمام والرعاية التي يتمتع بها الرجل ، إن لم يفوقه في كثير من الأحيـان .وربـما يكـون سـبب الجهـل والتخلـف والجمود المطبق على المجتمع هو ما فرضه وألزمه المجتمع على المرأة من جمـود وجهـل وتخلف ، ولن يستطيع هذا المجتمع الخلاص والانفكاك من تلك الحالة إلا إذا خلص المرأة من الأغلال والقيود التي ترسف فيها .

ولأن الأديـان تمثـل قمـة التطـور وذروة التمـدن وغايـة التقـدم الإنسـاني ، فالإنسان لا يستطيع أن يتواصل ويتوافق معها إلا إذا كان على قدر من الرشد والعقل والفهم والبصيرة والوعي ، وكل تلك العناصر خلاصة أي تقـدم أو تطـور ، لـذلك تجد جميع الأديان قد أحاطت المرأة بأسمى آيات التكريم والإعزاز ، وقد تبالغ في ذلك مبالغة تدعو إلى العجب والاندهاش ، وهي – الأديان – تحاول أن تعيد التـوازن ، أو ترد وتعيد للمرأة مكانتها ومنزلتها التي ربما سلبت منها ، وعلى قـدر اهتمامهـا بـالمرأة على قدر إحساسها بهوان المرأة ، فإذا وجدت دينا من الأديان يهتم اهتماما عظيما بالمرأة فاعلم أن المرأة في ذلك الوقت، كانت مهانـة وضـائعة ، ومغتصـبة الحقـوق ومهـدرة الميزات .

ولقد تبوأت المرأة – على مدى التاريخ الإنساني المتطـاول – مكـانين في غايـة التطرف ، ولم يحدث أن توسطت بينهما ، فهي إما أن تتمتع بكل معاني وآيات التكـريم والتبجيل والاحترام ، وإما هي في الدرك الأدنى من الضعة والدناءة حتى أنها تباع

وتشترى وتكون من السلع البائرة ، ومن المزهـود فيهـا ، حتـى أنهـا تشـكل مصيبة لمـن تمـت لـه بصـلة . ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة النحل:٥٩] ولأمر ما كان ابن مريم نبيا .

وهذا في حد ذاته تعظيم له؛ لأنه نُسب إلى أمه .

وهذا في حد ذاته تعظيم لمريم ؛ لأنها أم نبي .وهذا في حد ذاته تعظيم وإجلال لهما هما الاثنان . ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٥٠] وأن تنهض السيدة " مـريم" برعايـة والاهـتمام بنبـي كعيسـى – عليه السلام – ، وأن تحوذ من الصفات والميزات ما أقره القرآن وأعـترف بـه ، وأن تكـون – تبعا لذلك – مفضلة على نساء العالمين ، فهذا دليل عـلى عظمـة هـذا المخلـوق الـذي يسمى (امرأة) وأنها أهلٌ بأن تحوذ من الخلال والصفات عظيمها وجليلها .

وشيء طبعي أن يكون للمرأة أثر كبير في شخصية عيسى ، فقد أعطت السيدة "مريم"كل ما وُهبت من صفات وخلال لابنها ، وقد أصلًت وعمّقت فيه الإحساس بالضعفاء والمقهورين والمساكين .

الباب التاسع
التوحـــيد

عماد الحياة البشرية واستقامتها وانتظامها في التوحيـد ، لأن هنـاك مسـاحة في هذا الكيان البشري لابـد أن تشـغل ، ورغبـة لابـد أن تـرضى ولهفـة لابـد أن تشـبع للتوحيد ، لأن التوحيد شيء غريزي في جبلة الإنسان ، فهذا الكيان مفطور ومطبـوع على التوحيد ،وهو إن لم يصل إلى حقيقـة التوحيـد ، فلابـد أن تشـغل تلـك المسـاحة وترضى تلك الرغبة ، وتشبع تلك اللهفة بالبديل ، وليس هناك من بديل عن التوحيد سوى الشرك .

وإن كان التوحيد شيء غريزي ومركوز في جبلة الإنسان وفطرته ،- كـما قلنـا - فهذا لا يكون إلا في الفطر السوية ، والطباع القويمـة ، وكثـيرا مـا تخـرج ظـروف وصروف الحياة البشرية من جهل وهوى ومرض قلبي وفساد نفســي الإنسـانَ عـن فطرته السوية وطبعه القويم ، لذلك تواترت رسل وأنبياء الله إلى البشـــرية لتقـودهم وترشدهم وتهديهم إلى التوحيد ، أو بالأصح إلى الفطرة السوية.

وقد عهد الله إلى بني إسرائيل أن يكونوا حملة هذا المشعل المقدس ، واختارهم واصطفاهم ليكونوا حراس وحفظة هذا المشعل ورافعـي ذلـك اللـواء الإلهـي ، وأن يكونوا المركز أو النواة الحية التي تدور حولها أمم وشعوب الأرض، وأن يكونوا نورا وهدى للإنسانية ، في رحلة بحثها عن الخـالق الأعظـم،أو عـلى الأقـل يكونـوا نـذرا ومنبهين وبراهين على ضلال من ضل .

ولكن لأمور كثـيرة لا يحـدها عـد ولا حصـــر ، انغمـس بنـو إسرائيـل فـيما انغمست فيه بقية الأمم والشعوب في الابتعاد عن سبيل التوحيد ، ليس هذا فحسـب ، بل خاضوا فيما خاض فيه الآخرون من شرك ووثنية ." حملت ((العبريـة)) عـبء التوسط بين الوثنيات الأولى وعقائد التوحيد قبل ظهورها إلى مـا قبـل المسـيحية بنـو مائتي سنة ، فلم تستقم على عقيدة الإله الواحد المنـزه عـن اللوثـة الوثنيـة إلا حـوالي القرن الثاني قبل الميلاد .

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة إنسانية عامة تتساوى فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة بضمير الإنسان غير منظور فيه إلى عنصر أو نسب ، وإنما نشأت وعاشت ديانة ((قبلية خاصة)) أو قوم معلومين .ولم ترتفع قط بإدراكها للتنزيه الإلهي إلى الأفق الذي ارتفع إليه آخر الأديان الكتابية وهو الإسلام .

بل كان العبريون الأوائل ينكصون حينا بعد حين إلى شعائر الأوثان والأصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الأرباب لرب إبراهيم فلا يعودون إلى الوحدانية – أو ما يشبه الوحدانية – إلا بعد تقرير الدعوة من جديد .

ولبثوا زمانا يصفون الإله بالصفات التي لصقت به في الوثنية أو في ديانات الحضارات الأولى ، فكان الإله عندهم يغار من الجنس البشري ويشفق من يوم يهتدي فيه إلى شجرة الخلود ويتوعده بالموت إن أكل منها فيقيم الملائكة الأشداء حرسا حولها كما روى عن الأرباب البابليين في حواشي قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى أنهم يتهمون يهوا بالكيد لهم ونصب الفخاخ في البرية للتغرير بهم إلا لأنه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيدا من أرض وادي النيل التي أخرجهم منها "[1]

وإذا كانت بقية الشعوب والأمم معذورة في الابتعاد عن التوحيد – وليس ثمة عذر في الحقيقة – فما عذر بني إسرائيل ، وقد تواترت فيهم الرسل والأنبياء بدون انقطاع ؟

إذن فهم يحملون أوزار ضلالهم ، وأيضا يحملون أوزار من ضل من الأمم الأخرى ؛ لأن هم من ائتمنتهم السماء على رسالة التوحيد .

وقد ترفق الله – تعالى – أيما ترفق بهم ، وكلما ابتعدوا عن سبيله ردهم ردا جميلا يتناسب مع عظيم ما حملوا من أمانة ، ويتوافق مع جليل فضله وكرمه عليهم

١- إبليس – عباس محمود العقاد (٩٦).

ولكن هذا الرفق والحنو لم يجد نفعا مع بني إسرائيل ، بل زادهم تكبرا وصلفا وغرورا ، وأخذوا أو اقتصروا من التكليف على مميزاته ولم يشاءوا أن ينهضوا بأعبائه . فهم شعب الله المختار ، وهم أحباؤه ، وهم أبناؤه ، يعترفون بهذا ويقرونه كل آن وحين ، ولكن لا يؤدون الفروض والأعباء والمهام التي يستوجبها كونهم شعب الله المختار ، أو ما يفرضه المحب على حبيبه ،أي أنهم رأوا في تفضيل الله لهم تشريفا فقط وليس تكليفا ، أو أنهم ارتضوا وقبلوا التشريف ، وتخاذلوا وتقاعسوا عن التكليف .

أو أنهم قلبوا الأمر، فبدلا من أن يوحدوا الله ولا يشركوا به شيئا في عبادتهم وفي حبهم وتفضيلهم عمن سواه ، جعلوا الله – y – هو الذي يفضلهم ويميزهم ويخصهم عمن سواهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة:١٨]

التوحيد بالحب:

لذلك حينما جاء المسيح ، لم يدع إلى عبادة الله ، وإنما دعا إلى محبته ، فالمفروض من العباد أن يحبوا الله ، وليس العكس ، ولابد أن تشتمل العبادة على الحب ، فالعبادة بدون حب ، كأنها واجب مفروض على الإنسان ، قد لا يجني من ورائها في الدنيا أي ثمرة ، ولكن إذا كانت العبادة عمادها الحب ،فالإنسان يكون في قمة السعادة والسرور وهو يؤديها ، وهو ما أكد عليه المسيح ، لم يرد أن تكون العلاقة بين الله والبشر علاقة خالق بمخلوق أو عابد بمعبود فحسب ، بل علاقة محب بمحبوب ، لذلك كانت إجابته عمن سأله عن أهم وصية " يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس : فقال له يسوع : تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه هي

الوصية الأولى والعظمى ، والثانية مثلها ، تحب قريبك كنفسك ، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء "[1]

تحب الرب إلهك .

من كل قلبك .

ومن كل فكرك .

ومن كل نفسك .

هذا هو التوحيد الذي ينشده السيد المسيح ، لا تشرك أحدا في حبك له ، فحبك له ليس مثل حبك لمن سواه ، فإذا كنت تحب أحدا من قلبك ، وإذا كنت تحب آخر من فكرك ، وإذا كنت تحب ثالث من نفسك ، فإن كل الحب من القلب ومن الفكر ومن النفس يجب أن يتجه إلى الله – y –.

أي تحب الله من جميع جوارحك، بكل كيانك ، ولكن هل يملك الإنسان أن يحب بصفة عامة ، ويحب الله بصفة خاصة ؟ بمعنى هل الحب حالة إرادية ؟ بمعنى آخر ، هل إذا أرادها الإنسان أو قصدها قصدا يستطيع أن يصل إليها ؟

نعم ، لأن هذا الأمر يرجع إلى شيئين :

الأول: أن حب الله شيء فطري ، مفطور عليه الإنسان ، فالعلاقة التي تربط بين الخالق وجميع المخلوقات قبل أي شيء هي علاقة حب ، فعلة الخلق العبادة ، وقد شرع الله العبادة لننال ونستحق عفوه وغفرانه ورضوانه ،والله لا ينعم على عباده بتلك الأمور إلا إذا أحبهم ، وإذا أحبهم فهو يطلب منا أن نحبه ، وإرادة الله متمثلة ومنفذة ومتحققة في خلقة ، إذن فحبنا لله شيء فطري ، شيء غريزي ، ولكننا في حاجة أن نزيل تلك الحجب والغشاوات عن هذا الحب، ونشعر بوجوده ونتحسسه ، ونتصرف

١- إنجيل متى – الإصحاح الثاني والعشرون.

وفق ما تمليه علينا فطرنا النقية الطاهرة ، ونترك لها الفرصة أن تشكل حياتنا وتصوغ وجودنا وفق مراد الله .

الثاني : إذا علم الإنسان ، أن ذات الله – **y** – ذات مقدسة منزهة عن كل نقص ، وأنها تتصف بجميع صفات الكمال من جمال وجلال ورحمة ورأفة وحنان ، وأنه قيوم على جميع خلقه يكل أهم ويراعهم في نومهم ويقظتهم في صحتهم ومرضهم ، وإن هذا الكون عماده العدل وأساسه الفضل ، إذا علم الإنسان أن ذات الله تتصف بتلك الصفات – وغيرها – فلابد أن يحبه ، لأنه أهل للحب ، وإن لم يشعر بالحب يملأ جميع جوانحه ،ويعمر جميع أفئدته ، فقلبه كالحجارة أو أشد قسوة .

لقد أدرك السيد المسيح هذين الأمرين بوضوح وجلاء ، فعمل طوال حياته القصيرة على تأصيلهما ، فمن ناحية أكد على القيمة العظيمة للإنسان ، وأعلى من تلك القيمة ، لأن من كرمه الله ، لابد وأن يكرمه البشر ، والعلاقة الطيبة بين البشر مقدمة – في رأيه – عن تأدية الفروض أو الطقوس الدينية " فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك ، وحينئذ تعال وقدم قربانك " [١]

فإذا كان تقديمك القربان دليل حبك لله ،فإن هذا الحب لا يستقيم ولا يصح إلا إذا أحببت أخيك ، وإذا أحببت أخيك فهذا برهان على حبك لله ، لأن القلب الذي عرف الطريق إلى حب الله ، اتسع قلبه ليس لحب البشر وكل الكائنات فحسب ، بل أصبح قلبه نبعا للحب ، لأنه اتصل بالحب الأكبر ، حبه لله . ومن ناحية أخرى نبه السيد المسيح على أن هناك عالما آخر ، ملكوت مغايرا لهذا الملكوت الأرضي ، هناك ملكوت الله ، فيه ينعم البشر بكل ما حرموا منه في الحياة الدنيا ، في هذا الملكوت تتجلى عليهم صفات الله كما لم تتجل من قبل .

١- إنجيل متى – الإصحاح الخامس

وينبغي على الإنسان أن يكون على بينة وبصيرة من أمره في حياته ، أكل ما يفعله في جميع ظروفه وأحوله يقصد به وجه الله ورضاه ، ويعلم تمام العلم أن الله مطلع عليه ؟

أم أنه يبغي مصلحته وفائدته المادية فقط بغض النظر عن رضا الله أو عدم رضاه ، فليس في ضمن أولوياته أو حساباته ؟

أم أنه مشتت ومذبذب بين الاثنين ، عين على الله ، وعين على الدنيا ، جزء من فكره واهتماماته مع الله ، وجزء آخر على الدنيا ؟

يوضح السيد المسيح أن القلب لا يسع إلا أمرا واحدا ، فإذا اخترت أن يكون شاغلك هو الله ، فلا تشرك بالله شيئا أخر في شغلك واهتمامك ، لأن الله لا يرضى بأنصاف القلوب ، ولا أنصاف العقول ولا أنصاف النفوس ، إما أن تكون بكل كيانك مع الله ، وإن لم تستطع فأنت بعيد عن الله " لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يحترم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ، انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها ، ألستم أنتم بالحري أفضل منها ، ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدا ولماذا تهتمون باللباس ، تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم إنه لا وسليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها ، فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا أفليس بالحري جدا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان ، فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ، فإن هذه كلها تطلبها الأمم ، لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه

كلها ، لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم ، فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره "[1]

بداية يوضح المسيح قضية هامة ،وهي قضية في غاية البساطة والجميع يدركها ، وهو إن الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين ويقسط بينهما في الحب والاهتمام والرعاية ، فلابد أن يفضل أحدهما عن الآخر ،فطالما هناك أمران ، فلابد أن يكون تفضيل بينهما ، ثم يقرر إن الإنسان لا يقدر أن يجمع في قلبه حب الله وحب المال ، فإذا شغل قلبك وتعلق بحب الله ، فليس هناك مكان في القلب لأي شيء آخر ، وإذا شغل القلب بالمال ، فسوف يبتعد ابتعادا كبيرا عن الله ، ولا يقصد المسيح هنا أن نعرض عن الدنيا إعراضا كاملا ، ولكن يقصد ألا تجعل الدنيا غاية همك ، وأن تستحوذ على كل تفكيرك واهتماماك ، وهو يعلم أن من الصعب على الإنسان ألا يفكر في المال وفي الدنيا ، ولكن هناك فرق أن كل تفكيرك في المال ، وأن تعطي حيزا ما من تفكيرك للمال ، هناك فرق أن تكون عبدا للمال ، وأن يكون المال عبدا وخادما لك ، والمسيح يسوق الدلائل والشواهد ليقنع بها الآخرين ، فإذا كانت الحياة أفضل من الطعام ، فلم ننفق ونبدد كل حياتنا في الحصول على الطعام ؟ فالحياة أثمن وأغلى ما نملكه ، فلم ننفق أثمن ما نملكه بأتفه ما لا نملكه ؟

وتلك الطيور المحلقة في عنان السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن ، ومع ذلك يرزقها الله من حيث لا تحتسب ، ولا شك أنها لا تشغل بالها لا في الصباح ولا في المساء بطعامها ولا بلباسها ولا بأي شيء من شأنه أن يعكر ويكدر صفائها ..

١ـ المصدر السابق.

فإذا كان أمر الطعام واللباس وبقية أمور الحياة كافلها وضامنها الله لمخلوقات دون الإنسان في المكانة ، فما بالـك أنـت أيهـا الإنسـان تشـغل أمـرك بـالرزق ولـيس بالرزاق؟! ، تشغل أمرك بالأمور الدنيوية ولا تشغل أمـرك بمـدبر الأمـور؟! تشـغل أمرك بالخلائق وليس بالخلاق العظيم ؟

المسيح يهدف في المقام الأول إلى توحيد الله بالحب ، لا تشرك في حب الله حب شيء آخر ، ومن امتلأ قلبه بحب الله ، أغناه الله وكفاه عن العالمين .

الباب العاشر

هل كان بنو إسرائيل في حاجة إلى نبي ؟

لم يكونوا في حاجة إلى نبي ، ومن ناحية أخرى كانوا في حاجة ماسة إلى نبي !

أما كونهم لم يكونوا في حاجة إلى نبي ، فلأن معهم التوراة التي أنزلت على موسى –عليه السلام– وأيضا لديهم ميراث زاخر من أنبياء الله تعاقبت وتواترت عندهم من لدن إبراهيم –عليه السلام– إلى موسى وما بعده ،" تضم الحركة النبوية الإسرائيلية سبعة عشر نبيا ، منهم أربعة أكابرهم ((أشعياء ، وأرمياء ، وحزقيال، ودانيال))وقد قيل لهم ذلك لأنهم ذو أسفار أكبر من أسفار غيرهم ، وقد وزعت نبوتهم على أربعة قرون بعثوا خلالها في أعقاب بعض (٨٣٠– ٤٣٥ ق.م)وأولهم (يونس ويوئيل) (٨٣٠ ق .م)وآخرهم (ملاخي)(٤٣٥) ثم جاء بعده (يوحنا المعمدان) الذي ظهر على إثره المسيح عليه السلام "[1] وقوم هذا شأنهم لديهم كل ما يحتاجونه أو تحتاجه أي جماعة من الناس من سبل الهداية والرشاد ، ويكفي أن يفتحوا التوراة ليجدوا فيها كل ما يحتاجونه ، وقد نعى عليهم القرآن – في أكثر من موضع– إهمالهم وإغفالهم لأمر التوراة ، مع أن فيها الهدى والنور : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة المائدة:٤٥]

---

١ -الظاهرة القرآنية – مالك بن نبي – ترجمة د. عبد الصبور شاهين –هامش صفحة (١٣٣) – المترجم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة المائدة:٦٨]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة المائدة:٦٦]

أما كونهم في حاجة إلى نبي فلأنهم أبطلوا وحرفوا وزيفوا كل ما في التوراة، وابتعدوا وضلوا عن جوهر الدين الصحيح الحق ،أصبح الدين عندهم حرفة ، وسبيل من سبل السيطرة والهيمنة على عامة الناس ، وطريق للحصول على المكاسب والمناصب ، لم يعد الدين بهذا الصفاء والطهر والنقاء ، لم يعد هذا الدافع أو الحافز للبشر أن يتعاطفوا ويتراحموا ويتحابوا فيما بينهم ، لم يعد رمزا أو تجسيدا لتلك العلاقة الراقية السامية النبيلة والحميمة بين الخالق والمخلوق ، أدخلوا في الدين ما ليس منه ، وابتعدوا أو ضلوا عن جوهر الدين الحق ، إذن هم في حاجة إلى نبي يعيدهم إلى صوابهم ، يهديهم إلى رشدهم ، يخلصهم من تلك الأوهام والأضاليل التي رانت على قلوبهم وتراكمت على عقولهم قرونا متطاولة ، وهم أدركوا هذا – أنهم في حاجة إلى مخلص – من خلال الوضع المذري والمتدني الذي وصلوا إليه بين الأمم والشعوب ، وأدركوا – كذلك – أنهم في مأزق وأزمة ومحنة ، ولكن للأسف لم ينظروا أمامهم ولا حولهم يتلمسون مخرجا وحلا وخلاصا ، ولكنهم نظروا وراءهم ، إلى تلك النقطة المضيئة والمشرقة في تاريخهم ، التي جمعت ما بين المجد الديني والعزة الدنيوية .

مملكة سليمان :

تعد فترة حكم النبي "داود" ومن بعده "سليمان" من أزهى فترات تاريخ اليهود ، فقد أرضى " سليمان" كل غرور وطموح ورغبات الشخصية اليهودية ، فمن نتائج سياسته حدث ازدهار غير مسبوق ، وتعددت وتنوعت العلاقات الودية

والحميمة بين اليهود وجيرانهم على مختلف وتعدد جنسياتهم " ويبدو من أخبار سليمان أنه لم يكن رجل دين بقدر ما كان رجل حكم وسياسة ، وإن لم تكن له نزعة أبيه الحربية فعاش في سلام مع جيرانه فعاهدهم وعاهدوه ، وقوى هذا الرباط السياسي بالمصاهرة فتزوج من ابنة فرعون مصر كما تزوج بغيرها من كل بيت عقد معه ميثاق ود وصداقة وكان محبا للنساء ((فكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري)) مع ابنة فرعون ما بين ((مؤابيات وعمونيات وأدوميا توصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم)) .

ونمت تجارة سليمان في البر والبحر فسارت القوافل آمنة ما بين مصر ـ وبابل ومخرت سفائنه البحر في كل صوب ، ومن ميناء عصيون جابر على خليج العقبة أبحرت إلى أوفير وعادت محملة بالذهب والعطور " [1]وقد قام "سليمان" بترجمة كل هذا الازدهار والنمو دينيا ، وقام ببناء أول هيكل ، والذي يعد فخرا واعتزازا لليهود على مر العصور " وبني هيكل أورشليم بيتا للرب ((طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا حسب عرض البيت وعرضه عشرة أذرع قدام البيت)) " [2]

وإذا كان هذا الازدهار والرقي الذي شهده اليهود مرتبطا بسليمان وأسلوبه وسياسته ،فإنه قد زال بزواله ، وبدأ التفرق والنزاع والتصدع يدق أبواب المملكة ، وكان أن انقسمت المملكة إلى مملكتين ، مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهودا في الجنوب .

وفرضت الضرورات الجغرافية أمرها وحكمها لتصنع حاجزا أو فرقة أو نزاعا بين الشمال والجنوب من ناحية عدد السكان ، وخصوبة الأرض ، والموقع

١- أرض الميعاد .د حسين فوزي النجار – صفحة (١٦٤)
٢- المصدر السابق (١٦٤)

الممتاز و درجة الثراء والغنى " وكانت مملكة إسرائيل أعز نفرا من مملكة يهودا وأكثر ثراء فقد جاوزت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة يهودا ، وانضـم إليهـا عشرـة أسباط فسميت مملكة الأسباط العشر بينما بقى في مملكة يهودا سبطان هما سـبط يهـوذا وسبط بنيامين ، وكانت أرض الشمال أشد خصوبة من أرض الجنوب ، ومـدنها أكثـر بهاءات ساعا من مدن الجنوب ، وكانت على طريق الرواحل والتجـارة وهـي ميـزة لم تكن لمملكة يهودا ، إذ كان ثمة سلام بين مصر ودول مـا بـين النهـرين ، فـإذا لم يكـن سلام فإن مصيرها معلق بمصير الحرب بين القوتين المتنافسـتين في الهـلال الخصـيب ولأيهما تنحاز ولعل ذلك مما عجل بزوالهـا قبـل أن تـزول مملكـة يهـودا بحـوالي قـرن ونصف قرن "[1]

١ـ المصدر السابق (١٦٦)

المُخلص :

انتظار المخلص أو المنقذ كان هاجسا ملحا منذ بدء الخليقة عند الأمم والشعوب والجماعات ، ومازال حتى الآن ، وحينما تتعرض جماعة لمأزق أو أزمة أو محنة تتطلع إلى من يخرجها وينقذها ويخلصها من هذا المأزق ، وهي تفعل ذلك حينما تعجز عجزا كاملا عن الخروج مما تعرضت له ، أو تشعر أن المحنة أو الأزمة التي تعترضها أقوى من أي شخص موجود بين ظهرانيها ، حينئذ يتعلق قلبها وعقلها بمن يأتي ويكون قادرا على المواجهة ، ليخرج الأمة مما هي فيه من مأزق أو أزمة أو محنة . ولكن هنا شيء عجيب وغريب ، الجماعة أو الأمة تعجز عن المواجهة والحل وتقر بذلك وتعلن عن ذلك ، بينما تضع الحل وإخراجها مما هي فيه في يد فرد من أفرادها ، أيقدر فرد على فعل ما عجزت جماعة أو شعب أو أمة عن فعله ؟!

نعم .

لأن هذا الفرد لا يشبه أي فرد من أفرادها ، لديه من السمات والمميزات والخصائص ما يجعله مختلفا ومتميزا عن كل وأي فرد من أفرادها ، ولكن أليس ما يتميز وما يتصف به الفرد من مميزات وسمات قد أخذها من جماعته ، إذن أين التميز هنا ؟

تعتقد الأمة أو الجماعة – وهو اعتقاد حق – أن هذا الفرد منح مميزات وسمات وخصائص من مصدر آخر ، من السماء ، هناك صلة ما بين هذا الشخص والسماء تمنحه وتعطيه ما لم تمنح غيره ، فلديه من القدرات والإمكانات ما ليس عند غيره ، لذلك فهو قادر على فعل ما لا يقدر الآخرون على فعله ، ولذلك تحمله الجماعة من المسئوليات والأعباء والمهام ما لا تحمل أو تكلف غيره به ، ولكن هذا بعد أن يقدم من الدلائل والبراهين على أنه بالفعل مبعوث العناية الإلهية ، من خلال قيامه بالمعجزات ، ولكن قيامة بالمعجزات ليس نهاية المطاف ، فتلك المعجزات ما هي إلا

برهان على أنه مؤيد من قبل السماء ،- مع أنــه هنــاك مــن سيشــكك في تلــك المعجزات وينسبها إلى السحر أو الشياطين – يبقى على النبي أن يخرج قومه أو أمته من مأزقها ، وينقذها من أزمتها ، ولكن بالرغم من قيام النبي ببعض المعجزات ، فهــو لا ينيب عن قومه أو أمته في حل مشكلاتها ، وإنما يدفعها أو يأخذ بيدها أو يفكــر لهــا أو يضع لها البرامج أو يرسم لها الخطط ، وعليها بعد ذلك التنفيــذ ، فــالنبي – مــثلا – لا يقاتل عن قومه ، وإنما يطلب منهم القتال وهو معهم في المقدمة ، وكذلك يبحــث مــع قومه أسباب وعوامل وســبل النصرــ ، ولا يطلبــه مــن الله ، وإذا طلــب فهــو يطلــب التوفيق والسداد من الله أن يتم عليه عمله إن كان به نقص ، ويقوم وسائله إن كان بها اعوجاج ، هذا إذا كانــت تلــك الجماعــة أو الأمــة ســوية الشخصــية ، أمــا إذا كانــت شخصيتها مشوهة كشخصية بني إسرائيل فالأمر مختلف ، يريدون من النبي أن يقــدم لهم كل ما يطلبونه بدون أن يقدموا أي شيء ، يريدون مــن النبــي أن يفعــل كــل شيء وهم لا يفعلون شيئا ، حتى إذا كان الأمر يستدعى جهادا أو قتالا ، فهم يتقاعسون ، ويطلبون من النبي أن يذهب هو وربه ويقاتلا كما قال بنو إسرائيل لموسى –عليه السلام– .

سمات شخصية :

تتكون شخصية الأمم والجماعات من خلال تلك الحوادث والأحداث التــي تمر بها الأمة والجماعة على مر ألاف السنين ، وتلك الخبرات المتراكمة عبر الــزمن هــي التي تمنح السمات والخصائص لتلك الشخصية ، وتكــون تلــك الشخصــية واضــحة جلية ، وسماتها ظاهرة وبارزة ، حيــنما يكــون هنــاك عمــود فقــري يحفــظ كيــان تلــك الشخصية من أن تتحلل وتتداعى ، ويصون تلك السمات والخصائص من أن تتلاشى أو تضمحل ، أو قل حينما تكون هناك نواة صلبة تجذب مكونات تلــك الشخصــية أن تنفرط وتتفرق وتتشتت ، وتجعلها تدور في نظام وانتظام حولها في مدار ثابت ومستقر ، وهذا العمود الفقري أو النواة الصلبة – بالنسبة للشخصية اليهودية – هي التوراة .

فما تعرض له اليهود على مر تاريخهم الطويل من محن وكوارث ومصائب وانتكاسات ، تمثل في الثورات الداخلية والغزوات الخارجية ، والسبي والأسر والترحيل والقتل والإبادة الجماعية

كل هذا كان كفيل أن يبدد أو يقضي على أي أمة أو جماعة ، لولا هذا العمود الفقري أو النواة الصلبة ، إذن احتفظ اليهود ببقائهم ووجودهم ، ولكنه لم يكن بقاء سويا ولا وجودا قويا ، كان بقاء مبتورا ووجودا مشلولا ،ذلك لأنهم ضلوا – كدأبهم – طريقهم إلى التوراة ،كانت بالنسبة لهم مجرد وتد خشبي يعتصمون به وقت العواصف والزلازل ، أو ملجأ يلجئون إليه وقت الشدائد والمحن ، ولكنهم – أبدا – لم ينتفعوا بما فيها من نور وهدى ، وطهر ونقاء ، لذلك صدق قول الله – y – عليهم : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٥] ولن تجد أمة أو شعبا يحمل هذا الكم من التناقض والاختلال والانحراف والضلال والتشويه مثلما يحمل الشعب اليهودي ، فتاريخه في غاية الغرابة والعجب ، هل تأسى لهم أم تأسى عليهم ؟ هل ترثى لهم أم تشمت بهم ؟ هل الأقدار تحاربهم أم هم السبب الأول والأخير فيما حدث لهم من مصائب وكوارث ومحن ؟" ولم تشهد المملكتان في حياتهما نوعا من الهدوء أو الاستقرار سواء في الداخل أو من ناحية أعدائهما في الخارج فالثورات الداخلية تنوشهما والعدو يطرق أبوابهما والوباء والمجاعات تنتابهما ، حتى الوحدانية وعبادة رب البر قد شابتها وثنية الشعوب المجاورة ، ولم تعد شريعة موسى تلهم بني إسرائيل وتلهب خيالهم كما كانت من قبل ، وغدا شعور الاضطهاد والخوف هو الذي يسيطر على أعمالهم ويسير حياتهم وغذت النكبات التي حلت بهم طوال تاريخهم هذا الشعور بالخوف والاضطهاد فدفعهم إلى نوع من الشذوذ الاجتماعي أصبح أحد خصائصهم البارزة فيما بعد هو شذوذ الاستكانة والعزلة انعكس على

طباعهم فأنجب القسوة التي طبعت سلوكهم حيال غيرهم ممن ليسوا من بني إسرائيل ،ونمّا أواصر الألفة بينهم فغذت روح العنصرية اليهودية وأورت ضرام التعصب القومي والديني بين صفوفهم وشدتهم إلى بعض برباط من التآلف على طول ما باعدت بينهم الفرقة والتشتت في أرجاء الأرض ، وأصبحت التوراة التي ضلوا سبيلها وحادوا على شريعتها على حياة أنبيائهم وكهانهم هي الملهم الفذ لعنصريتهم طوال خمسة وعشرين قرنا من المحن والمغامرة والاضطهاد والتشتت ، وأصبحت اليهودية في دينهم دينا ودولة " [1]فالشخصية اليهودية – دائما –مأزومة ، فهي مشدودة النظر والفكر والشعور إلى الماضي البعيد ،حيث المجد والازدهار والسؤدد الذي يمثله "سليمان" ،غير مقرة أو معترفة أو متعايشة مع الحاضر – وقت بعثة "عيسى" عليه السلام ، ليس هذا فحسب ، بل هي تعلق أمالا إعراضا بل توقعات بتحقق أهداف وخطط في المستقبل ، وهي لا تدرك أن عودة الماضي محال ، وعدم الاعتراف بالواقع المعاش في حاضرها نوع من الغباء ، والتعلق بتوقعات وخطط في المستقبل بدون تقديم أي جهد أو تخطيط نوع من الوهم . وهذا شأن الشخصية المتخمة بالغرور والتعالي والغطرسة ، فهم مفضلون ومميزون على جميع الأمم والشعوب ، وهم الأرقى والأسمى جنسا وعرقا ، ومع ذلك فإنهم قد ذاقوا على يد الأمم الأخرى العذاب والهوان والتشتيت والإبادة ،

"فقد عانوا كثيرا من ظلم المصريين والسوريين والرومان ، ومن ظلم أنفسهم ، خلال القرون الأربع التي سبقت مولد عيسى – كان يستقى من هذه المحن تأييدا لأمل قديم : أنه يترقب ويأمل بكل جوارحه مجيء المسيح الموعود الذي سوف تسترجع به أمة إسرائيل ما عرفته من مجد أيام داود ، بل أكثر منه " [2]

١- المصدر السابق (١٦٦)
٢- المسيحية نشأتها وتطورها – تأليف : شارل جينيير- ترجمة الإمام عبد الحليم محمود .

إذن جُمعت كل المأزق والمحن والمصائب والكوارث التي تعرض لها اليهود على طول تاريخهم الممتد ، وعلق كل هذا بمقدم هذا المنتظر ، ويقوى الأمل ويملأ القلوب ويعمر العقول كلما سقطت أو تهاوت دولة قوية أو إمبراطورية عاتية وتحولت السيطرة والتحكم من مركز إلى آخر ، فهم يظنون أن دورهم قد جاء ، وأنهم سيرثون هؤلاء القوم " وكان سقوط الدول الكبيرة في عهد أشعيا الثاني مؤذنا باقتراب يوم إسرائيل الموعود . فقد تداعت بابل ومصر ـ وآذنت فارس بالتداعي والانقسام ، فتجدد رجاء إسرائيل في ملك العالم، وفسروا سقوط الدول الكبرى بغلبة (يهوا) عليها وعقوبته لها على ما أسلفت من الإساءة إلى شعبه ، ولاح لهم – لأول مرة – أن ربهم يبسط ظله على الأرض بما رحبت ، وأن يوم الخلاص الموعود جد قريب "[١]

وفي الحقيقة هم لم يكن ينتظرونه ليخلصهم مما حاق بهم ، أو ينقذهم من مآسيهم ، ولكن كانوا ينتظرونه ويترقبونه ليعيد لهم مجدا دنيويا بحتا ، ويسترجع لهم مكانتهم التي فقدوها بين الأمم ، وإن كان هذا الذي يأملون فيه قد يحققه لهم قائد أو زعيم ، إلا أنهم كانوا يريدون تحقيق أكثر مما يقدر على تحقيقه قائد أو زعيم ،كانوا ينتظرون نبيا على غرار " داود" " ولقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول ، فردد الشعب الإسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الإيمان ((بالمسيح)) بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات ومنها نبوءة أشعيا التي امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء في

١-الله – عباس محمود العقاد (٩٣)

الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر أنه ((محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان)) "[1]

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، هم مرتبطون بها في التوراة من وعود ونبوءات ، ولم تكن تلك الأمنيات التي تراود خيال اليهود ثابتة ومستقرة ، ولكن كانت متغيرة ومتحولة ، تخضع لما يمر به اليهود من ظروف وأحوال ، أو يطرأ على العالم حولهم من تبدلات وتحولات ، فهم يريدون المسيح ملكا قويا حينما يشعرون أن القوة المحتلة المسيطرة على فلسطين من الضعف بمكان ، فالظروف والأحوال مهيأة لذلك ، وهم يريدون المسيح المتسامح ، حينما يدركون مدى قوة وبطش الدولة المسيطرة والمهيمنة على فلسطين ، " وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الإسرائيلي في تاريخه المتعاقب ، فيقوى الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدولة المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل في استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء إلى ((المسيح الهادي))كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا أن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع في انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية "[2]

إذن كان اليهود ينتظرون نبيا ، ولكن بلا برنامج وبلا منهج ، لأن هم الذين سيضعون البرنامج ويحددون المنهج ، بل كان البرنامج معدا والمنهج جاهزا ، ينتظرون من يأتي ليحقق البرنامج وينفذ المنهج ، يريدون نبيا وفق أهوائهم ورغباتهم وأطماعهم ، ليحقق لهم أحلامهم وأمانيهم ، وهذا هو موقفهم بصفة عامة من الأنبياء ، وقد

١-عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد (١٢)
٢- المصدر السابق – (١٣)

جلي وأظهر القرآن هذه السمة في شخصيتهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة البقرة:٨٩]

لماذا حورب السيد المسيح ؟

قد نفهم أن يهب الكهنة ورجال الدين لمحاربة مدعى نبوة أو فاسد أو مضل ؛ لأنهم في ذلك يخشون على الدين وعلى الناس من هذا المدعي الكذاب الأشر،ولكن لا نفهم كيف ينهض ويقوم رجال الدين والكهنة لمحاربة رجل يعتقدون في صدق نبوته ، وكل الأدلة والبراهين نطقت على أنه صادق صدقا لا ريب فيه !

نعم ، إن المعركة بين المسيح وبين خصومه لم يشتد أوارها ، ولم يحمى وطيسها إلا في اللحظة التي أيقن فيها خصومه أنه نبي مرسل من قبل الله ، في تلك اللحظة – وليس قبلها – جن جنونهم ، وعقدوا العزم وأخلصوا النية على التخلص من المسيح ، وأظن أنهم لو كانوا يشكون في صدق دعوة المسيح ما شنوها حربا شعواء على الدعوة وصاحبها ، لأنهم أدركوا – وهي الدعوة الصادقة – مدى خطرها عليهم وعلى مكانتهم وعلى مناصبهم وسلطانهم ، والأسباب التي من أجلها حورب المسيح كثيرة، منها ما يخص الدعوة ،ومنها ما يخص السيد المسيح ، ومنها ما يخص اليهود أنفسهم لاسيما رجال الدين والكهنة، ومنها ما يخص العالم في ذلك الوقت بصفة عامة .

- أما فيما يخص الدعوة :تحارب الدعوات من ذوى السلطان الديني والدنيوى حينما لا يجدوا مكانا أو اعتبارا لهم في الدعوة الجديدة ،وحينما تسوى الدعوة بين هؤلاء وبين بقية الناس لاسيما من الذين لا يتمتعون بأي وجاهة اجتماعية

- من حسب ونسب ومال ،ومعنى قبولهم بالدعوة وإيمانهم بها هو تنازلهم عما كانوا يتمتعون به من مكان ومكانه ، ليس هذا فحسب بل مساواتهم بمن هم دونهم في المكان والمكانة ، فهم يأنفون أن يجتمعوا وهؤلاء تحت لواء دعوة واحدة ، فهؤلاء لا مانع لديهم أن يدخلوا في أي دعوة جديدة مع الاحتفاظ بكل ما كانوا يتمتعون به ميزات منحها المجتمع الفاسد لهم بغير وجه حق ، أو هم اغتصبوها واجبروا المجتمع على الاعتراف بها معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، لذلك كان هؤلاء أول من يحارب ويقاوم ويعارض ويعاند الدعوات ، وجميع الدعوات الدينية من ضمن مبادئها العدل بين الناس والمساواة بين البشر ،ليس هذا فحسب بل الاهتمام والحدب على هؤلاء الذين حرموا ومنعوا وضيق عليهم، وساقهم قدرهم ألا يكون لهم أي ذكر أو اعتبار ، تأتي الدعوات وتهتم أول ما تهتم بهؤلاء الفقراء المساكين المحرومين ، لتعوضهم وتعيد لهم ما حرمهم المجتمع منه ، وعتاب الله -عليه السلام- للنبي -ﷺ- حينما أعرض عن الأعمى وأقبل على زعماء وأشراف القوم يوضح ويجلي هذا المبدأ العظيم . والدعوة المسيحية وضعت نصب عينيها البؤساء والفقراء والمساكين والمحرومين واليتامى والأرامل والنساء والأطفال والعمي والبكم والخطاة والمذنبين والضحايا من كل نوع ولون ، ومن أقوال المسيح في هذا المجال :

((روح الرب مسحني ،لأبشر المساكين ..

((أرسلني ، لأشفي منكسري القلوب ..

((لأنادي للمأسورين بالانطلاق ..

((وللعمي بالبصر ..

((وأرسل المنسحقين في الحرية))..!

((طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم ملكوت الله))

((طوباكم أيها الجياع الآن ، لأنكم تشبعون)) .

((طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم ستضحكون)) ..!

ويقول : ((إذا صنعت ضيافة ، فادع المساكين ، الجدع ،العرج ، العمي .. فيكون لك الطوبى))

((لا يكن للواحد ثوبان))

((من له ثوبان فليعط من ليس له .. ومن له طعام فليفعل هكذا))

- أما فيما يخص السيد المسيح : فقد حورب السيد المسيح لأسباب كثيرة تتعلق بشخصيته منها ١ – أنه اختار منذ البداية أن يُحارَب ولا يحارِب " قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه ،حين هاجمه أعداؤه ليلا ، ليأخذوه إلى رؤساء الكهنة ، كي يحاكموه : ((رد سيفك إلى مكانه .. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشرة جيشا من الملائكة)) " [١]

حتى حينما طلبه اليهود واقتحموا البستان الذي كان يجلس فيه هو وتلاميذه ، دلهم على نفسه وطلب منهم ألا يمسوا أحدا من تابعيه " عندما هاجم اليهود بستان الزيتون ليقبضوا عليه ، تقدم من الحرس وسألهم : من تطلبون ؟

أجابوه : نريد الناصري ؟

فقال : أنا هو ..ولست أسألكم إلا شيئا واحدا .

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا معه في البستان ، واستأنف حديثه مع الحرس قائلا :أن تدعوا هؤلاء ، يذهبون لبيوتهم ، حتى أستطيع أن أقول لأبي حين ألقاه : إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم أحدا ."[٢]

٢– كانت شخصية المسيح تجسيدا حيا وصادقا لكل أقواله وتعاليمه ووصاياه ،فهو لا يدعو إلى شيء ولا يطلب من الناس فعل شيء ، وإنما أفعاله وتصرفاته هي التي تقنع الناس وتحضهم ، فهو الحب يسير على الأرض بين الناس ، إذا أراد أن ينتشر

١- معا على الطريق (محمد والمسيح) – خالد محمد خالد (١٩٩)
٢- المصدر السابق (٢٠٣).

الحب ،وهو التسامح وهو الرحمة وهو العفو والمغفرة إلخ ..هـو لا ينظـر ولا يفكر ولا يخطط وإنما يجسد ويحقق إنه يعلم الناس كيف يعيشون حياة الأنبياء، هـو لا يريد أن يتعلموا منه أو يقتدوا به أو يسيروا على نهجه ، إنه يريد من كل فـرد أن يكـون مسيحيا مثله ، فهو حينما أراد منهم أن يكونوا متواضعين لم يذكر ويعـدد لهـم ميـزات التواضع وأثره في النفس الإنسانية ويطلب منهم ذلك وإنما " قام عـن العشـاء وخلـع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها ، ثم صب ماء في مغسـل وابتـدأ يغسـل أرجـل التلاميـذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزرا بها ، فلما كان قد غسل أرجلهم وأخـذ ثيابـه واتكـأ أيضا قال لهم أتفهمون ما قد صنعت بكم ، أنتم تدعونني معلما وسيدا وحسنا تقولون لأني أنا كذلك ، فإن كنت أنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب علـيكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض ، لأني أعطيتكم مثالا حتى كما صنعت أنا تصـنعون أنـتم أيضا ، الحق أقول لكم أنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله ، إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه " [1]

أدرك الكهنة ورجال الدين اليهودي كم هي مؤثرة شخصية المسيح في نفوس من حوله ،لذلك ألتف حوله الكثيرون ، وبدأت دعوته تنتشر ويتردد صـداها في كـل مكان ، لذلك كانوا يلاحقونه ويطاردونـه محـاولين إحراجـه أو توريطـه أمـام عامـة الناس ، وحينما كان المسيح يخرج من كل محاولاتهم الخسيسة منتصرا ، قرروا التخلص منه .

– أما فيما يخص اليهود ، فإن وجود السيد المسيح لهو دليل دامغ على فسـادهم وإفلاسهم ، فهو لم يخرج من بين صفوفهم ، وهـو لم يهـادنهم أو يمالـئهم أو يتصـالح معهم ، أو حتى يسـاومهم ، ولم يتـورع عـن فضـحهم وإظهـار عيـوبهم ومسـاوئهم ومخازيهم ،ربما لم يواجههم أحد بمثل تلك الشجاعة والقوة والجرأة والصراحة مثلما

١- إنجيل يوحنا – الإصحاح الثالث عشر

وأجهم السيد المسيح ، بل كانت حملته الكبرى ضد الهيكل ورجال الهيكل ، والذي دعم موقف السيد المسيح أكثر ، وأضعف من موقف الكهنة ورجال الدين أنه كان يوجد فئات كثيرة من اليهود فقدوا الأمل والرجاء أن يأتي من الهيكل أي دعوة للإصلاح ، أو يصدر عن دعاة الدين وسدنة الهيكل أي نية لمحاولة تخليص ما لحق الدين من تشويه وتحريف وتزوير " وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى ((المسيح المنتظر))لم نكد نرى فيها باعثا إلى الترحيب بتلك البشرى لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله ، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين ، فهي في موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه أو موقف ممن يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها ومخايل الأمل في شيوعها وانتشارها في مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم ، لأن الفقهاء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب "[1]

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يوافق المسيح هوى اليهود ،فهم كانوا ينتظرون ، نبيا يعيد لهم ما فقدوه من مجد وسلطان ، يعيد لهم مكانتهم بين الأمم والشعوب الأخرى ، فإذا المسيح يدعو إلى مملكة الله ، ويعلن صراحة أنه لا شأن له بالمجد الأرضي وأحلام اليهود في الثأر من الأمم والشعوب الأخرى " فحين بعث المسيح برسالته ظن اليهود أنه المسيح المنتظر الذي يقودهم إلى مملكة الأرض ، ويعيد لهم مجد أورشليم ومملكة إسرائيل ويخلصهم من ذل الرومان ، ولكن المسيح لم يفجعهم في آمالهم القومية فحسب بل راح يحطم أسطورة الشعب المختار ، فعن مملكة

١- عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد – (٣٥)

الأرض قال :((أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله)) ، وعن الشعب المختار يقول إن الله هو أب البشر جميعا ، وأن مملكة السماء تظلل كل أتباعه ،ثم يقول إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله ، فكأن المسيح لم يأت بثورة تجب عقيدة اليهودية وتنكرها بل جاء يصلح من شأنها ويردها إلى الطريق إلى الطريق القويم من تعاليمها الأصيلة تلك التعاليم التي حورها اليهود لتبرر نزعتهم العنصرية وامتيازهم على البشر ، وضاق اليهود بالمسيح فوصموه بالكذب وأنه تابع ((بعزبول)) الشيطان يدين بأمره ويتلقى المعجزة منه "[1]

إذن كان السيد المسيح في نظر اليهود مجرد ناصح أو واعظ أو معلم أو مصلح يدعو إلى كريم السجايا ومكارم الأخلاق من حب وتسامح وتراحم ، ليس هذا فحسب بل يدعو الناس ألا يتكالبوا وينغمسوا في حب المتاع وعرض الحياة الدنيا ، وينبههم أنه يوجد حياة أخرى سينعم فيها الإنسان بالنعيم الدائم إذا هو أصلح العلاقة بينه وبين أخيه الإنسان ، وقوى العلاقة بينه وبين الله ، وكل هذا لم يكن اليهود في حاجة إليه ، لقد كانوا في حاجة إلى أشياء أخرى غير ما جاء به السيد المسيح " ذلك إني نظرت إلى اليهود فوجدتهم ينتظرون مسيحيا يعيد إليهم الملك والسلطان في الأرض ويعتزون به ، فلما جاءهم المسيح عيسى بن مريم يشيد بينهم مملكة الأخلاق والتقوى والسجايا الكريمة ، لم يكن هو المسيح الذي صوروه لأنفسهم فمكروا به وأرادوا قتله ، ولو كان جاءهم بملك الثروة لآمنوا به إذ هم قوم يؤلهون الثروة والمال "[2]

– أما فيما يخص العالم ، فقد كان العالم في مسيس الحاجة إلى دعوة إنسانية ، تنبذ وتمحي ما بين البشر من حقد وكراهية وبغض ومقت ، دعوة تعيد للإنسان قيمته

١- أرض الميعاد –د.حسينفوزي النجار – (١٨- ١٩)
٢- قصص الأنبياء – د. عبد الوهاب النجار – (٤٢٥)

تجلو قيم الحب والخير والعدل والتسامح والرحمة بعدما كادت أن تختفي وتذوي تلك القيم من العالم ،دعوة توجه وتحدد للعالم قبلة واحدة يتجه إليها ، بعدما تعددت وكثرت واختلفت وتخالفت وتصادمت وتحاربت العقائد والمذاهب ، دعوة تهدي الإنسانية – من أقرب وأيسر سبيل – إلى خالقها الحق ، دعوة تنقي وترتقي بدين التوحيد من النطاق الضيق العنصري ، إلى النطاق الرحب الإنساني ،وكانت الإنسانية على انتظار وترقب لتلك الدعوة ، ولم تكن مدفوعة إلى ذلك بوعي وإدراك ؛ لأنها لم تحسن استقبال تلك الدعوة ، وإنما تجهمت لها وأوصدت أبواب عقلها وضميرها دونها ، جاهلة بما في الدعوة من خير ونفع ، وجاهلة – أيضا– بما وصلت إليه من تدهور وتدني وانحلال خلقي، كشأن المريض مرضا عضالا ،فهو يعرض عن الدواء ، الذي سيأخذ بيده إلى الشفاء والسلامة ، وإن لم يتول العالم في عهد السيد المسيح ، ممثلا في الحكم الروماني محاربة دعوة المسيح ، لأنه ترك أو سمح أو لم يمانع أن يقوم اليهود بذلك، إلا أن موقفه هذا يعتبر نوع من التواطؤ والاشتراك في موقف اليهود ،من دعوة السيد المسيح .

الباب الحادي عشر
"المسيح" في التاريخ

الشخصية التاريخية :

يعتبر التاريخ من أكبر الظالمين ومن أكبر المنصفين – كذلك – للشخصية الإنسانية.

فمثلما تقطف زهرة ناضرة من الرياض الغناء، وتضعها في صفحات كتاب، ثم تعود إليها مرة أخرى بعد أيام أو شهور .

ومثلما تصيد فراشة كانت تطوف بين الأزهار لتمتص العبير والرحيق ، وتسبح بأجنحتها الملونة والمزخرفة المنمنمة وسط الضياء ، وتجففها ثم تضعها داخل زجاجة لتراها الأعين ولا تلمسها الأيدي كذلك يفعل التاريخ بالشخصيات الإنسانية ، أو هو ذا وضع الشخصيات الإنسانية في التاريخ .

فهناك فرق كبير بين الزهرة في الرياض ، وبين الزهرة المجففة وسط صفحات الكتاب ، وكذلك هناك فرق كبير بين الفراشة وسط الرياض ، وبين الفراشة محنطة ومجففة في جوف زجاجة .

فقد نجحت أن تستبقى من الزهرة كل شيء إلا الحياة .

وكذلك الحال مع الفراشة .

فليس ما أمامك زهرة ، وإنما شيء ما يمت للزهرة ، بل لا علاقة بين الزهرة المجففة والزهرة الحقيقية ، وكذلك الفراشة .

كذلك الشخصية في التاريخ ، فلا علاقة بين الشخصية في التاريخ والشخصية الحقيقية ، أو هي في أفضل صورها علاقة مشابهة ، ولكنها ليست هي .

فالتاريخ يرسم صورة للشخصية من أقوال المحيطين بها ، أو من أرائهم أو انطباعاتهم ، بل هو لا يكلف نفسه أن يخرج لنا صورة كاملة ، وإنما غاية ما يجهد نفسه به جمع أقوال – وهي في أغلبها – متناقضة أو مختلفة ، أو شذرات متناثرة لا يجمع بينها رابط أو صلة .

كذلك التاريخ يجافي مجافاة خطيرة المنطق ، ونحن لا نقصد المنطق العقلي ، ولكن منطق الأحداث ، أو السياق الطبيعي للأحداث ، وأيضا التسلسل الطبيعي ، فهناك فجوات في حاجة أن تسد أو تملأ ، وهناك أحداث وحوادث في حاجة أن تدمغ بالصدق والحقيقة ، فما أيسر أن تشكك في حدوث أي حدث، وتشكك كذلك في مقاصده ومراميه ، فأحداث التاريخ كغابة ضخمة أشجارها متشابكة الأغصان وملتفة ومتداخلة ومختلطة ، ومن الصعب أن تتبع هذا الغصن المتدلي ينتمي إلى أي شجرة ، أو ما أغصان تلك الشجرة ، وتلك الثمار الدانية تنتسب إلى أي من تلك الأشجار ، كذلك أنت لا تدري هل الأحداث لها قدر من الحقيقة والواقع ،أم هي من صنع واختلاق بشر أم شياطين ، أنت في حيرة شديدة من أمرك لو أردت من التاريخ أن يقدم لك ما تريده ، فأنت مع التاريخ كأنك تتعامل مع رجل بلا قلب ولا عاطفة .

وكذلك التاريخ يعد من أكبر المنصفين ، لأنه حتى في أسوأ الظروف ، استبقى لنا ظلا للحقيقة أو أثرا أو حتى بصمة من بصمات الشخصية فهذا – على الأقل – يعيننا ويساعدنا في رحلة بحثنا عن الحقيقة ، بدون التاريخ كأنك تسير في صحراء شاسعة ليس بها علامات أو صوى سوى أثار باهتة وضئيلة ، وأتت عاصفة هوجاء وطمست تلك الآثار طمسا ، بل غيرت معالم وملامح المكان تغييرا تاما . فأنت حائر ، تتجه يمينا أم يسارا ، تتقدم للأمام أو تتقهقر للخلف .

نعم ، الإنسانية بدون تاريخ كشخص فقد ذاكرته ، فلا اسم له ولا هوية ولا كينونة ، هو في أحسن الفروض ظل زائل لا بقاء له ، فالتاريخ – في معنى من معانيه– مخزن هائل لتلك التجارب التي مرت بها الإنسانية ، المؤلم منها والممتع ، السار منها والمحزن ، أو هو سجل ضخم لا يطوى أبدا ، تظل الإنسانية تطالعه بكل فهم وتدبر واهتمام ، لتستخلص العبر والعظات ، ولتتجنب المزالق والعثرات والمآسي التي سبق ومرت بها وكابدتها وعانت منها طويلا . إذن التاريخ – بهذا المعنى يعتبر من أشد المنصفين .

حياة المسيح:

كما كانت حياة "المسيح" متقلبة ومضطربة ومتوترة ، وكان يعيش مطاردا، وثمة قوى ومؤامرات ومكائد تبغي قتله واغتياله ، كذلك هو في التاريخ ، فصورته – في التاريخ – متقلبة ومضطربة ومتوترة ، ووضعه مطارد وثمة قوى ومؤامرات ومكائد تشكك – عن عمد وإصرار – فيه وفي أثاره ، تبغي محوه وطمسه من التاريخ . فهما صورتان متطابقتان تطابقا غريبا وعجيبا ، وتفسير ذلك أن قوى الشر التي كانت تحدق به وتحاصره وقت أن كان حيا على الأرض ، مازالت تحدق به وتحاصره ، فأنت لا تستطيع أن تقضي على شخص ما قضاءً تاما وكاملا ، إلا إذا بددت كل أثر له ، بعد ذلك من اليسير لك أن تمحو كل بقية باقية له في الضمائر والأفئدة ، ولا يبقى لهذا الشخص شاهد أو ذكرى أو أثر ، تقتدي به الأجيال .

البعض يدفعه في ذلك الحقد والحسد والغيرة ، أن المسيحية منبتها الشرق وامتدت فروعها وثمارها في الغرب ، وهم يريدون تجريد الشرق من كل ميزة أو محمدة ، ويريدون إلصاق كل مكرمة بالغرب " وبلغ من رغبة الأوربيين في ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم تنكر للمسيحية لأنها ثمرة شرقية ، وفريقا منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية ، من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الأول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الأناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الإنجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان "[1]

والبعض يستند إلى العلم ، ويستعين بآلياته وأدواته ، ومناهج الشك ، محاولا أن ينخر في الأساس التاريخي ليقوض هذا البنيان والصرح الشامخ الذي بناه السيد المسيح من القيم والمبادئ الإنسانية السامية ، حتى الذين يعتقدون في وجوده

١- إبليس – عباس محمود العقاد – (٧٧)

ويسلمون بمكانه ووضعه في التاريخ ، يواجهون مشكلة ، أنهم إن لم ينفوا وجوده ، فإنهم لا يستطيعون أن يجزموا أو يثبتوا بشيء في هذا الأمر .فهم لا ينكرون ، وفي نفس الوقت لا تتوافر لديهم أدلة أو براهين حقيقية ليؤكدوا ويقروا بوجود السيد المسيح ، أو على الأقل بالصورة التي وصلت إليهم عن حياة وشخصية المسيح ، فتفاصيل ووقائع وأحداث كل ذلك لا يصمد عند التحقيق والتمحيص العلمي والمنهجي .

" ولا أعتقد أنه يمكن التشكيك في وجوده على غرار ما يحاوله البعض حتى أيامنا هذه . ولكننا متى أثبتنا وجوده التاريخي ، فإننا بذلك نضع أنفسنا مباشرة في تيه من التاريخ كله ظلمات وشكوك . ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذي دار في السنوات الأخيرة على أساس من الوثائق الأصيلة لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسى في شيء من اليقين والتثبت ، ويجب علينا أن ننظر إلى الكتب التي تدعي سرد سيرته على أنها مؤلفات تستند إلى الكثير من التحكم والنزعات الذاتية "[1]

والذي سوغ – لهم – هذا الشك أو هذا الموقف ، أن المسيح نفسه لم يفكر لحظة أن يطلب من الآخرين كتابة أقواله ولا تسجيل أفعاله وتصرفاته ،هو لم يطلب صراحة ، وكذلك لم يمنع أحدا من ذلك ، وإذا كان هذا الأمر – بالنسبة للمسيح – طبيعي ومنطقي ، فإنه لا هو بالمنطقي ولا الطبيعي ألا يكتب ويسجل تلاميذُه ، فماذا – في العادة – يفعل الأستاذ غير أن يقول ويعلم ويعظ ؟ وماذا يفعل التلاميذ إلا أن يحتفظوا في عقولهم – وأيضا – يسجلوا في أوراقهم ويكتبوا في دفاترهم ؟ فالتلميذ في حاجة ضرورية أن يدرس ويستذكر بل يستظهر في أوقات لاحقه ما أخذه عن أستاذه لأمر ما لم يأمر المسيح تلاميذه بتسجيل أقواله تسجيلا فوريا وأمينا .

١ـ المسيحية نشأتها وتطورها – تشارل جينيبير – ترجمة الإمام عبد الحليم محمود

ولأمر ما لم يقم التلاميذ بتسجيل ما سمعوا وما شهدوا وشاهدوا من أستاذهم .

وإن كان اختيارهم لهم ورعايته لهم ، تلك الرعاية الدائمة والواصبة ، تنبئ وتخبر أنه اختارهم ليواصلوا أمر الدعوة والرسالة بعده ، وقد قرر هذا الأمر صراحة في أحد أقواله ،إنه إذا كان اليوم بينهم متحدثا واعظا شارحا ومفسرا ، فهو غدا لن يكون بينهم ، وجزء كبير من وقته وجهده واهتمامه ، كان المسيح يقضيه مع هؤلاء، وكانوا يؤمنون به عقلا وفكرا، ويحبونه وجدانا وقلبا ، فلماذا لم يسجلوا أو يكتبوا أو يثبتوا ، أو يصوروا كل أقواله وأحواله وظروفه آنا آنا وحينا حينا ؟

"ونستطيع إدراك السبب في هذا الغموض من تخيل أحاسيس هؤلاء الذين استمعوا إلى دعوة عيسى وآمنوا بها ، ثم هالهم وأي أسهم تعذيبه وصلبه وأعلنوا بعد ذلك بعثه ،هؤلاء لم يشعروا البتة بالحاجة إلى تدوين ذكرياتهم أو رسم شعورهم عنه ، إنهم لم يفكروا في أن يكتبوا إلى أجيال قادمة كانوا على يقين من أنها لن تأتي . فالعالم – عالم الظلم والخطايا ولذات الجسد – كان في عقيدتهم وشيك النهاية . وكانوا يترقبون بين لحظة وأخرى توقف الحياة البشرية وظهور المسيح المنتصر في السماء " [1]

ولم تكد تنتهي حياة عيسى على الأرض حتى تكون وتبلور الإطار التاريخي لسيرته ، أو قل المحاور التي ستتجمع حولها ذكريات وانطباعات وتأثيرات المحيطين به ، ولكن كل هذا من العسير أن ينطبق عليه وصف حقائق لوقائع وأحداث حياة المسيح ، لأن كان دعامته الحب والإيمان والعواطف المتأججة ، وأزعجهم وآلمهم ما تعرض له المسيح من غبن طوال حياته ، وصدمهم نهايته المأساوية ، فكان أمامهم أمران : أما أن يصوروا حقائق وأحداث أستاذهم كما حدثت ووقعت ، وهذا – في عرفهم – تكرار للمأساة التي مرَّ بها السيد المسيح ومروا بها ، وهذا يعتبر اجترار

١ -المصدر السابق – (٣٤- ٣٥)

للإحزان والألأم ، وإما أن يعيدوا صياغة أو تهذيب وتشذيب تلك الأحداث والوقائع بما يتفق وإيمانهم وحبهم وإجلالهم وتوقيرهم لأستاذهم ، لذلك لم يستوحوا الوقائع هنا ، وإنما ذكرياتهم ، وليست ذكرياتهم عن واقع مكـروه ، وأحـداث مؤلمـة ، ولكن ذكرياتهم على ما كانوا يحبونه ويتصورونه ويأملونـه ويتمنـون أن يحـدث ، هـم يجسدون كل إيمانهم وحبهم وأشواقهم وتطلعاتهم ، رائدهم في ذلك العاطفة المشبوبة المتأججة ... فكان الحصيد متناقضا ومتنافرا ، لا تدري أين الحقيقة من الخيـال ؟ أيـن الواقع من المبالغة ؟ هو خليط عجيب وغريب عن سيرة السيد المسيح .

"ومن ناحية أخرى كان لابد أن ينعكس إيمانهم القوي على ذكرياتهم فيؤثر في صورها :

كانوا على يقين من أن عيسى الناصري هو المسيح الذي وعدت به إسرائيـل ، وأنه يجلس إلى جانب الرب في السماء ، مرتقبا الساعة ، ودفعهم هذا اليقين إلى البحث عن معان عميقة لمراحل حياته المتواضعة ونجاح دعوته المحـدودة ، وطريقـة تعذيبـه الوضيعة ، ودفعهم كذلك إلى أن يستخرجوا التعاليم والتنبـؤات مـن أقـل الحـوادث والأحاديث شأنا ، وأن يطبقوا على أستاذهم كل نصوص التوراة التي قيل إنها تتعلـق برسول يهوه المبارك الموعود ، فيجدوا في كل حياته مصداق ما أنبأت به هذه النصوص ، وهكذا كان خيالهم بدافع التقوى ، يزين الأحداث ويصبغها في إطار من التعليقـات والإضافات التي يفرضها إيمانهم – بطريقة ما – وكأنها من لوازم سيرة عيسى ، وكأنها حقيقة لا شك فيها، تبرز وتحدد طبيعته وعمله بوصفه النبي المنتظـر ، واسترسـلوا في سذاجتهم وبساطة مشاعرهم ، فأصبحوا لا يفرقون بين الخيال والـذكريات الحقيقيـة ولقد خلطوا بينهما في تلك التعاليم التي نشرـوها مـن حـولهم ، وأصـبح أتبـاعهم لا يستطيعون التمييز – حتى لو أرادوا – بين واقع الأحداث وما أضفاه عليها الإيمان من

صور شتى ، وكان تحمسهم للعقيدة لا يدع لهم مجالا لمقاومة ما توحي به الرؤى والتهيؤات الفردية ، فكل ما يمليه اتصال الواحد منهم اتصالا خياليا مباشرا بالروح يؤخذ قضية مسلمة وفرضا ضروريا على الجميع يؤمنون به إيمانا لا يعلو عليه – بل لا يدانيه – إيمانهم بالواقع المباشر الذي يمليه التاريخ "[1]

هنا من العسير أن تظفر بالحقيقة الخالصة ، وإذا قدر لك أن تضع يدك على الحقيقة فهي متلبسة بالكثير من الاختلافات ، وكان مرور الزمن في صالح الحقيقة ، فعندما انتهى الجيل الأول أو الذين عايشوا المسيح وتلاميذه ، نبتت بذور الشك في الكثير وحول مما قيل وتناقلته الألسنة ، ورأى البعض أن كر الأيام ومرور الزمن كفيل أن يبدد الكثير مما حسبوه تاريخا وظنوه وقائع حقيقية وأحداث ثابتة ، فبدأت عملية التسجيل والتدوين لما هو موجود ومتوافر .

" وإذن فمنذ الجيل المسيحي الأول تكونت التقاليد التي أيقن المؤمنون بأنها التاريخ الصحيح لأستاذهم ، تكونت من عناصر متباينة ، تختلف درجات الحقيقة فيها كثيرا ، ولم تظهر بذور الشك في قرب العودة المأمولة للمسيح إلا عندما انتهى أجل هذا الجيل الأول من المؤمنين ، وبانتهائه لم يعد هناك شهود ((مباشرون)) لحياة المسيح ، ثم رأى الحريصون من المسحيين أنه قد يكون من المصلحة أن يثبتوا بالتدوين تلك الذكريات التي افترضوا صحتها في الأخبار المتوارثة شفاها .

وغالب الظن أنه قد ألفت في هذه الفترة كتيبات سجل فيها محرورها ما رأوه جديرا بالعناية من مجموعات حكم منسوبة إلى أستاذهم ، أوحكايات عن مراحل حياته وجدوا فيها عبرة وتميزا لشخصيته ، أو وصفا لـ ((آياته))أي لتلك المعجزات

١ـ المصدر السابق (٣٥)

التي قام بها في سبيل إقناع الجهلاء .. ولم يعن أحد بما نسميه اليوم ((التحقيق التاريخي)) ذلك المنهج الذي يفترض الشك ،والذي يتنافى مع دوافع الإيمان المطلق لدى هؤلاء الكتاب الذين افتقروا كل الافتقار إلى روح النقد ، موجهين الاهتمام قدر استطاعتهم إلى إثبات صحة الآمال المسيحية وإقناع المترددين ووعظ المؤمنين "[1]

سيرة تفتقر إلى الوحدة الحقيقية :

الذين سجلوا سيرة السيد المسيح لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه ، سيأتي من بعدهم أناس يوزنون ما كتبوه بميزان النقد ، ويعرضون ما سجلوه على العقل والمنطق ليمحصاه ، ويميزون

ما يتفق مع العقل والمنطق الصارمين ، فيحتفظون به ويثبتونه ويعدونه من الحقائق التي لا تقبل الشك ، وما يخالف العقل والمنطق فإنهم يهملونه وينبذونه ويعتبرونه من الأكاذيب والاختلاقات .

ولو أنهم يعلمون – من سجلوا سيرة المسيح – بصنيع هؤلاء ربما اختلفت طريقتهم وتغير أسلوبهم ، وعملوا عملا يرضى عنه النقد ، ويوافق ويتفق معه العقل والمنطق ، ولكنهم كانوا أمام أمرين لا ثالث لهما :

- إما أن لا يسجلوا شيئا عن سيرة المسيح بالمرة ، وبذلك لا تبقي أي ذكرى أو أثر للسيد المسيح ، وإن بقيت فهي ذكرى باهتة ، تائهة ضائعة في متاهات التاريخ ، في حاجة إلى من ينقب عنها ، عله في يوم من الأيام يسعده الحظ ويعثر عن شيء يمت بصلة للسيد المسيح .

- أو أن يسجلوا كل ما يصل إلى أيديهم وتصل أيديهم إليه ، ويجمعوا كل الأحاديث والأقوال والحكايات بدون تحقيق علمي أو تمحيص عقلي ،فهذا التمحيص والتحقيق ترف علمي ، ورفاهية عقلية ،لا محل لهما ، وهم في سبيل إنقاذ ما يمكن

١- المصدر السابق (٣٦)

- إنقاذه ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من سيرة السيد المسيح.

وأظن أنه لم يطل بهم الأمر أن يختاروا الخيار الثاني ، فهذا هـو الخيـار المنطقـي المتاح أمامهم ، ويتيح لهم الإحساس بالرضا عن أنفسهم ، لأنهم أدوا عملا ، وتحملوا في ذلك الكثير من العناء والمشقة ، وكذلك أدوا حق المسيح عليهم ، وحفظوا وصانوا تراثه من التبديد والضياع .

ولكن إذا كانوا قد بذلوا كل ما في وسعهم ، واستفرغوا كـل مـا في طـوقهم، فإن هذا العمل – الذي أنجزوه – يعكس ويصور ويجسد طاقـاتهم وإمكانـاتهم هـم ، وليس طاقات وإمكانات المسيح ، كـذلك ينقـل لنـا فكـرتهم ورؤيـتهم وانطباعـاتهم وتأثرهم عن المسيح وليس المسيح نفسه ، فقد كان المطلوب منهم أن لا يـأتي عملهـم متناسبا مع قدرتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم ،ولكن يأتي متوافقا ومتناسـبا ومنسـجما مـع عظمة وجلال المسيح ، وكذلك لا يأتي عملهم لينقل لنا فكـرتهم ورؤيـتهم وتـأثرهم عن المسيح ، ولكن ينقل لنا المسيح كما خلقه الله ، بدون إفراط أو تفريط .

ورب محتج يحتج ويقول أنك بذلك تسرف عليهم إسرافا شديدا ، وتكلفهـم من أمرهم شططا ، بل أنت تطلب منهم المحال .

وإذا سألته : لماذا تقول هذا القول ؟

لأجابني على الفور : لأن الذين عملوا هذا العمل هم في الأصل بشـــر ، ومـا تطلبه عملا تاما وكاملا ، ومحال أن تصف العمل الإنساني بأنه تام وكامل ، فأي عمل يعكس طبيعة عامله ، فإذا كان العامل يتصف بالنقص ويجوز علية الخطـأ والنسـيان ، فإن العمل كذلك يتصف بالنقص ومعرض أن يداخله الخطأ والنسيان .

– إذن أنت تعترف أن ما سـجل وكتـب عـن السـيد المسـيح بـه نقـص ، ولا نستبعد أن شبهة الخطأ والنسيان قد لحقت به ، لاسيما وأن عمليه التسجيل والكتابة قد بدأت – عند بعض المحققين – بعد قرن أو قرنين من انتهاء حياة المسيح على الأرض .

- لا يختلف أحد على ما تقوله . وعلى ذلك فلا يجب علينا أن نوجه لهم لوما أو عتابا ، أو نصفهم بالتقصير والإهمال .

- نحن لا نوجه لهم لوما أو عتابا ، ولكن كل اهتمامنا منصب على العمل، فكان من الممكن أن ترد إلينا سيرة السيد المسيح أكثر ترابطا وأكثر تكاملا وأكثر تسلسلا ،وأكثر اتساقا ، وأكثر اتفاقا وأكثر منطقية ، وأكثر صدقا ، وأكثر وضوحا ، وأكثر جلاءً ،لم يكن الناس يريدون أقوالا أو وقائع أو أحداثا -أو أفعالا ، وإنما كانوا يريدون صورة السيد المسيح يتأملون ملامحها النبيلة وقسماتها الراقية السامية ، كانوا يريدون أن يلمسوا شخص وشخصية السيد المسيح ، وكأنها تعيش معهم وبينهم ، وهذا الفرق بين الشخصيات التاريخية العادية وشخصية النبي ، أنك مع الشخصية التاريخية العادية تقنع بما ييسره لك التاريخ ، حتى ولو كان النزر اليسير ، أما مع شخصية النبي ، فأنت لا تقنع بما يصوره لك التاريخ ، أنت مع النبي لا تقتنع إلا بأن تكون شخصيته ليست تامة ومتكاملة فحسب بل أن تكون ملء السمع والبصر والفؤاد ، أنت تريد من سيرة النبي ليس معرفة أو علما ، أنت تريد من السيرة أن تمكنك من نوع من التعايش مع النبي وهذا التعايش يجعلك قادرا على القيام بعملية ((التشرب)) لتلك الشخصية الجليلة العظيمة النبيلة ، أنت لم ترو عقلك أو قلبك فحسب ، ولكنك رويت كل كيانك ، إذا حدث هذا فستكون عيسويً الفكر والرؤية والنظرة والوجدان ، تفكر كما كان يفكر ، ترى ما كان يراه ، تنظر كما كان ينظر ، تشعر وتحس بما كان يشعر ويحس .

ولكن للأسف المسيح في التاريخ ، أو صورة المسيح أو سيرة المسيح في التاريخ لا تمكن الناس من ذلك ، وهذا قدر المسيح ، أن تكون سيرته بهذا الوضع الذي لا يمكن الناس مما يريدونه ، وقدرنا أن تصل إلينا سيرة وصورة المسيح بهذا الشكل والتكوين والتي نعذر الناس بعدم إجراء أو نجاح عملية ((التشرب)) .

وربما يكون هناك عذر أو تقصير أو خطأ أو نسيان من الـذين كتبـوا ، لأن مـا توافر لهم لم يمكنهم من إخراج عملهم بصورة تليـق بنبـي ، لاسـيما في مقـام ومكـان ومنزلـة نبـي كعيسـى عليه السلام " لقـد وجـدوا أنفسـهم أمـام مـادة يصـعب مراسـها : فمجموعات الحكم لم تكن تلتزم في دقة دقيقـة بـالظروف والأحـداث التـي أنطقـت المسيح بها ، واختلف سردها – الذي لم يقم على أي أسـاس طبيعـي – مـن كتيـب إلى آخر ، وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بالروايات الخاصة بالسيرة نفسها ، . فهي لا تحكي سوى فصول ومقتطفات من حياة المسيح لا رابط بينها ، وتختلف تفاصيلها باختلاف الرواة . فكان على محرري الأناجيل أن يغربلوا ثم يختاروا ، ثم ينسقوا ، سيرة متكاملة من هذه المتناثرات المشوشة .

وتصـفح الأناجيـل وحـده يكفـي لإقناعنـا بـأن مؤلفيهـا قـد توصـلوا إلى ((تركيبات)) واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث ، مما يتحتم معـه القـول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخـا ثابتـا يفـرض تسلسـل حوادثـه عليهم ، بل على العكس من ذلك اتبع كل هواه وخطتـه الخاصـة في تنسـيق وترتيـب مؤلفه ، ولا شك أيضا في أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحيـاة المسـيح ، فلـم يكـن عملهـم إذن سـوى أن يربطوا– في كثير أو قليل من المهارة– بين أطراف مـن الروايـات ، وأن يشـكلوا منهـا سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية ، كما أن عناصرها تبدو مجموعة في إطـار مصـطنع . وإننا لنلحظ في ثنايا هذه السيرة الإنجيلية نقصا كثيرا وفجوات خطيرة نلحظها حتـى في إنجيل مرقس الذي بلغ به الحرص أن تحاشى الحديث عن مولد عيسى وطفولته " [1]

إذن نحن لا نسـتطيع أن نعتمـد عـلى التـاريخ – وحـده – في الإلمـام الـدقيق والصادق والشامل والعميق بشخصية عيسى – عليه السلام – فالتاريخ يقصر عن ذلك ،

١- المصدر السابق – (٣٧- ٣٨)

ولا يستطيع أن يعيننا في ذلك بشيء ، جل ما يمكن أن يمدنا به ، بعض الملامح – وليست كل – لتلك الشخصية العظيمة ، حتى بعض تلك الملامح التي نستخلصها ونستنطق الأحداث والحوادث منها ينبغي أن نكون على حرص وحذر ،ونتأكد أن تلك الملامح هي ملامح المسيح ، وليست ملامح شخص آخر" وهكذا لم نعد نستطيع أن نميز في وضوح الجوانب التاريخية لشخصية عيسى ، ولم نعد نملك المراجع اللازمة لتحديد أحداث حياته في دقة .

وخلاصة القول فيما يتعلق بشخصيته أنه يمكن التكهن ببعض ملامحها من خلال الروايات الإنجيلية ؛ أما سيرته فليس لنا سوى الأمل في التعرف على شيء من مراحلها .والأمر في كلتا الحالتين لا يختلف عما قلناه فيما يختص بكل ما نسب إلى عيسى من تعاليم ، يجدر بنا عند بحثها ألا نؤكد شيئا منها إلا في حرص شديد "[1]

- **وتبقى الحقيقة .**

ليس أمامنا من مصادر عن حياة المسيح سوى ما توافر لنا من أناجيل ، فإن الاختلاف بينها في بعض الأحداث والتفاصيل ، ومعرفة أنها كتبت بعد زمن ليس بالقليل من خاتمة حياة المسيح على الأرض ، وأنها اعتمدت على الرواية الشفهية ، وكان عمادها العاطفة المشبوبة وليس العقل الرزين ، وأيضا جنوحها إلى المبالغة وليس الصدق الواقعي ، مع توافر كل هذا ، فإن الشك هنا نوع من الترف العلمي الذي لا تحتمله الأحداث ،ولا أحد يملك هذا النوع من الترف ، لأنه قد يؤدي بنا أن نخسر كثيرا ، بدلا من أن نكسب القليل ، وليس معنى ذلك أن نرتضي بالأشياء على علاتها ، أو نقبل ما لا يقبل ، أو نصدق ما لا يصدق ، ولكن عنصر الإيمان هنا يغني كل الغناء عن العقل والمنطق وكل آليات العلم من التحقق والتثبت ، وأن المسيح حقيقة كائنة

١ـ المصدر السابق – (٣٩)

وقائمة ومستقرة كحقائق هذا الكون المشاهد ، وقبل هذا وفوق كل هذا أن القرآن الكريم برهان ساطع ودليل دامغ على تلك الحقيقة .

ونحن إذا استجبنا للتحقق العلمي فيما ورد من أخبار ، وإذا أصغينا للشك المنهجي فيما وصل إلينا من أحداث وأقوال ، وإذا أخذنا في الاعتبار اختلاف الأناجيل في سرد سيرة السيد المسيح ، فكل هذا ينال – فعلا – من سيرة المسيح ، ولكنه لا ينال منها إلا في التفاصيل أو الأحداث والوقائع الهامشية ،التي لا تطعن في وجود المسيح ، أو تمثل خطرا على مكانه ومكانته ، فكل هذا لم ينل من جوهر الشخصية والرسالة في التاريخ ، هذا الجوهر هوما يميز تلك الرسالة عن بقية الرسالات ، أو ما يميز شخصية المسيح عن بقية الشخصيات ، وهو أن رسالة المسيح أضافت إلى الوجدان الإنساني ما لم تضفه أي رسالة تقدمت عليه ، وفتحت للإنسانية بابا لم يفتح لها من قبل ، بل وضعت أفاقا أرحب وأشمل للضمير الإنساني ليصل إلى الغاية والهدف والمقصد الحقيقي من وجوده ، وهو موقف الرسالة من الله ، فتلك الرسالة هي التي حملت على عاتقها تحديد أو تصحيح العلاقة التي تربط الخالق بالمخلوق ، فتلك العلاقة الجوهرية كانت مبهمة وغامضة ومشوشة ، وتبعا لذلك كان الوجود الإنساني غامضا ومبهما ومشوشا ، بعد ذلك استقامت تلك العلاقة على وجهها الحق ، وبالتالي استقام معنى أو مقصد الوجود الإنساني ، " ولم تكتب هذه الأناجيل في عصر السيد المسيح بل بعد عصره بجيلين ، ولكن مواضع الاتفاق فيها تدل على رسالة واحدة صدرت من وحي واحد ،ويؤكد لنا وحدة هذه الرسالة أن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى في ديانات ذلك العصر الكتابية أو غير الكتابية ، فقد كانت هناك ديانات بالشعائر الخفية والمراسم التقليدية ، وكانت هناك ديانات تفهم العلاقة بين الله والإنسان كأنها ضرب من علاقة الحاكم بالمحكوم أو الصانع بالمصنوع أو العلة بالمعلول ، ولكن الفكرة المسيحية التي قررتها الأقوال المتفقة في

الأناجيل تتميز كل التميز عن مجمل الأفكار الإسرائيلية أو الأفكار الهندية والمجوسية أو أفكار المؤمنين بعقائد الفلسفة أو العقائد السرية، فالعلاقة بين الإنسان وخالقه في بشارة السيد المسيح هي العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها وبين المكفول وكافلة ، وبين الرعية وراعيها ، ولم تتفق هذه الصفة في ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت في الديانة المسيحية ، وهي في رأينا علاقة جوهرية لا تقل في قوتها عن أسانيد التاريخ التي تبطل شكوك المترددين في وجود السيد المسيح "[1]

---

١ -الله – عباس محمود العقاد– (١٢٩- ١٣٠)

الباب الثاني عشر
المسيح في الإنجيل

مرت دعوة المسيح بثلاث مراحل هامة :

- أما المرحلة الأولى فهي مرحلة التبشير أو العرض والتمهيد ، وفي تلك المرحلة وضع المسيح برنامج الدعوة أو الأسلوب والطريقة أو الإستراتيجية التي سيتبناها هو أو تلاميذه
- أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التأصيل والترسيخ لمبادئ الدعوة ومحاولة كسب أرض ومؤيدين والدفاع بل والهجوم على المعارضين وتفنيد حججهم وفضح دعاويهم ، بدون الدخول معهم في صدام أو مجابهة
- والمرحلة الثالثة وتنقسم إلى قسمين،الأول : وهو إتمام وإكمال الدعوة ، والثاني : وهو الاستعداد للرحيل عن العالم .

ونلاحظ أن كل مرحلة من تلك المراحل كانت شخصية المسيح تتشكل وفقا لمتطلبات المرحلة ، أو أن طريقة المسيح كانت تتنوع وتتغير لدواعي وضروريات المرحلة ، نعم كانت هناك ثوابت في شخصية المسيح لا تتغير ولا تتبدل ، وتلك الثوابت هي التي تحفظ على الشخصية ملامحها الرئيسة ، وجوهرها الثابت الراسخ ، وهذا الجوهر هو الذي يغير ويبدل أحوال العالم والناس من حال إلى حال ، ولكن هناك سمات وملامح في الشخصية تتصف بالمرونة والمطاوعة ، كنوع من المراجعة أو المناورة ، وأي دعوة لابد أن تمر بمراحل عديدة ، وكل مرحلة تختلف عن سابقتها واللاحقة عليها ، وهذا الاختلاف يستوجب اختلاف في الطريقة والأسلوب ، ولا أحد ينكر أن شخصية المسيح قد طرأ عليها تغيير أو تطوير ونمو في الوعي والإدراك ، على الأقل من خلال التعامل مع الناس على مختلف طباعهم ومشاربهم ومذاهبهم ، وردود أفعالهم وفقا لعقائدهم وقناعتهم الفكرية ، فليست شخصية المسيح هي بعد أن بدأ يدعو الناس مثلها قبل الدعوة ، وليست هي حينما وصل إلى مرحلة النهاية ،

فلا أحد ينكر أن ما من شخصية إنسانية إلا – حتما – وتتعرض للتغير والتبدل ، الفرق بين شخصيات الأنبياء وغيرهم ،أن شخصية النبي ليس أمامها إلا طريق واحد ، وهو مزيد من النمو والوعي والإدراك ، والتماسك والتمسك بتلك المبادئ والقيم ،الصعود والارتقاء نحو الكمال والاكتمال الإنساني ، الفرق بين شخصية النبي وغيره ، أن لديه قدره هائلة لاستخراج تلك الطاقات والإمكانات الهائلة التي تشتمل عليها شخصيته العظيمة ، ليس هذا فحسب ، بل توظيف واستثمار تلك الطاقات والإمكانات كأفضل وأحسن وأرقى وأنبل ما يكون في خدمة الدعوة ، وتجنيد كافة القوى والعناصر سواء كانت بشرية أو طبيعية في حفظ ورعاية تلك الدعوة .فشخصية النبي لا تنتهي بنهايته ، بل هي ممتدة في كل الأزمنة والأمكنة ، بل وجودها الحقيقي لا يكون إلا بعد نهايته ، فتلك النهاية هي البداية الحقيقية ، وهي الدليل والبرهان والاختبار ،على نجاح الدعوة مجردة عن الداعي ، لأن أي دعوة في بدايتها ومهدها تستمد مددا وقوة من الداعي لها ،إلا أنها بعد ذلك لا تستمد هذا المدد والقوة إلا من ذاتها ، ومن تعاليمها ومبادئها وقيمها ، وهذا هو الفرق بين الدعوات الصادقة الحقة والدعوات الكاذبة الباطلة ، فتلك تموت بموت صاحبها ، بل قد تموت قبل موته ، أما الدعوات الصادقة ، فتحيا وتعيش وتنتشر وتعم أنوارها الأرجاء ، حتى بعد موت الداعي .

❖ المرحلة الأولى (المطارَد)

نعم ، عاش المسيح في بداية فترة دعوته مطاردا، ملاحقا من كل المحيطين به ، فهناك اليهود على مختلف فئاتهم ومذاهبهم واتجاهاتهم ، البعض يريد إسكاته أو سجنه أو قتله ، وهذا هو الاغتيال المادي ، والبعض يريد إحراجه أو تعجيزه ، من خلال وضع الشراك للإيقاع به لإظهاره بمظهر يدان عليه أو يحاكم من أجله، ودفعه دفعا ل

مخالفة التوراة في بعض أحكامها ، أو أن يتولى إصدار أحكام من أي نوع ، وهو ما ليس له حق فيه – في عرفهم وفهمهم – أو توريطه لينازع الحكم اليوناني سلطته وسلطانه ، أو مطالبته – بصفة مستمرة – بأن يجرى معجزات ليدلل ويبرهن على صدق نبوته ،وهذا هو الاغتيال المعنوي .

ولا يظن البعض أن السيد المسيح كان – طوال الوقت- سمحا لينا مستسلما مستكينا مستضعفا ، يتلقى الضربات أو الطعنات ، أو يعلم بالمؤامرات التي كانت تدبر له وتحاك حوله بليل بدون أن يحرك ساكنا ، أو أنه كان يسير نحو المخاطر – وله مندوحة عنها – بدون أن يفكر أو يتدبر أمره لكي يبتعد عن الخطر أو يبعد الخطر عنه ، فتلك صورة فيها الكثير من الشطط والانحراف ، وإن انطبقت ملامح تلك الصورة على أحد فأبعد ما تكون عن شخصية المسيح ، ومصدر الخطأ هذا أن البعض لم يدرك أن ثم تغييرا قد حدث في شخصية المسيح، أو تبدل في أسلوبه وطريقته في التعامل مع العالم حوله ، فقد تبنى المسيح في أول سني دعوته طريقة المهادنة واللين والصبر والدعوة إلى التسامح والرحمة ، وبناء جسور من التفاهم والحوار والمناقشة الهادئة الهادفة مع من حوله ، وربما **طريقته تلك ترجع إلى سببين** :

– أنه كان متأثرا بنهاية (يوحنا المعمدان) ، وإن تلك النهاية المؤسفة المؤلمة والمحزنة ، لم تكن إلا نتيجة لطريقة وأسلوب (يوحنا) الصادم والمزلزل والمجابه لكل من حوله ، فهو لم يكن يبالي بالمخاطر التي تحيط به ، ولا بالشراك والفخاخ التي تنصب له ، كان كالعاصفة التي تريد أن تجتاح كل ما يقف أمامها أو يحيل بينها وبين أن تصل إلى غايتها ، أو كالشلال الهادر الذي يكتسح كل ما يريد أن يعطل من سرعته أو يحول مجراه أو مسيرته ، أو كالصاعقة التي تريد ألا تبقي ولا تذر ، نعم ، نهاية (يوحنا) لم تفارق مخيلة المسيح ، وليس من المنطقي ولا المعقول أن يأتي المسيح بعد (يوحنا) ويتبنى نفس الأسلوب وذات الطريقة، لا خوفا من أن تكون نهايته هي نفس

نهاية (يوحنا) ولكن لأن شخصية المسيح تختلف عن شخصية (يوحنا) أو لأن طريقة (يوحنا) قد استنفدت أغراضها وأدت دورها ، أو أن تلك الطريقة انتهت بانتهاء دواعيها ومبرراتها "لقد كان يختلف عن المعمدان في أسلوب التبشير، إذ تخلى تماما عن حياة الزهد وعنف الخطابة ، ولكنه لم يخرج عن المبادئ الأساسية التي كان يفسرها يوحنا ((مملكة الله وشيكة ترقبوا الانقلاب العظيم الذي سوف يطهر العالم من الظلم والشر ، توبوا إن أردتم أن تحتلوا مكانا بين صفوف المختارين))"[1]

- كان المسيح متسقا مع شخصيته ومع طبيعة دعوته ومع زمنه ،فمن طبيعة الأمور ومن المنطقي أن تبدأ أي دعوة بداية هادئة ، وأن تكون طبيعة الداعي سمحة لينة رحيمة ،وليست خشنة جافية فظة ،فهو في مرحلة عرض ما لديه على الناس ، وتلك المرحلة في حاجة أن تكون هناك قوة جذب ، أو على الأقل لا يكون هناك قوة طرد ، أو عنصر من عناصر التنفير ، " واصطبغت رسالته الأولى في الجليل بصبغة مميزة وهي صبغة الرسالة القومية إلى بني إسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع "[2] هذا من ناحية ومن ناحية أخرى طبيعة هؤلاء الناس الذين بدأ بهم المسيح كانوا من عامة الناس المساكين المطحونين المسحوقين ، الذين عضهم الدهر بنابه ،وهؤلاء في مسيس الحاجة إلى يد رحيمة تهدهد كيانهم ، إلى قلب رءوف يداوي جراحهم، إلى نفس نبيلة تلملم شتاتهم ، إلى من يبشرهم بأنهم على أعتاب ملكوت الله ، وليس أمامهم إلا أن يخلصوا نياتهم ويصفوا نفوسهم ويخلصوا العمل والعبادة ليلجوا من أوسع أبواب هذا العالم ،فإن كان قدرهم قد حرمهم من أن يكون لهم مكان في هذا العالم ، وأن هذا العالم يناصبهم العداء ، وأوقع بهم الكثير من الظلم

١- المسيحية نشأتها وتطورها – شارل جينيير– ترجمة الإمام عبد الحليم محمود (١٣)
٢- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (٢٠٤)

والقهر ، فهناك عالم آخر سيجدون فيه ذاتهم ، وينعمون بالرحمة والأنصاف والعدل ، وأول موعظة بدأ بها المسيح وهي موعظة الجبل كانت تدلل على ذلك " طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين ، افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم .

أنتم ملح الأرض ، ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح ، لا يصلح بعد لشيء إلا أن يطرح ويداس من الناس ، أنتم نور العالم ، لا يمكن أن تخفي مدينة موضوعة على جبل ،ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت ، فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات " [1]

فمنذ البداية ، حدد المسيح منهجه وهدفه والأدوات والوسائل التي سيستعين بها وكانت طبيعة المرحلة الأولى هو أن يتجنب الصدام أو المواجهة ، يختار الأماكن التي يكرز فيها بكل دقة مراعيا أن تكون بعيدة عن الازدحام وبعيدة عن المعابد أو تجمعات اليهود المتعصبين ، فهي إما أن تكون فوق جبل ، أو على شاطئ قريبة من البحر ، أو في أحد الوديان ، أو في بيت من البيوت ، وهو لا يدعو أحدا ، ولكن يترك الناس يهون إليه ، وهو إذا شعر بأن هناك نوعا من التحدي أو العداء أو الهجوم على الفور يترك هذا المكان وهذا الجمع ، ليبحث عن مكان آخر وإناس آخرين ، لا يريد

١- إنجيل متى – الإصحاح الخامس - صفحة (٩-١٠)

أي شيء من شأنه أن يعرقل الدعوة أو يشوهها أو يحدث لغطا حولها ، يريدها أن تنساب إلى نفوس الناس وتتخلل عالمهم كما يتخلل النور والهواء هذا العالم ، يعلم كم المعوقات والحواجز والأخطار والمؤامرات والأحقاد والكراهية التي ستثيرها دعوته ، وهو في البداية لا يريد أن يستفز أو يستنفر أحدا ، يريد أن يكون ما يشبه الحضانة أو المهد ، حتى تستوي وتقوى دعوته ، يريد أن يسمع أكبر عدد من الناس ، ويعرفهم ويفهمهم جوهر دعوته ، إنه كرجل يقف وسط سرب من الطير الخائف الفزع الوجل ، الذي قد يطير هاربا من أقل حركة يظنها تمثل خطرا عليه ، والمطلوب منه أن يبذر بذور الطمأنينة والراحة والسكينة ، حتى يهدأ الطير ويسكن ويقبل عليه ،ووصيته لتلاميذه الاثنا عشر تجلي ذلك ، وهو ما كان يفعله المسيح بالضبط ويحرص عليه " إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ، وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا مرضى طهروا برصا ، أقيموا موتى ،أخرجوا شياطين ، مجانا أخذتم مجانا أعطوا ، لا تقتنوا ذهبا، ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه .

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا ، وحين تدخلون البيت سلموا عليه ، فإن كان البيت مستحقا فليأت سلامكم ، ولكن إن لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم إليكم ، ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم ، الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة ، ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمائم ، ولكن احذروا من الناس ، لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم ، فمتى أسلموكم فلا تهتموا

كيف أو بما تتكلمون ، لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به ، لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم ، وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت ، والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم ، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي ، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ، ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى ، فإني الحق أقول لكم لا تكلمون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان "[1]

في تلك الوصية ،أو التعاليم ، أو البرنامج الذي وضعه المسيح لتلاميذه ، يحدد لهم أماكن لا يدخلوها ،وإلى من يقصدون ، وماذا يقولون ، وماذا يفعلون ، والأسلوب والطريقة التي سيتبعونها في التعامل مع الناس ،وهذا البرنامج يوضح ويجلي ملامح تلك المرحلة ، فقد كلفهم بأن يشفوا مرضى ويطهروا برصا، ويقيموا موتى ،ويخرجوا شياطين ، وكل هذا لا يتقاضون عليه أجرا ، فهم دعاة إلى الله ، والداعي إلى الله ينبغي أن يكون متجردا لهذا الهدف ، ويجب أن يكون منظره وهيئته قبل كلامه وأفعاله يؤكدان ويؤصلان هذا الهدف والمقصد ، ونصحهم بالانسحاب فورا من المكان الذي فيه رفض أو عدم اقتناع بهم ، فهم كغنم وسط قطيع من الذئاب ، والنجاة والخلاص في الهرب ، ويجب أن يتسلحوا بالحكمة ، فلا يشعر بهم أحد ولا يثيرون ضجة أو ضوضاء أو لغطا ولا يدخلون في خلافات أو جدل، وأن يكونوا واضحين قربين من الناس لا يكلفونهم شططا أو عنتا ، وحرص على أن يفتح لهم طريقا إلى الله ، فمتى قبض عليكم لا تفكروا في شيء ولا تقولوا شيئا ، واتركوا الأمر لله الذي يلهمكم ما تتكلمون به .ويؤكد مرة أخرى على أمر الانسحاب والهروب ، فإذا ضاقت بكم مدينة وتم طردكم ، فالهروب هو الوسيلة الفضلى .

١- إنجيل متى – الإصحاح العاشر – صفحة (١٧-١٨)

كان المسيح في تلك المرحلة كمن يسير في حقل مزروع بالألغام ، لا يريد أن يصطدم بلغم أو يجعل لغما يصطدم به ، يريد أن يخرج سالما من هذا الحقل أو على الأقل يؤجل ما أمكنه لحظة الصدام وإن كان يعلم أنها حتما قادمة ، ولكن الآن ليتجنب كل ما من شأنه أن يعرقل طريقه أو يعطل دعوته ، وهو قد علم وخبر حقيقة كل من حوله ، وإن أعلن الحرب – في تلك المرحلة – وفتح بابا للصدام والمجابهة ، فهو – لا ريب – الخاسر " منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل ((السلطة)) ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بإبطال أو بإنفاذ : لا يبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة في زمنه ، فإنه – كما تقدم – قد نشأ في دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمتحكمين: ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه ، وأذنابه وتابعيه ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحكام ، فإذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يساوي جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التي تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن المحقق أن الشر الذي ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذي يتأتى من ورائه ، إن تأتى ، وقد يدرك بإصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الإنسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدي أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين " [1]

١-عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٢٥)

أمران فهمهما المسيح فهما دقيقا ، وتصرف وفق ما تقتضيه مصلحة الدعوة ،

– حالة العالم حوله ، فقد وصل إلى درجة بعيدة من الفساد والبوار ، وأنه ليس في حاجة إلى مزيد من الشرائع أو القوانين لإصلاحه ، ولكن العلة والآفة في النفس التي تؤمن وتقتنع بقيمة الصلاح والرغبة فيه والسعي إلى تطبيقه حتى ولو لم يكن ثم قوانين أو شرائع ،لأن هدف ومقصد القوانين والشرائع – من ضمن مقاصدها – تأصيل وترسيخ وتقوية الإيمان والاقتناع بقيمة العدل والإصلاح ، وإن أخفقت القوانين والشرائع في هذا فضررها أكثر من نفعها ، بل قد لا يكون لها نفع بالمرة ، لأنها في ذلك ستكون وسيلة للخداع والتضليل ، فما حاجة العالم إلى قوانين وشرائع إن صلحت النفوس ، وصح وقوي إيمان الإنسان بحق الآخرين ، ليس هذا فحسب بل آثر حق الآخرين على حقه ، فإذا حارب كل إنسان آفة الأثرة في نفسه ، أو جعلها تشغل حيزا ضئيلا في نفسه ولا تؤثر على قراراته أو تصرفاته ، فقد وصل العالم إلى بر الأمان ، وكثيرا من تعاليم المسيح كانت تهدف – أول ما تهدف – إلى مساعدة ومعاونة الإنسان في هذه الحرب ، ودفعه وتبصيره إلى أن يخرج منتصرا ، وهذا النصر ليس له فحسب، ولكنه نصر وفوز للقيم والمبادئ ، العالم في حاجة إلى قلب كبير يسعه ، ويغفر لها آثامه وذنوبه وخطاياه ، ليس في حاجة إلى قاض صارم يصدر عليه أحكاما بالإدانة ، ليس في حاجة إلى جلاد يوقع به العقاب عما اقترفه ، العالم في حاجة إلى الصفح والغفران والرحمة والتسامح ، العالم في حاجة إلى من يجعله يتذوق طعم حلاوة الحب ، لكل الناس اليهودي والروماني المؤمن والملحد الرجل والمرأة الصالحة والمرأة الخاطئة ، فتلك كلها اعتبارات وتميزت لا يقيم لها الحب وزنا ، فميزان الحب أن البشر – جميعهم – متساوون في كل شيء ، ومن شاء أن يتمايز عن الآخرين ، فبمقدار ما تتسع نفسه لهذا القبس الإلهي ، والمدد الرباني وهو الحب ، وبتلك اللغة –

لغة الحب – والتي لا يجيد المسيح سواها – تحدث إلى العالم ،وللأسف استغرق العالم وقتا طويلا حتى استطاع أن يفهم حروف تلك اللغة ، ومع ذلك فقد ظل زمنا طويلا يتخبط في فهم المقصد الحقيقي من كلمات السيد المسيح " فهو لم يتحدث إلى الشعب باللغة التي كان ينتظرها منه : كان يدعو إلى التأمل في النفس وحب الغير ، وإلى التواضع والإيمان العميق بالله ، في حين كان الناس يترقبون دعوة إلى الصراع المسلح وإعلانا للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد . إنه لم يقل لهم : ((قوموا!.. فالمسيح الذي اختاره ((يهوه)) معكم بل قال : ((مهدوا – بالتوبة – ليوم الحساب القريب)) . لم يطلب منهم العمل والكفاح ، بل رجاهم الصبر، واتخاذ موقف أخلاقي وديني من شأنه أن يحول هذا الصبر إلى نوع من الفروض الحتمية ، فيه ما فيه من القسوة على النفس . كان من أبناء إسرائيل ، ولكنه لم يتعصب لقومه ، ولم يتخذهم وحدهم في غالب الأمر موضوعا لدعوته : فقد كان يستوي في نظره الجندي الروماني التقي المؤمن ، أو المرأة الكنعانية المخلصة ، واليهودي الأصيل الذي يأتي إليه معلنا تصديقه له ، بل إن الكافر الذي يتحول قلبه إلى الإيمان كان يفضل بكثير في نظره من لم يصدق من اليهود .

كان عيسى يتحدث كثيرا عن العدل ، وعن السلام ، وعن شوق النفس إلى الوصول إلى سماء الأب كما كان يتحدث عن التوكل والصبر ولم يتحدث قط بوجوب الثورة ، أو بقرب انتصار شعب الله المختار على سائر الأمم ، وفي ذلك كله نجد نحن أصالته وجاذبيته الكبرى "[1]

نظر المسيح إلى فساد العالم إلى أنه نوع من المرض العضال ، وأن الطريق الأوحد للشفاء من هذا المرض ليس في حاجة إلى شدة وقسوة أو بتر واستئصال، أو

١- المسيحية نشأتها وتطورها – شارل جينيير– ترجمة الإمام عبد الحليم محمود

سن قوانين وابتداع شرائع ، ولكن معالجة مكامن الداء بمراهم الحب والرحمة والتسامح والمغفرة ،وأن المريض في حاجة إلى الصبر وإلى أن نتحمل ضيقه وتأففه وأحيانا غضبه وكراهيته ، ونبشره بالشفاء والبرء من علله وأمراضه ، من أن نوجه له الوعيد والتحذير والتهديد ،وننذره بالعذاب والويلات .

- كان المسيح يعلم أن دعوته ضعيفة واهنة ، ليس ضعفا ووهنا يمس بنية دعوته ،– فتلك الدعوة أقوى ما تكون الدعوات – ولكن لأن القوة والبطش والشدة والغلظة ليس لها مكان في صميم دعوته ، ذلك لأن فكرة العداوة أو الخصومة – أن يكون عدوا لأحد أو أن يكون أحد عدوا أو خصما له لا أصل لها في دعوته أو تعاليمه ،فهو لم يشغل باله أن يكون هناك مكان قوى أو حصن تحتمي فيه الدعوة حتى تنمو وتقوى ثم تنطلق منه بعد ذلك ، بل كان يتنقل من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى، كذلك لم يشغل باله أن يعد رجالا أو جنودا أقوياء يدافعون – إذا لزم الأمر عن الدعوة وصاحبها – ولكن كان جل اهتمامه أن يعد تلاميذ ودعاة ، وكان لا يحذرهم من شيء قدر تحذيره لهم من اللجوء إلى أساليب القوة ، أو الحدة والحماسة في النقاش والجدال ، وإن شعروا بالتعنت أو التعصب ممن يتحدثون معه فعليهم بترك المكان على الفور، وهذا واضح جلى في نصائحه لهم .

ولكن أيمكن أن تكون هناك دعوة لا سلاح لها تدافع به عن نفسها ؟

أيمكن أن يكون هناك داع بدون جنود حوله يلوذ بهم وقت الخطر ، ويدافعون عنه ضد من يريد به كيدا أو خطرا؟

وإذا كان عيسى – عليه السلام – لم يدع إلى الجهاد وحمل السلاح للدفاع عن دعوته، لماذا حمل محمد – صلى الله عليه وسلم – السلاح ودعا إلى الجهاد ؟

" ولقد كان هذا مثار دهشة وعجب لدى النقاد ، فهم لا يفهمون أن (الداعية) يدعو إلى حمل السلاح ، ولكن إذا كان النبي قد حمل السيف ، فإنه كان يعلم جيدا أن مكة لن تلقي السلاح وسيعطيه التاريخ على ذلك البرهان القاطع .

ولا مجال هنا لأن نعقد موازنة بين المسيحية والإسلام في هذه النقطة ، فإن الظروف التاريخية ليست واحدة ، إذ تواجه الأولى من الداخل دولة منظمة تحطم أجهزتها على حين أن الإسلام يواجه دولة منظمة نوعا ما من الخارج هي مكة ، فكان عليه أن يختار بين أن يحطمها أو يتحطم ، وفضلا عن ذلك فإن هذه الظروف يفرضها مجرى الحوادث نفسه ، إذ إن الجهاد يعد من الناحية التاريخية نتيجة للهجرة ، هذه الظاهرة نفسها قد حدثت في تاريخ اليهودية ، عندما واجه بنو إسرائيل بقيادة موسى ويوشع من الخارج دولا منظمة على شاطئ نهر الأردن" [1]

دعوة جديدة ، لاسيما في عالم العقائد ، أو عقيدة العالم ، لابد أن ينتج عنها معارك ، ومعارك دامية ، فالإنسان أشرس ما يكون حينما تستدعيه أو تناديه أو تستنفره عقيدة ما، معتقدا فيها أنها الحق الصراح ، وما غيرها باطل الأباطيل، أو في بقائها نوع من الحفاظ على مصالحه ، أو استمرار لعالمه الذي ألفه وتعود عليه ، لذلك فأسباب تمسك الإنسان بعقيدته كثيرة ومتعددة ، وهو على استعداد على أن يتخلى عن كل شيء وأي شيء ، مدفوعا بمبررات وأسباب ، يراها – والآخرون – منطقية وطبيعية ، إلا عقيدته ، فليس هناك من سبب يجعل الإنسان أن يتخلى عن عقيدته ، إلا إذا كان على استعداد وقدرة أن ينسلخ عن عالمه ، بل عن جلده هو؛ لأن بتغير عقيدة الإنسان يتغير الكون بأكمله ، ويتبدل الوجود بوجود آخر، **لذلك كان يقول السيد المسيح :**

" جئت لألقي على الأرض نارا، فحبذا لو تضرم " ،إذنك أن عيسى–عليه السلام– يعلم أن دعوته ستزلزل أركان عقائد العالم ، وأن العالم لن يسمح له أن يتم مشروعه العقائدي هذا ، وأنه سيضع الكثير من العقبات والعراقيل لإفشال مشروعه هذا ،ولكن إذا فهم هذا الموقف العدائي من الرومان – لأن أي حركة أو دعوة تلتف

١- الظاهرة القرآنية – مالك بن نبي – صفحة (١٩٨- ١٩٩)

حولها الجماهير تمثل تهديدا أو خطرا على هيمنة الرومان في تلك البلاد – فلا يفهم من اليهود أنفسهم ! وهذا ما أدركه عيسى وعامة الشعب " ولكن هذا الشعب لا يجد لدى حكامه من القساوسة مشاركة في أمله، بل يجدهم على حذر من المشاكل التي قد تترتب عليه فيما يتعلق بصلاتهم بالمستعمر الأجنبي ؛ بل نستطيع القول بأن إطارات العلماء التي كانت تسوس الشعب لم ترحب كثيرا بأي حركة نابعة من أعماق الجماهير وقد أكد أحد العلماء أن : ((لا تقوى لدى الجهلاء)) "[1]

وعلماء الدين المتعصبون من اليهود اتخذوا موقفا حادا من المسيح ودعوته، ولا أظن أن لهذا الموقف أي مبرر سوى الحقد والحسد ،والخوف على مكانتهم وسط عامة الناس ، لاسيما وقد رأوا في بعض أقواله نقضا لكثير من الثوابت والرواسخ التي يقوم عليها أساس الدين في فهمهم " أما علماء الدين فقد رأوا فيه رجلا يتطاول عليهم ، ويعتقد في سذاجته أن الحكمة يمكن أن تحل محل العلم ، وأن البصيرة يمكن أن تغني عن المنطق ، وكان يتحدث إليهم في ثقة وقوة ، لأنه كان يشعر بتأييد من الله في نفسه ، ولم يكن ليعجبه منطقهم ، ولم يكن توثب عاطفته الدينية الفطرية إلا ليتصادم مع تفكيرهم المتشبث بالتدقيق إلى أقصى الحدود في الأمور الدينية ، فكان من الطبيعي أن تنشأ العداوة بين الطرفين "[2]

ولم يكن أمام المسيح إلا أمران، إما أن يواجه، أو يتجنب المواجهة:

أما أن يواجه ، فليس من الحكمة لا سيما أن جميع الجبهات مفتوحة عليه ، ولا قبل له بها ، هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى أن المواجهة في تلك المرحلة لا تتناسب مع البرنامج أو الخطة التي وضعها وسار عليها وطلب من تلاميذه أن يسيروا عليها .

وأن يتجنب المواجهة ، فهذا نوع من التراجع أو الانسحاب لا يتفق ضرورات ومتطلبات أي دعوة ، ولا يتسق مع طبيعة ومزاج أي داع .

١- المسيحية نشأتها وتطورها – شارل جينيير– ترجمة الإمام عبد الحليم محمود (٤٧)
٢- المصدر السابق (٥٩)

إذن عليه أن يواجه ، وفي نفس الوقت لا يواجه ، وهذا لا يتـأتى إلا في حالـة أن يحدد السيد المسيح طبيعة السلاح الذي سيستخدمه وكذلك هو الذي يحدد ميـدان المواجهة وزمنها

أما طبيعة السلاح – وسلاح أغلب الدعاة – فهـي الحكمـة والموعظـة الحسـنة ، مـن خلال الحوار الهادئ ، والمناقشة الهادفة المثمرة ، والجدال المنطقـي والعقـلاني ، ولـيس هناك من إنسان يتفوق على السيد المسيح في تلك الأمور ،فهو الفارس الذي لا يشـق له غبار ، وأمير الحوار الهادئ المثمر، الذي من شأنه القضاء على أي اسـتفزاز أو عنـاد من خصمه ، بل من شأنه انتزاع الخصومة واللدد من محـاورك ، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [سـورة المؤمنـون:٩٦] ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٤]

وبذلك – في أسوأ الأحوال ، تكون قد جردت من خصمك كل أسلحته ، أو أبطلت مفعولها ، وليس أمامه – في تلك الحالة – إلا أن يستعمل نفس السـلاح الـذي تستخدمه ، أو يقتنع ويؤمن بما تقولـه ، ويعلـن التسـليم والاستسـلام ، وقـد لجـأ إلى استخدام مثل هذا الأسلوب – أو قريب منه –في عصرنا الحديث بعض الزعماء حيـنما أدركوا أن خصمهم من القوة بحيث لا يستطيعون مواجهتـه ، فلجـأوا إلى اسـتخدام سلاح المقاومة السلبية وهو تجنب المواجهة أو الصدام أو اللجـوء إلى القـوة ، لأنـه في تلك الحالة سيحول ضعفه إلى قوة ، وقوة خصمه إلى ضعف ، وهذا ما لجأ إليه الزعيم الهندي ((غاندي)) في مقاومته للاحتلال الإنجليزي ،وبالفعل انتصر انتصارا عظـيما أمام الإمبراطورية الإنجليزية في ذلك الوقت .

● أما ميدان المواجهة ، فهنا أيضا السيد المسيح هو الذي كـان يحـدد الأمـاكن التي سيتواجد فيها ويلقى مواعظه وتعاليمه ، ولا يظن ظان أن الأماكن كان يتم

• اختيارها عشوائيا ، ولكن كان يتم اختيارها بدقة شديدة ، فهو مكان هادئ ومتسع ومنفتح على السماء ، يتناسب مع تعاليم ومواعظ السيد المسيح ،وفي نفس الوقت بعيدا عن الازدحام والضوضاء واللغط ،والأهم بعيدا عن الأفاعي والثعالب والشياطين التي تريد القضاء عليه ، وهؤلاء يعيشون في المدن أو المعابد ، وإلى أن تصل أخبار تجمع السيد المسيح مع الناس إلى أمثال هؤلاء حيث يكونون ، يكون السيد المسيح قد انتهى من مواعظه ،حتى لو وصل هؤلاء، فإنه يكون قد أوشك على الانتهاء من موعظته ، ومن العسير عليهم – في تلك الأماكن – الإمساك به ، ومن السير عليه الإفلات منهم ، وكانت تلك الأماكن على الساحل قريبا من البحر ، أو في الرياض والبساتين ، والوديان ، أو على جبل ، فتلك الأماكن كانت محببة إلى السيد المسيح لما تحفل به من نباتات وأزهار وطيور ونور .وقد تغيرت الأماكن بتغير المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة .

• أما الزمان ، فهو في الأغلب في رابعة النهار ، حيث الشمس تثير في النفوس الصحو والدفء والإشراق ، والعقول تكون في قمة نشاطها وحيويتها ، قادرة على استيعاب ما يقوله السيد المسيح ، والقلوب متفتحة لديها قابلية لتتشرب تلك المعاني السامية والمقاصد الراقية التي يهدف إليها المعلم من خلال مواعظه ، وأحاديثه .

ميزات تلك المرحلة (المعجزات)

منذ اللحظة الأولى التي تحدث فيها السيد المسيح إلى الناس ، أدركوا أنهم أمام شخص يختلف عن كل هؤلاء الذين تحدثوا إليهم ، واستمعوا لهم ، وينبغي أن نوضح شيئا هاما ، أن شخصية الأنبياء لها جلالها المهيمن والطاغي ، ولها – كذلك – تأثيرها العميق والأصيل والممتد ، هذا شخص تم اختياره واصطفائه من قبل الله – y – ووهب مميزات وصفات تؤهله وتعده لأشرف وأنبل وأجل مهمة ، وهو أن يكون رسول الله إلى الناس ، وهو مؤيد وملهم من الله ، شخص يتحدث عن الله عن علم

وبصيرة ووعي وإدراك ، أو يتحدث الله من خلالـه إلى النـاس ، حيـنما يقـف هذا الشخص ويتحدث إلى النـاس ،هنـاك شيء خفـي يسرـي منـه إلـيهم ،يجـذبهم ، يتملكهم ، يستحوذ عليهم ،إنه يثير في النـاس ويحـرك داخلهـم أجمـل وأنبـل وأرقـى وأسمي ما وضع الله في جبلة الإنسان ، بل هو يبـث مـن فـيض مـا منحـه الله فـيهم ، فيجعلهم يبصرون ما لم يكن يبصرونه ، ويسمعون ما لم يكن يسمعونه ،ويشعرون بـما لم يكن يشعرون به ، إنه يخلقهم خلقا آخر ، أو قل إنه يحيهم حياة غير تلك التي كـانوا يحيونها ، إنه يأخذ بأيديهم بكل حب وود ورحمة ليهديهم ويرشدهم ، إلى النبع الإلهـي الذي من خلاله يتصلون بالخالق الأعظم ، فهل يصـل الرسـول إلى هـذا الهـدف مـن خلال كلماته ونصائحه وتعاليمه ؟ أم أنه يصل من خلال أفعاله وتصرفاته ومواقفـه ؟ أم من خلال تلك المعجزات التي يجريها الله – y – علي يديه،وتعتبر دليل وبرهـان على صدق دعوته ؟ أم من خلال شخصيته الصادقة الواثقة المقنعة ؟

هل النبي في حاجة – بصفة خاصة– إلى واحدة من هؤلاء ؟ أم أنـه في حاجـة إليها كلها مجتمعه ؟ بل في حاجة إلى أكثر من ذلـك ليحقـق هدفـه الـذي يـرضى عنـه ويرضى الله عنه ؟

في الحقيقة الأمر ليس متعلقا بالنبي بقدر تعلقه بالمحيطين بالنبي ، أو المتلقـين عن النبي .

فهناك من يؤمن بمجرد أن تقع عيناه على النبي .

وهناك من يؤمن بمجرد أن يسمع عن النبي .

وهناك من يؤمن بمجرد أن يسمع من النبي .

وهناك من يؤمن بعد أن يقنعه النبي ويحاوره ويناقشه .

وهناك من يؤمن بعد أن يرى معجزة واحدة تجرى على يد النبي .

وهناك من يؤمن بعد أن يرى المعجزات تجري تترى على يد النبي .

وهناك من لا يؤمن حتى ولو اجتمعت كل تلك الأمور في وقت واحد .

أما الذي آمن بمجرد أن وقعت عيناه على النبي ، فـذلك الـذي كانـت نفسـه تتشوق وتتلهف إلى مقابلة هذا الشخص ، فطيفه الغامض يلاحقه في كل وقت ، وهو يحاول أن يتخيله ، يرسم صورة له ، ويضع من فكـره وعقلـه ملامـح تلـك الصـورة النبيلة الراقية ،ويأنس ويسعد بملامح تلك الصورة ، التي تشيع في نفسه بردا وسلاما وسرورا وسعادة ، حتى إذا رآه في الحقيقة ، يرى ما رسمه في خيالـه تنطبـق عليـه ، أو هي قريبة منه ، أو أن الحقيقة أجمل وأبهى وأجل ، المهم أنه قد وجد ما كان يبحث عنـه ،ومتعلقا به ، ويتلهف ويحن إليه، وكأن كانت هناك علاقة وثيقة ومعرفة متينة بينهما ، واللقاء الذي يحدث – أول مرة – كأنه تجديد لتلك العلاقة السابقة بيـنهما ، هنـا نـوع قوى من التجاذب الخفي الغامض ، فشخصية النبي تجذبه ، وهو ينجـذب إليـه ، ولا يستريح الاثنان ويهدآن إلا حينما يلتقيان ، وإلا بما تفسر ما حدث بين رسول الله – ﷺ – وأبي بكر الصديق ؟

ليس هناك من تفسير لإيمان أبي بكر إلا أن نفسه النبيلة الراقيـة العـامرة بكـل الفضائل والمكرمات ، قد رسمت وصورت ووضعت ملامح لشخصية النبي ، ورآها تنطبق انطباقا عظيما على محمد ، ، فسارعت نفسه إلى التمسـك والتشـبث بـما رأتـه في الحقيقة ، وكان يشغل بالها في الخيال ، وتصور فرحة وسعادة إنسان يـرى أجمـل مـا في الخيال متجسدا أمامه حقيقة في صورة إنسان من لحم ودم وأعصاب !

أما الذي يؤمن بمجرد أن يسمع عن النبي ، فـذلك الـذي يعلـم أن أوضـاع العالم المتردية والمزرية في حاجة إلى مصلح ، فهو ينتظر ويتلفت أي مصلح ، لا يصـلح من شأن العالم ، ولكن على الأقل يمنع من ترديه أكثر ، فهـو في هـذا الأمـر قنـوع ،لا يريد الكثير ، حتى إذا سمع عن النبي سارع بالإيمان به ، لأن هذا أكثر مما يتوقعه بكثير

ينتظر أي مصلح من البشر يهدئ من تردى واضمحلال العالم ، فإذا به بنبي ، سيغير ويبدل العالم ويخلقه خلقا آخر ، فهو كان على استعداد نفسي وتهيئة وجدانية ، وترقب عقلي ، أن يتبنى دعوة أي مصلح من البشر ، من شأنها أن تنقذ العالم مما هو سائر نحوه أما الذي يؤمن بمجرد أن يسمع من النبي ، فذلك الذي ذهنه خال وهو على استعداد أن يصدق ، وهو يميل إلى الخير والصلاح فمجرد أن تعطيه مبررات ، أو تدفعه إلى ذلك ، فهو مدفوع إلى ذلك ، وكأنه يقول لنفسه ، ليس هناك من ضرر في الإيمان ، بل قد يكون النفع كل النفع ، والكسب كل الكسب ، والفوز كل الفوز في الإيمان .

أما الذي يؤمن بمجرد أن يحاوره النبي ويناقشه ، فهو الذي يستند إلى عقله في كل شيء ، يريد كل الأمور في حياته ثابتة وراسخة ، وأهم شيء في عالمه هي العقيدة ، فهو لا يقبل أو يرفض إلا عن اقتناع عقلي كامل ، يريد أن يقضي على كل ما من شأنه أن يعطل إيمانه ، فإذا قبل الإيمان – وهو لابد قابله – فإيمانه أقوى وأرسخ ما يكون الإيمان ، وهو ممن توافر لديه مواهب وميزات عقلانية ووجدانية وفكرية قل أو ندر أن تتوافر في الكثيرين .

أما من يؤمن لرؤية معجزة – أي معجزة – فهو من يرى أن العالم ليس في حاجة إلى نبي ، وهو أصلا ليس لديه أدنى فكرة عن النبي ، ولا عن مهمته ولاعن دوره ، ولم يشغل باله من قبل بهذا الأمر لا من قريب ولا من بعيد ، العقيدة لديه مجرد عنصر من عناصر وجوده وحياته ، كغيرها،بل قد يعيش ويمضي عمره بدون أن يلقي إليها أي اهتمام أو اعتبار، تأتي المعجزة لتنبه وتوقظه من غفلته ، وتفتح أبواب عالمه عن العقيدة الحقة ، لتجعله يدرك أن الوجود الخالي من العقيدة هو وجود فقير، بل هو والعدم سواء .

ومن يؤمن بعد أن يرى الكثير من المعجزات ، فهو معاند ،متردد ، شاك ، ليس لديه من القوة ، أو الحزم أو الحسم ما يجعله يقرر أمرا لا رجعة فيه وينفذ هذا الأمر، كان على علاقة وصلة وثيقة بعقيدة ما ، وهو متذبذب ومتأرجح بين العقيدتين ، بين العقيدة الباطلة ، أو ما كان عليه من قبل ، وبين العقيدة الحقة ، ولا يقدر أو لا يجرؤ أن يقف على نواحي نقص وبطلان ما كان عليه ، ليعترف أمام نفسه وأمام الناس أنه كان على باطل ، ولا يقدر ولا يجرؤ بالإقرار بصدق وأحقية العقيدة الجديدة ، فهو في حاجة إلى مزيد من الوقت ، وفي حاجة إلى مزيد من الجهد ، وفي حاجة إلى مزيد من المعجزات ، لتجعله قادرا وتخرجه من تردده وشكه وعجزه هذا ، ليتمكن بعد ذلك أن يحزم أمره ، ويعتنق تلك العقيدة .

أما الصنف الأخير ، فذلك الذي ختم الله على قلبه ، فهو ليس على استعداد أن يخرج ما في داخله من كبر وعجب وعناد وعتامة وظلام وبغض وكراهية وحقد . وليس على مقدرة ولا طاقة أن يسمح للهدى والنور والرشاد والإيمان أن يدخل إلى قلبه ، حتى لو رأى من المعجزات الكثير ، بل أن المعجزات لا تزيده إلا استكبارا وعنادا وصلفا وغرورا .

وأظن أن هذا يزيل عجبنا من موقف الناس من الأنبياء والرسل ، فبعد ما يقوله النبي ويفعله من معجزات نجد الكثير مصرا على موقفه ، وكأن النبي لم يقل شيئا ولم يفعل شيئا ، ليس هذا فحسب بل نجد البعض يريد أن يطفئ هذا النور ويغتال هذا الرسول ، إذن ليس العيب فيما يقوله أو يفعله الرسول ولكن العيب في الناس .

ويزداد عجبنا أكثر وأكثر من موقف الناس من المسيح ، فمع كثرة مواعظه وتعاليمه وأقواله ، لا نقول أن الناس لم يؤمنوا ،ولكن عدد من آمن لا يتناسب مع عدد المعجزات التي أجريت على يد السيد المسيح ، أو أن عدد المعجزات يتناسب

تناسبا طرديا مع عدد المؤمنين ، بمعنى كلما جحد الناس الرسالة ودعوة المسيح كلما زاد عدد المعجزات ، فطالما لم تقنع معجزة الناس ، فيلجأ النبي إلى معجزة ثانية وثالثة ورابعة ، ولكن هذا نوع من التجريب ، وهذا يعطى إشارة أن النبي مضطر إلى المعجزة ،فهو يلجأ إليها كلما حزبه أمر من الأمور ، أو كلما ضاقت به السبل ،وأعيته الحيلة ، وهذا في حد ذاته يبطل المعجزة ، لأن هذا يوحى أن المعجزات طوع النبي ، وأنه متى أراد إجراء معجزة فهو يجريها ،وهذا بعيد كل البعد عن العقل والمنطق ، لأن المعجزة بيد الله – y – فقط ، هو الذي يقرر مكانها وزمانها ونوعها ، وإن سأل النبي شيئا من عند الله ، فهو يسأل المدد والعون والمساعدة من عند الله ، أما نوعية هذا المدد والعون والمساعدة وكيفيته ، فليس هنا شرط من النبي ، وليس هناك من جرأة من النبي ليحدد بالضبط ما الذي سيحدث ،ونلاحظ كثرة المعجزات التي قام بها السيد المسيح تخرجها عن الحد المعقول ، فهو ملاحق بأن يجرى المعجزة في أي وقت وفي أي زمان ، سواء كان الشهود لتلك المعجزة قليلا أو كثيرا، إلى درجة أن هذا الأمر أصبح مألوفا ، بل مطلوبا من الناس ، وينتظرون من السيد المسيح القيام به ، وبالفعل يقوم به ، ومع ذلك فقيامه بالمعجزة لا يأتي بالتأثير المتوقع من رؤية ومعاينة الناس لمعجزة تحدث أمامهم ، وهذا لا يكون إلا لحدوث أمرين :

- إما أن الناس لديهم من عتامة الطبع وبلادة الإحساس وجمود الشعور وتحجر الوجدان ، وظلام العقل بحيث لا توثر فيهم المعجزة بأدنى تأثير ، فمهما يحدث من معجزات فهذا لا يحركهم ولا يدفعهم إلى الإيمان .

" فليست المعجزة ممتنعة إذا أرادها خالق الكون كله ، وخالق السنن التي يجري عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ، ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على اللجاجة في باطله " [1]

١- طوالع البعثة المحمدية – عباس محمود العقاد – (١٢٦)

- أو أن تلك المعجزات لم تحدث حقيقة وهي من اختراع من قاموا بكتابة الأناجيل بأثر رجعي ، وإيمانهم المطلق بالسيد المسيح ، مع حبهم الكامل ، وحزنهم الطاغي لنهايته ، جعلهم يتوهمون أو يتخيلون تلك المعجزات ، أو على الأقل جرت على يد المسيح معجزات ولكن ليس بتلك الكثرة والغزارة ، فقد أصبح الناس يجمعون ويقدمون للمسيح المرضى بأمراض مزمنة ومستعصية ،بل يطلبون منه إحياء الموتى ، وهو يفعل لهم ما يطلبونه بدون أدنى تردد أو تأخير ، الغريب أنهم يتوقعون منه ذلك ،ويستغربون ويتعجبون إن لم يفعله ، الأغرب والأعجب أن بعد حدوث ذلك كأن الأمر لم يكن ، وكأن لم تقم معجزة ، ولم يكن هناك من يقوم بمعجزة ، وكأن المسيح يتمتع بقوة ذاتية أو موهبة ، تجعله يفعل ذلك ، أما أن تؤخذ تلك المعجزات على أنها دليل على النبوة ، وبرهان على صدق النبي ، فلم تؤخذ – في كثير من الأحيان – على هذا المأخذ . ونحن لا ننكر أن المعجزات قد جرت على يد المسيح ، وأنه قد قام بها ، ولكن لا ننكر – أيضا – أنه قد أحاط بتلك المعجزات كثير من المبالغات ، لاسيما وأن في تلك المرحلة كان أكثر جهد وأوقات المسيح مع عامة الناس والبسطاء منهم والفقراء والذين لم يتلقوا الكثير من العلم أو يحصلوا على قسط من الثقافة ، وهؤلاء كانوا يميلون – أكثر من غيرهم – إلى المبالغة والتهويل ،وكانوا لا يحتكمون إلى العقل والمنطق ، وإنما كان تتحكم فيهم العاطفة والهوى .

وإن شئت الحق والإنصاف فأي نبي من الأنبياء ليس في حاجة إلى أي معجزة من أي نوع ، فوجود النبي – في حد ذاته – وأنه مبلغ عن الله ،هو أكبر معجزة ،والمسيح بصفة خاصة ، لم يكن في حاجة إلى كل تلك المعجزات التي جرت ولم تجر على يديه ، فقد شهد الناس من أول عظة له ، أنه يختلف عن غيره " فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه ،لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة " [1]

١- إنجيل متى الإصحاح السابع

ثم إن هناك – ولابد– مبررا للمعجزة ، وليس معنى أن الناس يطلبون معجزة تحدث المعجزة ، وليس معنى أن الناس يطالبون نبيا بمعجزة تحدث المعجزة ، ولكن هناك حكمة تدعو إلى المعجزة وهذا لا يقرره إلا الله – y – "وليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هي ممكنة أو غير ممكنة ؟ كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها فإن الذي يدبر الكون كله يتنزه عن العبث ، فلا يصنع شيئا لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة إدراك الناس ما داموا هم المقصودين بإدراكها "

المرحلة الثانية (**مرحلة التأصيل والترسيخ**):

وماذا بعد ؟

دائما يسأل الداعي نفسه بعد أن يقطع شوطا في الدعوة ، وهذا السؤال يستتبع أن يقوم الداعي بعملية مراجعه لما تم ، وما الذي يجب أن يتم بعد ذلك ، فإذا كان السيد المسيح في المرحلة الأولى قد جهر بدعوته ، وعرفه الناس ، واستمعوا إلى مواعظه وتعاليمه ، وعاينوا إشاراته أي معجزاته ، وتنقل المسيح في أكثر من مكان ، وتحدث وخاطب فئات كثيرة من فئات المجتمع اليهودي ، فإن أثر كل هذا سوف يضعف ويضمحل مع مرور الأيام ، أو قل قد يتطرق الملل إلى الناس ، أو تقتل الألفة والتعود نضارة وحيوية الدعوة ، ما لم يسارع الداعي إلى تأصيل وترسيخ دعوته ، وهذه المرحلة تتميز بظاهرتين ، ظاهرة الأمثال، وظاهرة الدفاع عن الدعوة ، وقد لجأ إليها السيد المسيح حينما استشعر بالمؤامرات التي كانت تدبر ضد الدعوة وتحاك ضده ،وكانت خير وسيلة للدفاع هي الهجوم على فئات وفرق يهودية بعينها ، وتفنيد حججهم ، وفضح دعاويهم، وهذا في حد ذاته تغيير في الخطة التي وضعها السيد المسيح لنشر الدعوة ، وتغيير في الأداة والأسلوب ، ولكن لم يكن أمام السيد المسيح حل آخر لتأصيل وترسيخ مبادئ الدعوة ، وليس هناك أي تناقض ، بين أسلوبه وطريقته في المرحلة الأولى ، وأسلوبه وطريقته في تلك المرحلة ، ، فلكل مرحلة – كما قلنا ظروفها وأحوالها التي تتطلب الأسلوب والطريقة التي تناسبها .

-ظاهرة الأمثال :

مفهوم المثل ووظيفته :

" (المثل) الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله ، وفي الصحاح ما يضرب به من الأمثال . والمثل : الصفة ، وقد يكون المثل بمعنى العبرة ؛ ومنه قوله y . ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٥٦] ، فمعنى السلف أنا جعلناهم متقدمين يتعظ بهم الغابرون ، ومعنى قوله مثلا أي عبرة يعتبرها المتأخرون .

ويكون المثل بمعنى الآية، قال الله - y - في صفة عيسى على نبينا وعليه السلام (وجعلناه مثلا لبني إسرائيل) أي آية تدل على نبوته "[١] وقد ذكرت الأمثال في العديد من السور القرآنية ، وأمر الله – y – الناس بالاستماع إليها وتدبرها ، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [سورة الإسراء:٨٩] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [سورة الكهف:٥٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج:٧٣] ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الروم:٥٨]

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٧]

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحشر:٢١]

١- لسان العرب – ابن منظور- (٤١٣٣- ٤١٣٤)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٢٧]

وما كان الاهتمام بضرب المثال هذا الاهتمام العظيم إلا لأنه ذو أهمية وذو تأثير في أمر الدعوة " وضرب المثل إيراده ، وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع .

ووجه كون المثل أو ضربه حقا ، أنه يوضح المبهم ، ويفصل المجمل ، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها "[١]والكتب السماوية تخاطب البشر ، كل البشر على اختلاف مستوياتهم العقلية ، وتريد من الجميع أن يأخذ من خطاب السماء للبشر كل على حسب قدرته وطاقته وفهمه ، لا تريد خلق أرستقراطية علمية ، أو أن تكون هناك فئة أو جماعة أو طبقة تستأثر بفهم المقاصد الإلهية ، وجماعة أو فئة أو طبقة تحرم ويمنع عنها عطاء ومدد الله للبشر ، فإن كان هذا يتحقق في الأمور الدنيوية وفيما يخص حطام الحياة الدنيا ، فإن رحمة الله وعدله وإحسانه أبت أن يتحقق هذا فيما يخص فهم مقاصده ، فالجميع مدعو إلى مائدة الله بدون استثناء ،وللجميع أن يستهدي ويستنير ويسترشد ، ولا مانع هناك يمنعه ،ولا عائق يعوقه ، ولا حاجب يحجب عنه ما يريده ، وكل شيء واضح جلي ، وسهل وميسر ، قريب ومذلل ، وكل هذا يفعله ويقوم به المثل ،فحينما أراد الله – y –أن يصف نفسه لعباده وصفا يفهمه كل الناس ،وصف نوره ، واستعين بمفردات في غاية البساطة والجميع يعرفها ويعاينها كل آن وكل حين

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د .محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول – (٨٣- ٨٤)

فأرقى المعاني وأسماها وأعلاها وأجلها وأجملها في الكون كله ، عبر عنها بعناصر في غاية البساطة والألفة والقرب ، كي يفهمها من لم يحصل على أي قدر أو نصيب أو قسط من العلم والثقافة ،﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور:٣٥] ومفردات المثل قريبة من حياة الناس ومألوفة لهم، بل هي أشد ما تكون قربا وألفة للكبير والصغير ، العالم والجاهل ، البدوي والحضري ، فهاهي الذبابة يعتمد عليها المثل لتوضيح المقصود : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [سورة الحج:٧٣]وكذلك اعتمد مثل آخر على الكلب : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٧٦] ومثل آخر على الحمار : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٥]

الأمثال في الإنجيل :

تكاد تكون تلك المرحلة معتمدة اعتمادا كاملا على الأمثال ، وقد لجأ إليها السيد المسيح لأن تلك الطريقة من شأنها أن تقرب وتيسر المعاني والمقاصد إلى الأذهان ؛ لأنها مستقاة ومأخوذة من البيئة المعاشة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الأمثال في حد ذاتها تشتمل على عنصر التشويق والإثارة ، لأنها توضح في قالب شبه

قصصي ، والقصة كما هو معروف من أكثر القوالب الأدبية التي تستميل وتؤثر في الناس، وبالأخص في عامة الناس ، وربما من الدوافع التي دفعت السيد المسيح أن يستعين بتلك الطريقة ، أن معظم الملتفين حوله أو الحريصين على الاستماع إليه ، هم من عامة الناس ، أو أن السيد المسيح أراد أن يجذب هؤلاء ويؤثر فيهم بصفة خاصة ، لأنه أدرك أن هؤلاء في حاجة إلى تعاليمه ومواعظه أكثر من غيرهم ،وقد فسر السيد المسيح ذلك حينما سأله تلاميذه " فتقدم التلاميذ وقالوا لماذا تكلمهم بأمثال ، فأجاب وقال لهم لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات وأما لأولئك فلم يعط ، فإن من له سيعطى ويزداد ، وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه ، من أجل هذا أكلمهم بأمثال ، لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون ، فقد تمت فيهم نبؤه إشعياء القائلة تسمعون سمعا ولا تفهمون ومبصرين تبصرون ولا تنظرون ، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ ، وآذانهم قد ثقل سماعها وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم ، ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ـ ولآذانكم لأنها تسمع ، فإني الحق أقول لكم أن أنبياء وأبرارا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا "[1]

اختلاف مستويات الأمثال :

من التبسيط المخل لمنطق الأشياء أن ندعي أننا نفهم كل مقاصد ومرامي الأنبياء من كلامهم ، فنحن نتعامل مع ما يقوله النبي مثلما نتعامل مع أقوالنا ، وبذلك نضع النبي – بدون أن ندري – في مستوانا الإدراكي ، أو في دائرة وعينا المحدود بحدود زماننا ومكاننا – وأيضا – اهتماماتنا ، مع أن الأنبياء – ولا شك – فوق

١- إنجيل متى – الإصحاح الثالث عشر .

مستوانا الإدراكي ، واهتماماتهم أوسع وأشمل وأبعد وأعمق من اهتماماتنا ،لذلك فالنبي في حاجة إلى نبي كي يفسر مقاصده ومراميه ، أو لنقل في حاجة إلى من يرقي رقي النبي أو قريبا من ذلك ، فإذ كان أحد الشعراء وهو المتنبي يدعى أن الكثيرين لا يفهمون ما القصد الحقيقي من شعره :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فإن الأولى والأجدر هو النبي ، ولكن إذا كان بعض الشعراء أو الكتاب يتعمد الغموض لحاجة في نفسه ، أو لأن ذلك سمة من سمات شخصيته ، فإن النبي لا يتعمد الغموض ، ولكن الأمر راجع إلى الاختلاف بين عالمنا وعالمه ، وبالتالي الاختلاف بين شخصياتهم وشخصياتنا .

ويعد السيد المسيح من أكثر الأنبياء ، التي ثارت حول أقواله الكثير من الاختلافات في تفسيرها وشرحها ،وهذا راجع إلى أمرين : إلينا نحن – كما سبق وذكرنا – ، **وإلى شخصية المسيح نفسها** :

- **أولا** : المسيح لم يقصد المعنى الحرفي من كلامه ، أو الدلالة المعجمية البحتة الجامدة ، وإنما خرج كلامه إلى معاني ومقاصد أرحب وأشمل من المعنى الحرفي
- **ثانيا** :المسيح كان يبغي إنشاء عالم متكامل من الفضائل ، وكل وصية أو موعظة تساعد في بناء ركن أو أساس لهذا العالم ، لذلك لا يمكن فهم المعني المقصود لكل موعظة أو وصية إلا في إطار هذا التكامل ، كذلك لا يمكن فهم الصورة العامة أو ملامح هذا العالم الجديد إلا بعد التخلص من تلك الوشائج والعلاقات التي تربط الإنسان بعالمه القديم ، أو على الأقل من تلك المبادئ والقيم والاعتبارات التي تتعارض وتخالف التعاليم والقيم التي يدعو إليها المسيح .

- **ثالثا** : كانت أساليب وطرق المسيح تتغير وتختلف باختلاف الفئة أو نوعية من يتحدث إليهم ، فهو حينما يتحدث إلى عامة الناس ، يختلف حديثه من ناحية الأسلوب والمقاصد حينما يتحدث إلى تلاميذه ، وكذلك يختلف حينما يتحدث لليهود خاصة عن غيرهم ، وحديثة لعامة اليهود يختلف عن حديثة لعلماء الدين والكهان .
- **رابعا** :مرت الدعوة وصاحبها بمراحل ، وطبيعي أن تختلف كل مرحلة عن الأخرى ، والمتأمل لكلام المسيح قد يجد اختلافا– وليس خلافا – لأن الدعوة دعوة حية ومرنة وتستجيب للتغيرات والاختلافات والمستجدات ، فمثلا في مرحلة من المراحل كان السيد المسيح يوجه حديثه لليهود خاصة دون غيرهم ، ولكن بعد ذلك سنلحظ أنه يوجه حديثة لكل الناس بغض النظر عن انتماءاتهم العقائدية ، وهذا راجع أن في مرحلة من المراحل التي مرت بها الدعوة أنها كانت مغرقة في المحلية وكان نطاقها ضيق ومحدود ، ولكن بعد ذلك خرجت من هذا النطاق الضيق المحدود ، إلى النطاق العالمي الواسع الرحب .
- **خامسا** :الدعوة استنفرت واستفزت أعداء كثر ، وهؤلاء حاولوا هدم وتخريب الدعوة وتشويه صاحبها ، ولسوء الحظ أن هؤلاء الأعداء – وهم اليهود – لم يشهد التاريخ مثيلا لهم في التشويه والتخريب والتدمير ،فقد عقدوا العزم على التخلص من السيد المسيح ومن الدعوة ، وتعددت أساليبهم وأدواتهم الشيطانية ولا نشك أن أيديهم تناولت بعض أقوال وتعاليم المسيح بالتحريف والتبديل والتغيير، مما أخرجها عن المقصد والهدف الحقيقي الذي كان يريده المسيح ، ولم يقتصر التشويه والتبديل والتغير على أقوال وتعاليم المسيح فقط ،بل تناولت شخص المسيح نفسه .

- **سادسا** : كثير من المشكلات والقضايا والأزمات التي شغل بها المسيح فكره واهتمامه أو شغله العالم – حينئذ بها – بها والتي دفعت فكره للتفكير ولسانه للتحدث ، لم يعد لها وجود في عالمنا الآن ، أو ما زالت موجودة ، ولكن ليس بتلك الحدة والإلحاح والضغط التي كانت عليه وقت السيد المسيح ، واختفاء تلك المشكلات والقضايا والأزمات ، أو تجريدها بما كان يحاط بها من ضروريات وملابسات ، قد يجعلنا لا نقدر أو لا نفهم أو نراعي تلك البواعث التي حركت المسيح ودفعته أن يضعها في دائرة اهتمامه ، بل تدفعه أن يعالجها بأسلوبه وطريقته المعهودة عنه . وقد نفهمها بكثير من الجهد ، ولكن لن يكون بنفس الجلاء والوضوح التي فهمها به أصحاب ذلك العالم .
- **سابعا** : أن تستمع إلى شخص ما ، وتعاين إشاراته وإيماءاته وملامح وجهه ، وعبوسه وابتسامه ، ونغمة صوته وعلوه وانخفاضه ، وحدته ولينه ، وهدوءه ورضاه ، وانفعاله وغضبه ، والطريقة والهيئة التي يقف بها ويتحرك بها وقت الكلام ...إلخ ، هذا شيء ، وأن ينقل إليك حديثه مجردا عن كل تلك السياقات أو اللوازم شيء آخر ، لأن في الإمكان لإشارة أو إيماءة أو حركة تصاحب كلمة ، أن تغير من مدلول تلك الكلمة تغيرا كاملا ، بل أنها قد تعطي عكس مدلولها اللغوي ، وأكثر ما ورد إلينا عن السيد المسيح كلامه وتعاليمه فقط ، أما ما يسمى ((سياق الحال)) فقد غاب عن أكثر ما ورد عنه. والذين كتبوا الأناجيل كان جل اهتمامهم أو قل أقصى ما قدروا عليه هو كتابة وتسجيل أقواله وعظاته ، حتى في هذا كثير من المؤرخين والمفكرين يشككون في صحة بعض – وليس كل – ما كتب وسجل عن السيد المسيح .

لتلك الأسباب مجتمعة وغيرها ، حدث خطأ أو انحراف في فهم كلام السيد المسيح ليس على مستوى عامة الناس فقط بل أيضا على مستوى العلماء والمفكرين

والمتخصصين " كان ((أورجين)) فيلسوفا ملحوظ المكانة في تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية ، ويرى الكثيرون أنه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره ، كذلك فلا خلاف عنده في حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين في عصره ، غير مستثنى منهم أساتذته الأولون .

هذا الرجل قرأ في شبابه قول السيد المسيح أن أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم في سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفي وجب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال السيد المسيح .

إلا أن ثبوت هذه الرواية في سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية في عصرها الأول ، فقد كان يفقأ عينه إذا علم أنها نظرت إلى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخا إذا راودته الشهوات حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فإذا كان شاب في ذكاء ((أورجين)) نفسه قد عدل عن خطته بعد زمن كما أسلفنا ، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته ، أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الأعضاء عن نزعات الجسد ، فلم يعن بفقوء العين إلا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد إلا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان كلمنت السكندري يقول بحق إن السيد المسيح لا يعني بنبذ المال أن نرفضه بتاتا في جميع الأحوال ، وإلا لم يكن الإحسان فضيلة من أكبر الفضائل في الوصايا المسيحية ، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه .

إلا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال حكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائما إلى عصرنا هذا في

الوصايا التي تدور على رفض الحياة خاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور ((شويتزر)) schweitzer الذي يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وأن الدنيا التي يهجرونها مقضى عليها بالفناء في مدى سنوات ، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المدخرون للدنيا الزائلة .

وفي اعتقادنا أنه لا محل للخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فإن كل دعوة في عصر السيد المسيح أو في عصرنا هذا، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة إلى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى ، ونظام فرق الفداء في الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر ((الجندي))في الموت قبل تفكيره في الحياة .

إنما الخلاف على الوصايا حين تتجه إلى غير التلاميذ والرسل : إلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات في اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟ "[1]

نماذج من الأمثال :

قال السيد المسيح : "فاسمعوا أنتم مثل الزراع ، كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتي الشرير ويخطف ما قد زرع في قلبه ، هذا هو المزروع على الطريق ، والمزروع على الأماكن المحجرة هو الذي يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح ولكن ليس لها أصل في ذاته بل هو إلى حين ، فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر ، والمزروع بين الشوك هو الذي يسمع الكلمة . وهم هذا العالم وغرور

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – صفحة (١٤٤- ١٤٥)

الغني يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر ، وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع ويفهم وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض منه وآخر ستين وآخر ثلاثين .

قدم لهم مثلا آخر قائلا . يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زرعا جيدا في حقله وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانا في وسط الحنطة ومضى . فلما طلع النبات وصنع ثمرا حينئذ ظهر الزوان أيضا ، فجاء عبيد رب البيت وقالوا له يا سيد أليس زرعا جيدا زرعت في حقلك ، فمن أين له زوان ، فقال لهم إنسان عدو فعل هذا ، فقال له العبيد أتريد أن نذهب ونجمعه . فقال لا. لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه ، دعوهما ينميان كلاهما معا إلى الحصاد . وفي وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولا الزوان واحزموه حزما ليحرق .وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني .

قدم لهم مثلا آخر قائلا . يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها .

قال لهم مثلا آخر . يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع . هذا كله كلم به يسوع الجموع بأمثال . وبدون مثل لم يكن يكلمهم . لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال فمي وأنطق بمكنونات منذ تأسيس العالم " [1]

بعد ذلك يقوم السيد المسيح بتفسير تلك الأم﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [سورة الجمعة:٥]

١- إنجيل متى – الإصحاح الثالث عشر

ثلة ، أو يوضح ويبين المقصد من ذلك ، وبالأخص لتلاميذه ، " حينئذ صرف يسوع الجموع وجاء إلى البيت . فتقدم إليه تلاميذه قائلين فسر لنا مثل زوان الحقل . فأجاب وقال لهم : الزراع الجيد هو ابن الإنسان ، والحقل هو العالم والزرع الجيد هو بنو الملكوت ، والزوان هو بنو الشرير ، والعدو الذي زرعه هو إبليس .والحصاد هو انقضاء العالم . والحصادون هم الملائكة ، فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء هذا العالم يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفأعلى الإثم . ويطرحونهم في أتون النار ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان .حينئذ يضئ الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم من له أذان للسمع فليسمع .

أيضا يشبه ملكوت السموات كنزا مخفي في حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل . أيضا يشبه ملكوت السموات إنسانا تاجرا يطلب لآلئ حسنة فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها . أيضا يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع .فلما امتلأت اصعدوها على الشاطئ وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية . وأما الأردياء فطرحوها خارجا هكذا يكون في انقضاء العالم . يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ، ويطرحونهم في أتون النار . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان . قال لهم يسوع أفهمتم هذا كله . فقالوا نعم يا سيد . فقال لهم . من أجل ذلك كل كاتب متعلم في ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت يخرج من كنزه جددا وعتقاء . ولما أكمل يسوع هذه الأمثال انتقل من هناك "[1]

والأمثال التي كثرت في أحاديث السيد المسيح ، لم يكن هو مبتدعها الأول، ولم يستمع الناس أول ما استمعوا إليها من المسيح ،ولكنها كانت موجودة قبله ، و استخدمها قبله كثير من الخطباء والوعاظ ، واستمع الناس إليها ، ولكن أبدا لم يصل

١- إنجيل متى – الإصحاح الثالث عشر

بها أحد إلى قلوب الناس وأفئدتهم مثلما وصل السيد المسيح ، فلم يكن الأمر أنه قد امتلك من أدوات وأساليب البلاغة ما يمكنه أن يبز غيره في هذا المجال ، ولكن لأنه كان خبير وعليم بالنفس الإنسانية يعلم أقرب الطرق وأيسرـها وأسرعهـا لـيلج إليها ،هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يتكلم من منطلـق النبـوة ، ولـيس هنـاك أشد تأثيرا وأقوى من سلطان النبوة "ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسـيح قد سمعوا الأمثال في قوالبها مرات كثيرة ، ولعلهـم كـانوا يعـاودون سـماعها كلكـما دخلوا معبدا أو استمعوا إلى خطيب في غير المعابد ، فإن نقاد البيان العبري والأرامـي يردون هذه الصيغ البيانية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين ، فلـم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التي تعول على الرمز أو الحكم أو التشـبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصرـ لم يعرفـوا قـط أريحيـة كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبيـات مأنوسـة حيـة يحسـبون أنهـا حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض سـاعة ، لفـرط مـا كـان يغمـرهم مـن حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور "[1]

ما الذي كان يحدث للناس البسطاء وهم يستمعون إلى السيد المسيح ؟

لا شك أنه كان هناك تغيرات جذرية تنتابهم ، تدفعهم وتحضـهم عـلى خلـق عهود وثيقة تربط مصائرهم في الدنيا والآخرة بهذا الشـخص الواقـف أمـامهم بكـل شموخ وتواضـع ، بكـل جـلال وجمـال ، وهـو يشـيع في نفوسـهم السـلام والأمـن والسكينة ،والاطمئنان ، وهو يعدهم بالسعادة في الدنيا إذا هـم سـاروا عـلى نهجـه ، ويعدهم – كذلك – بالفوز برضوان الله ، في الآخرة إذا هم أصلحوا سريرتهم وعملوا – على قدر طاقاتهم – الصالحات ، إنه لا يكلفهم شيئا ولا يفرض عليهم أعباء أو

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٧٣)

أثقال ، ولكنه يضع عنهم إصرهم ، ويزيح عنهم أثقالهم، إنه يحررهم من قيودهم ، ويخلصهم من أغلالهم ، إن كلماته تزيل كل تلك الحجب والحواجز التي تفصل بينه وبينهم ، لم يعودوا فقراء فقد أغناهم بها وعدهم من الصفح والغفران ، لم يعودوا أذلاء فقد أعزهم بما عمر نفوسهم بالقناعة والزهد ، لم يعودوا مساكين فقد فتح لهم أبواب ملكوت السموات ، هؤلاء الذين أغلق العالم الأرضي أبوابه في وجوههم ، وطردهم من جنانه الزائفة، لم يعودوا ضائعين فقد آواهم وأفاض عليهم من عطفه وحبه وحنانه ، لم يعودوا ضالين ، فقد هداهم وأرشدهم إلى الخالق الرحيم العادل ،

" ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل إلى سامعه أنه يبتعد من مصدره كلما أصغى إليه، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل إلى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدني مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسامع .. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والإفهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين أضداد في نجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج الذي يصحب الليل من السحر إلى الفجر إلى الصباح : هداية في رفق ورحمة ، واقتراب في غير عناء ولا اقتحام .

في وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة " [1]

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٧٣)

ظاهرة الدفاع :

سارت دعوة السيد المسيح في بداية عهدها كما تسري النار في الهشيم ، أو كما ينتشر نور الصبح مبددا الظلم في أرجاء الكون ، وقد نجح البرنامج أو الخطة أو الإستراتيجية التي وضعها السيد المسيح نجاحا منقطع النظير ، وكانت المرحلة الأولى من مراحل الدعوة لخصتها كلمات المسيح لتلاميذه "كونوا حكماء كالحيات ، وبسطاء كالحمائم " ، فلم تعترض الدعوة في مرحلتها الأولى أية عقبة تمنعها أن تأخذ طريقها الذي أخطته لها المسيح ، وإنما سارت في هدوء وثقة واطمئنان ، ولم تستفز أو تستنفر أي قوى من شأنها أن تعطل أو تعرقل أو توقف من سيرها ، كذلك لم يكن في مبادئ الدعوة ما يصدم عامة الناس أو ينفرهم أو يتحدى عقولهم ويستعصى على إفهامهم ، أو يكلفهم ما لا يطيقون أو ما يعسر ويصعب عليهم تنفيذه والقيام به ، بل أن كل ما قال به السيد المسيح وتلاميذه في غاية الوضوح والبساطة ، ليس هذا فحسب ، بل وجدوا في السيد المسيح المنقذ الحق مما هم فيه من ضياع وتخبط ، والهادي والمرشد ، وتخللت مبادئ الدعوة إلى كل جزئية من جزئيات حياتهم اليومية ، واشتملتهم واحتوتهم بملامحها السمحة ، كما ضمهم الداعي بكل حب وعطف وحنان .

وأظن أن اليهود – أو بعض فئاتهم وجماعاتهم – قد أخطئوا في حساباتهم خطأ شديدا ، بشأن الدعوة وصاحبها ، فلم يعيروه أدنى اهتمام في بداية أمره ، ولم يثر أي اهتمام أو فضول لديهم ، مجرد رجل خرج من (الجليل) – وما أهون الجليليين ووضاعة أمرهم بالنسبة لهم – ساذج يعظ وينصح السذج والبسطاء والفقراء والمساكين ، ولا يزد في عمله عن الوعظ والنصح ، وقد أشيع عنه أن نجح في شفاء بعض المرضي ، وهؤلاء – في ظن اليهود – من السهل خداعهم وتضليلهم .

وأظن – أيضا – أنهم في البداية لم يكلفوا أنفسهم مشقة النزول إلى ذلك الرجل ، ومعرفة حقيقة أمره ، وحقيقة ما يدعو إليه ، ، وجل ما وصل إليهم من

أصداء دعوته ، أنه يطالب الفقراء والمساكين والمرضى بالصبر والزهد والقناعة والرضا ، وأن يصفحوا ويغفروا ويتسامحوا ،ويعدهم بملكوت الله ، إذن – على حسب ما وصل إليهم – لا خوف من هذا الرجل ، ولا ضرر من دعوته ، وأظن أنهم قرروا – وإن كان هذا القرار لم يتخذ ولم يعلن – أن يتركوه في شأنه ولشأنه ، كنوع من الإهمال والتجاهل والاستهتار .

حتى الذين كلفوا أنفسهم أن يفكروا في أمره ، لم يقدهم هذا التفكير إلى اتخاذ أي إجراء من شأنه عرقلة السيد المسيح عن تنفيذ مشروعه ، وكانوا يظنون أنه سوف يأتي ويذهب بدون إحداث أي ضجة كما حدث مع "يوحنا المعمدان"، حتى لو أثار ما من شأنه أن يعكر الصفو ، فستكون نهايته كنهاية " يوحنا " ، وفي أسوأ الفروض – بالنسبة لهم – لو كان نبيا ، فالأمر ليس ذا أهمية تجعل البعض يخرج أو يغير من نظام حياته العامة والخاصة ، فمجيء نبي في بني إسرائيل ليس بالأمر الجلل الذي يتصوره البعض " فقد كان عمل النبي في شعب إسرائيل كعمل العالم الفقيه في الأمة الإسلامية ، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بها الخاصة والعامة في وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم إنكارا لقيام الأنبياء قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على إتباع سنن التي رسمها لهم من قبل إبراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الأنبياء السابقين " [1]

فإذا صدقت نبوة عيسى فسيجنون من ورائها النفع كل النفع ، وإن كذبت فلن تضرهم بشيء ، وليتركوا أمر صدقها أو كذبها للزمن .

ولكن حينما ذاع أمر الدعوة ، واشتهر صاحبها ، وكثر إتباعه ، ولم يقتصر الإتباع على البسطاء والفقراء والمساكين ، وبدأت القرى والمدن تتحدث ، بدأت أذان

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٨)

اليهود تصغي وعقولهم تفكر ، فإذا هم يكتشفون – متـأخرا – أنهـم أخطـأوا خطئا عظيما ، فتلك الدعوة صادقة كل الصدق ، وجادة كل الجـد ، وصـاحبها لـيس بالساذج ولا بالبسيط ، ولكنه في غاية الذكاء والدهاء ، وأنه اسـتطاع – بكـل مقـدرة وكفاءة ومهارة –خداعهم .

مع أن هنـاك اختلافـات بينـة بـين فئـات وفـرق اليهـود في ذلـك الوقـت – صدوقيين وفريسيين وآيسيين وسامريين – حتى أن بعض تعاليم بعـض تلـك الفـرق تتعارض وتتناقض تعاليم الفرق الأخرى ، حتى أنك تتعجـب كيـف ينضـون كلهـم تحت مسمى (يهود) ويتبعون دينا واحدا ويسيرون على كتـاب واحـد ، ولكـن هنـاك أمور كثيرة ومؤثرات خارجية وداخلية وحروب وأزمات ومآزق وأسر وقتـل وذبـح وتهجير ... أشياء وأحـداث وحـوادث كثـيرة تعـرض لهـا اليهـود ،أضـف إلى ذلـك الشخصية اليهودية المعقدة التي يتميزون بها دونا عـن بقيـة الأمـم والشـعوب ، ومـا تعلقوا به من آمال وطموحات وأوهام وأباطيـل وأحـلام ... مـع وجـود كـل تلـك الاختلافات والخلافات والتناقضات ، إلا أنه قد جمعهم ووحدهم شيء واحـد ، هـو المسيح ودعوته ، فقد ظهر هدف أوحد لهم هو وضع حد ونهايـة للـدعوة والـتخلص من صاحبها ، ولحسن حظ الدعوة أنهم لم يصـلوا إلى تلـك القناعـة إلا متـأخرين بـل متأخرين جدا .

وبدؤوا في ملاحقة السيد المسيح في كل مكان ومناقشته ومجادلته لا لشيـء إلا للإيقاع به وتوريطه ، إما لإظهاره أنه ثائر وخارج عن سلطان روما وقوانينها، وإما أنه مارق عن التوراة ونصوصها ، وإما أنه يدعي أنه صـاحب سـلطة تتـيح لـه أن يشرـع ويقنن وبالتالي يقوم بتنفيذ هذا الشـرع وتطبيق تلك القوانين ، واستعان اليهـود بكـل ما أتوا من مكر ودهاء وخبث ، ولكنه في كل مرة كـان السـيد المسـيح يـرد سـهامهم المسمومة إلى نحورهم وكان أذكى مما تصوروا ، وأعلم مما ظنوا ، وأنبل مما تخيلوا ،

وأرقى وأسمى مما قدروا ، وأحوط مما حسبوا ، وهنا وإزاء هجومهم الضاري عليه لم يجد مناصا من أن يرد الهجوم بهجوم ، وأن يقوم بفضحهم وتفنيد أباطيلهم ودعاويهم المضللة .وهنا – أيضا – يخرج السيد المسيح عن هدوئه ولينه وتظهر أو يظهر سمات في شخصيته كانت متوارية ، فنرى السيد المسيح غاضبا ثائرا ناقما متحديا مهاجما ، بكل عنف وقوة وشراسة ،واثقا معتزا شامخا ، ينظر من علياء إلى هؤلاء الأقزام ، ويلقم كل منهم حجرا ليخرسه إلى الأبد ، وتظهر مواجهات وهجوم السيد المسيح مدى عمق علمه واتساع خبرته بخفايا وخبايا وفساد وضلال ، ونحن لا يهمنا فحوى ومضمون ما قاله المسيح مفندا لحججهم بقدر ما يهمنا دلالة تلك الردود والأقوال على شخصية المسيح ، فهي تظهر وتكشف وتجلي جوهر وحقيقة تلك الشخصية التي بلغت شأوا عاليا من العظمة والجلال " والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهي دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على ((الشخصية))التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يرونها ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية ، فإن هذه الرسالة قائمة على اجتناب التعرض له بالإبطال أو الإبدال ، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعي سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات ، كذلك قال لحكام الهيكل وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ،وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التي تقلع إذا نظرت نظرة اشتهاء ،وعن خطيئة اليد التي تقطع إذا وقعت في العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس في مسلك المسيح كله في رسالته ما يجريه مجرى الإلزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من

الرواة من فرق في فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحروفها وأسلوب الآداب الإنسانية التي ترتفع ألأكمل وينفذ إلى المعاني من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها إلى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع إلى قاض يشمل عينا أو يدخل في الصدور ليتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعاني إلى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبت من اختلاف الفهم والتأويل "[1]

المآخذ التي أخذوها على السيد المسيح والرد عليها .

١- أخذوا عليه العمل يوم السبت ، وهو لا يجوز العمل فيه – كما في التوراة – مهما كان ضرورة ولزوم هذا العمل ، وهذا في – حد ذاته – فهم جامد ومتحجر للنصوص ويدل على تقديس أعمى للنص بدون فهم وإدراك للضرورات الواقع ،أو معرفة هدف ومقصد الشرع ، وهو تحقق مصلحة الإنسان ، وآي فهم يقف أو يناقض تلك المصلحة فهو فهم قاصر ،وأنه يجوز للإنسان – إذا كان مضطرا – تعطيل أو عدم العمل بالنص إلى أن تزول تلك الضرورة ،" فمن إفراطهم في مراعاة التوراة وإخراجها عن روحها المراد لله تعالى أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير في السبت باعتباره يوم عطلة لا يجوز العمل فيه ، ففوتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى إلى الله بتلك الحجة !والله إنما يريد الكف عن الأعمال الدنيوية أما فعل الخير فإنه لا حرج فيه وليس من الأفعال المنهي عنها "[2] يقول السيد المسيح " أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط ، ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم وإذا إنسان يده يابسة ، فسألوه قائلين هل يحل الإبراء في السبوت ، لكي يشتكوا عليه ، فقال لهم أي

١-عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٢٩)
٢- القصص القرآني –د . عبد الوهاب النجار – (٣٩٢)

إنسان منكم يكون له خروف فإن سقط هذا في السبت في حفرة أما يمسكه ويقيمه ، فالإنسان كم هو أفضل من الخروف ؟ إذن يحل فعل الخير في السبوت ، ثم قال للإنسان مد يدك فمدها فعادت صحيحة كالأخرى "

٢- أخذوا عليه عدم الحفاظ على تقاليد الشيوخ ،فتلاميذه لم يغسلوا أيديهم قبل الأكل ، فأظهر لهم المسيح أنهم في الوقت الذي يحافظون فيه على التقاليد الجوفاء البالية ، يتخلون ويفرطون في حقيقة وجوهر الشرع ، " ومن تفريطهم تهالكهم على المادة واستغراق حب المال تفكيرهم ، فكانوا يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليحتالوا على ذلك المال . والناذرون والباذلون في أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلون يصرفونه على أنفسهم وعيالهم وآبائهم وأمهاتهم فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأنانية في الكهنة ورجال الدين "[١] "
وأنا أسألكم لأي سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم ؟ تقولون لأولاد الآباء الفقراء ((قدموا وانذروا نذورا للهيكل))وهم إنما يجعلون نذورا من النذر الذي يجب أن يعلوا به آباءهم ، فيصيب الآباء بذلك ضيق ، أيها الكتبة الكذابون المراءون أيستعمل الله هذه النقود ، كلا ثم كلا ، لأن الله لا يأكل كما يقولون بواسطة عبده داود النبي هل آكل لحم الثيران وأشرب دم الغنم ؟ أعطني ذبيحة الحمد وقدم لي نذورك ، لأني إن جعت لا أطلب منك شيئا لأن كل الأشياء في يدي وعندي وفرة الجنة ، أيها المراءون أنكم إنما تفعلون ذلك لتملئوا كيسكم ولذلك تعشرون السذاب والنعنع ، ما أشقاكم لأنكم تظهرون للآخرين أشهر الطرق وضوحا ولا تسيرون فيها ، أيها الكتبة والفقهاء أنكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالا لا يطاق حملها ولكنكم أنفسكم لا تحركونها بإحدى أصابعكم .

١- القصص القرآني – د. عبد الوهاب النجار – صفحة (٣٩٢)

وقد ندب الله هذا بواسطة أشعيا قائلا : حقا إن هذا الشعب يعبدني باطلا، لأنهم أبطلوا شريعتي التي أعطاهم إياها عبدي موسى ويتبعون تقاليد شيوخهم ، الحق أقول لكم أن أكل الخبز بأيد غير نظيفة لا ينجس الإنسان ،لا ينجس الإنسان بل الذي يخرج من الإنسان ينجس الإنسان ، فقال حينئذ أحد الكتبة : إن أكلت لحم الخنزير أو لحوما أخرى نجسة أفلا تنجس هذه ضميري ؟ فأجاب يسوع : إن العصيان لا يدخل الإنسان بل يخرجه الإنسان من قلبه ، ولذلك يكون نجسا متى أكل طعاما محرما "

٣- أخذوا عليه كثرة التحدث عن عبادة الأصنام ، مع أن بني إسرائيل لا تعبد الأصنام وبهذا يكون المسيح قد أساء إليهم . أجاب يسوع : أعلم جيدا أنه لا يوجد تماثيل من خشب في إسرائيل ولكن توجد تماثيل من جسد ، فأجاب حينئذ جميع الكتبة بحنق : أنحن إذن عبده الأصنام ؟ أجاب يسوع: الحق أقول لكم لا تقول الشريعة ؛ أعبد .بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل عقلك ، ثم قال يسوع : أصحيح هذا ؟ فأجاب كل واحد : إنه لصحيح . ثم قال يسوع : حقا إن كل ما يحبه الإنسان ويترك لأجله كل شيء سواه فهو إلهه، وهكذا فغن صنم الزاني هو الزانية وصنم النهم والسكير جسده، وصنم الطماع الفضة والذهب وقس عليه كل خاطئ آخر.

٤- أرادوا أن يورطوه في أن يعترف بسلطان القيصر أو يبطل هذا السلطان ، وفي كلا الأمرين هو مدان " قالوا : يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ، فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبثهم وقال : لماذا تجربونني يا مراؤون ، أروني معاملة الجزية ، فقدموا له دينارا ، فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة ، قالوا لقيصر ، فقال لهم : أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله ، فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا "

وحينما أدرك السيد المسيح أن الطلقات من العيار الثقيل موجهة إليه من فيئتين في غاية الشراسة والضراوة والمكر والخبث واللؤم وهما ((الكتبة)) و((الفريسيين)) رد عليهم هجومهم بهجوم أعنف وأقوى وفضحهم وجردهم من كل ما كانوا يرتدونه من مسوح ليخدعوا به الناس ، وأظن أن بعد هجومه هذا وصلوا إلى قناعة وجوب التخلص من السيد المسيح ، لأن أصبحت المعركة بينهما معركة مصير إما هم ، وإما هو "حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : "على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوه لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون ، فإنهم يحزمون أعمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم ، وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس فيعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع ،والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس سيدي سيدي ، وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعا أخوة ، ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح وأكبركم يكون خادما لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع ، لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون .

ويل لكم أيها الكتبة الفريسيون المراؤون لأنكم تدخلون بيوت الأرامل . ولعلة تطيلون صلاتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم ، ويل لكم أيها الكتبة الفريسيون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا ومتى حصل تصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا .

ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم ، أيها الجهال والعميان أيما أعظم الذهب أم الهيكل

الذي يقدس الذهب ، ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم ، أيها الجهال أيما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدس القربان ، فإنه من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه ، ومن حلف الهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبت والكمون وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان . كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك ، أيها القادة العميان الذين يعفون عن البعوضة ويبلعون الجمل .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من الداخل مملوآن اختطافا ودعارة .

أيها الفريسي الأعمى نق أولا داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضا نقيا .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ، هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثما .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم فيدم الأنبياء ، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملأوا أنتم مكيال آبائكم .

أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ، لذلك ها أنا أرسل لكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة ، لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح ، الحق أقول لكم أن هذا كله يأتي على هذا الجيل " في الوقت الذي كان يهاجم فيه السيد

المسيح هؤلاء والمذاهب من اليهود ، كان يثبت ويدعم ويقوي من شأن مبادئ وأسس دعوته ، ولن يتسنى له ذلك إلا بعد أن يخلخل أو ينزع مكانة ومنزلة هؤلاء من قلوب العامة ، لأنه كان يتحدث عن أصناف من الناس محاطين بهالة من الإجلال والاحترام والتبجيل ، وقد حصلوا على تلك المكانة والمنزلة من خلال قيامهم على الدين والعقيدة شرحا وتفسيرا وتوضيحا ،وقد مضى بهم وبالناس الزمان ، وما يزيدهم إلا تثبيتا ورسوخا ، لذلك كان عمل السيد المسيح محفوفا بالمخاطر ، لأن في العادة عامة الناس يرون في إهانة هؤلاء إهانة للدين والعقيدة ، وبالتالي إهانة لهم ،فإن لم يوفق المسيحية في هجومه وفضحه لهؤلاء قد ينقلب عليه عامة الناس ، لذلك كان المسيح في هجومه مباشرا واضحا واثقا مقنعا بسيطا منطقيا ،وكان يختار من أفعال وتصرفات وأقوال هؤلاء ما يدينهم ويفضحهم على ملأ من الناس ، ثم إن عامة الناس لم يجدوا من رجال الدين أي دفاع عن أنفسهم أو ردا على هجوم المسيح ، وإنما كانوا يلتزمون الصمت ، أو ينسحبون بدون تعقيب أو رد ، واعتبر عامة الناس أو الذين يسمعون أو يشهدون المنازلة ،أنه انتصار للمسيح انتصارا مؤزرا، وهزيمة مؤكدة لرجال الدين والكهنة .وقد أدرك السيد المسيح – من خلال تعامله معهم وعلمه وخبرته بمكونات شخصياتهم – أن لا جدوى ترجى منهم ، فنسف وأزال كل جسور التفاهم أو التوافق أو التصالح التي من المكن أن تنشأ– مستقبلا – بينه وبينهم ، ومن ناحية أخرى أدرك أن العقبة الوحيدة التي تقف أمام دعوته ، وقد تقضي عليها قضاء نهائيا ، هم هؤلاء ، وأنه متى تم القضاء عليهم أو التخلص منهم ، أو إظهار حقيقتهم الشوهاء الخبيثة ، فلن يقف شيء أمام دعوته ، لذلك كان المسيح يضرب بكل ما أوتي من قوة ، من ناحية قوة البيان ونصاعته ووضوحه ، وذكائه في اختيار وانتقاء تلك المواقف المخجلة والمشينة ، وثقته المطلقة في نفسه وقدراته وإمكاناته ،

ورسوخ وشموخ إيمانه بدعوته ورسالته ، وحبه الفياض ،- لكل الناس والكون والوجود - ذلك النبع الذي أمد المسيح بطاقات هائلة جعلته يستهين ولا يبالي بما يعترض طريقه من عقبات أو عثرات .

المرحلة الثالثة : (التحول العظيم)

هناك تغيرات خطيرة وهامة طرأت على شخصية المسيح ، وبالتالي على مسار الدعوة، وتلك المسالك التي بدأت الدعوة تسلكها ، لأن العلاقة جد وثيقة بين شخصية المسيح ودعوته ، وإن كان حريصا أشد الحرص أن يفصل بين الاثنين ، وقد نجح في ذلك نجاحا عظيما ، إلا إننا لا نستطيع أن ننكر هذا التأثير المتبادل بين الاثنين ، حتى وإن كان في بعض الأحيان تأثير غير متعمد من السيد المسيح .

فلا شك أن المسيح قد قضى أوقاتا طويلة مختليا بنفسه مفكرا متأملا دارسا فاحصا ،كل الأمور حوله ، لاسيما ماضي الدعوة وحاضرها ومستقبلها ، بل امتد تفكيره وتأمله إلى موقف بني إسرائيل من الرسالات السماوية ومن الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ، ووصل إلى قناعة إنه – والأمر هكذا – ستنتهي دعوته ورسالته كما انتهت كثير من دعوات بني إسرائيل ، وأن مصيره ونهايته لن تكون بأفضل من نهاية نبي من سلسلة الأنبياء المتواترة في بني إسرائيل ، أن ذكره وسيرته لن تتجاوز دفتي كتاب ، أو فصلا في كتاب من تلك الكتب التي تحملها بنو إسرائيل ، فوق ظهورها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بينما طموحة غيرالمحدود ، وأماله العريضة ، وطاقاته الهائلة ، ونفسه الوثابة ، تتعدى ذلك بكثير ، إذن والأمر هكذا لم لا تنتفع الإنسانية كلها بنور وهدى رسالته طالما رفضها بنو إسرائيل ؟ ولم يقصر جل اهتمامه على بني إسرائيل إذا كان في إمكانه أن يهتم بكل الناس سواء كانوا يهودا أم غير ذلك ؟ وفي تلك اللحظات استطاع المسيح أن يكسر الطوق الحديدي الذي كان يحيط بدعوته ، واستطاع – كذلك – أن يخرج من هذا الحصار أو الضيق أو السجن ، أنه نبي عنصري

جاء لفئة أو جماعة أو أمة ، دون الأمم الأخرى ، انطلقت الدعوة كما لم تنطلق قبلها الدعوات ، فلم يعد هناك حدود تحدها لا زمان ولا مكان ولا جنس ولا عنصر، إنها دعوة لكل الناس ، لكل من يدب على تلك البسيطة ، ولم يعد المسيح يخص باهتمامه ومواعظه وتعاليمه اليهود ، بل انطلق إلى سماء الإنسانية الواسع الرحب ، أعظم وأجل تحول حدث في تاريخ الدعوات السماوية في ذلك الوقت ، إن تلك الدعوة احتضنت البشر كافة ، أزالت ما بينهم من فوارق واختلافات وتناقضات ، وجعلتهم يستظلون بظل واحد ، وينظرون إلى وجهة واحدة ، ويتجهون إلى قبلة واحدة ، ويجمع السيد المسيح أسباب ومبررات ودوافع هذا التغيير أو هذا التحول والتبدل في مثل من أمثاله العظيمة المعبرة الدالة على الكثير من المعاني والمقاصد :

" كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاط بسياج وحفر فيه معصرة وبني برجا وسلمه إلى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره ، فأخذ الكرَّامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ، ورجموا بعضا ،ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين ، ففعلوا بهم كذلك، فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابني ، وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ،فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له : أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها ، قال لهم يسوع :أما قرأتم قط في الكتب . الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية ، من قِبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا ، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه أولئك الأردياء يهلكهم هلاكارديا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها.

إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره "[1]

معنى ومغزى ومقصد المثل واضح وضوحا بينا ، فهو ينطبق على اليهود وما فعلوه بأنبياء الله ، من إهانة وضرب وتعذيب وقتل ، والعقاب على ذلك الهلاك ، ولن تقتصر الدعوة بعد ذلك عليهم خاصة ، والميزات التي كانوا يتميزون بها عن بقية الأمم سوف تنزع منهم ، وتعطى لأمة أخرى ترعاها حق رعايتها وتؤدي حقها .

ولم يكتف السيد المسيح بأن يضرب مثلا واحد ، فأراد أن يؤصل ويرسخ المعنى والمقصد والمغزى فضرب مثلا آخر يدور في نفس فلك المثل السابق ، "وجعل يسوع يكلمهم أيضا بأمثال قائلا : يشبه ملكوت السموات إنسانا صنع عُرسا لابنه ، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل أيضا عبيدا آخرين قائلا قولوا للمدعوين هو ذا غذائي أعددته ، ثيراني ومسمناتي قد ذبحت وكل شيء معد ، تعالوا إلى العرس ، ولكنهم تهاونوا ومضوا واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته ، والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم ، فلما سمع الملك ، غضب وأرسل جنوده وأهلك القاتلين وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده أما العُرس فمستعد وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين ، فأذهبوا في مفارق الطرق وكل من وجدتموه فادعوه إلى العُرس ، فخرج أولئك العبيد إلى الطرق وجمعوا كل الذين وجدوهم أشرارا وصالحين ، فامتلأ العُرس من المتكئين، فلما دخل الملك لينظر المتكئين ، رأى هناك إنسانا لم يكن لابسا لباس العُرس ، فقال له يا صاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس ، فسكت ، حينئذ قال الملك للخدّام اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، لأن كثيرين يدعون وقليلين يُنتخبون "[2]

١- إنجيل متى الإصحاح الحادي والعشرون
٢- المصدر السابق

إذن حدث نوع من التطور أو التحول في شخصية السيد المسيح ، فبعد أن كان يخص بني إسرائيل بدعوته ويحجبها ويمنعها عما دون سواهم في بداية أمر الدعوة ، ويرفض أن تكون دعوته موجهة لغير اليهود ، بل يوصي تلاميذه ألا يتوجهوا لغير تلك الوجهة ،نجد أن الأمر تغير بعد ذلك تغيرا تاما " فمـا لا ريـب فيـه أن السـيد المسيح قد أراد إسرائيل بدعوته الأولى ، ومن البديـه أن يريـدهم قبـل أن يريـد أحـدا غيرهم ، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهـم أصـحاب الكتـب التـي تبشر بـالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم : ماذا تركتم للأمـم ؟ لأنهـم أبناء أمة أولى بها أن تستمع إلى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين .

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ، ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلئ تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقه في الخطاب كان ينذر المرأة الفنيقية التي أرادت منه كرامة من تلـك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخـذ الخبـز مـن أبنـاء البيت ليلقى به إلى الكلاب .

وكان هذا الإيثار بديها كما قلنا من وحي الفطرة ووحـي الكتـب والدراسـة، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح ، فإن المساواة بين العشـيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقـة أن تقصي الأقـربين ولم يكـن يقينـا ولا شبيها باليقين أن تـدني إليـه أحـدا مـن أولئـك الغربـاء الموتـورين ، الـذين يحاربونـه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام . " [1]

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (١٥٣)

على هذا ليس من العجيب ولا من الغريب أن يبدأ المسيح رسالته متجها وقاصدا بني إسرائيل ،فلا أحد ينكر أن لهم خصوصية وميزة تميزهم عن العالمين، ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة البقرة:٤٧]﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [سورة الجاثية:١٦] بل هناك ميثاق مأخوذ منهم أو عليهم بتوحيد الله وفعل الخيرات والمكرمات﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [سورة البقرة:٨٣]

وكان بنو إسرائيل يعلمون هذا التميز الذي يميزهم عن العالمين ، فهو امتياز رسمي أو قل امتياز واصطفاء إلهي ، فهم ينتمون إلى (إبراهيم) أبو الأنبياء ، ولم تتواتر سلسلة الأنبياء والرسل كما تواترت وتتابعت فيهم ، رغم مواقفهم المشينة والمخجلة من الأنبياء والرسل ، فلم ينقطع عطاء الله لهم وإليهم

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾ [سورة المائدة:٧٠]

كل هذا أعطاهم إحساس بالكِبر والعُجب والغرور ، وظهر فيهم طوائف أصبح الدين ومسائل وقضايا العقيدة حرفة يحترفونها ، تحقق لهم منافع ، ويتبوءون من خلالها مناصب دنيوية ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى يتيهون على بقية الأمم بما ميزوا به" فالفضل بين الأمم ((امتياز رسمي)) محتكر لإسرائيل لأنهم أبناء إبراهيم ، والفضل بين الإسرائيليين ((امتياز رسمي)) محتكر لأبناء هارون وأبناء لاوي أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل في الدين والعلم حرفة يحتكرها

الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون ((وثيقة في صك مرسوم)) تضمن الإيثار لذلك الشعب وإن هبطت به أعماله دون سائر الشعوب ... ((فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فإنكم أقل من سائر الشعوب ، بل هي محبته وحفظه القسم الذي عاهد عليه آباءكم "[1]

وحينما أتى عيسى – عليه السلام – بدأ دعوته في ظل هذا السياق ، واستمر فترة من دعوته يؤكد ويؤصل تلك القاعدة ، أو هذا الأساس ، وإنما نتيجة التحول الذي حدث في شخصية المسيح ، بدأ يتجه اتجاها آخر مغايرا ومخالفا بل مناقضا لما كان عليه ، وتغير موقفه من اليهود تغيرا تاما

" فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هي الكلمة التي تقال في كل ما أدعوه ، وما ما استأثروا به واحتكروه .ليس الخير حكرا للنسب والسلالة ((بل الذي يعمل بمشيئة الله هو أخي وأختي وأمي)).. ((إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة بالعراء)). وإنما الرحمة عمل ، لا نسبة ولا حرفة .. وضرب لهم مثلا : إنسانا ((خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه ، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت إليه ... ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق وأولاه عنايته ، ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه ويعني به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه))...قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : ((أي هؤلاء الثلاثة أقرب إلى ذلك الصريع الجريح ؟)) والجواب الذي لا خلاف عليه بداهة أن السامري المنبوذ أقرب إليه من أبناء هارون ومن اللاويين المصطفين !"[2]

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد (١٣٧)
٢- المصدر السابق (١٣٨)

- **الدعوة تتجه إلى العالمية :**

- فهل هذا التحول أو التغير نتيجة يأس السيد المسيح من اليهود ورفضهم التام بل محاربتهم له ؟
- أو لأن العالم – في ذلك الوقت – كان في حاجة إلى الدعوة أكثر من حاجة اليهود إليها ، لذلك كان لديه استعداد واستجابة وقبول للدعوة ، وكل هذا لم يكن متوافرا لدى اليهود ؟
- أو أن طبيعة الدعوة – في حد ذاتها – بمبادئها بقيمها بتصوراتها ، كانت تميل إلى العالمية أكثر من ميلها إلى العنصرية ، وأن حبسها أو تقييدها أو تحجيمها داخل الإطار العنصري الضيق والمحدود هو بمثابة قتل لها ، وإخارجها إلى رحابة العالم الواسع هو بمثابة إحياء وانتعاش لها ؟

أما بالنسبة ما يخص السيد المسيح ، فلا أحد ينكر أنه قد وصل إلى قناعة بعدم جدوى بذل أي جهد وتبديد أي وقت مع تلك الفئات التي ناصبته العداء جهرا ، وبالأخص من رجال الدين والكهنة والكتبة والفريسيين وغيرهم ،وأن الخير كل الخير أن يتركهم مع عنادهم وغرورهم وصلفهم ، ويدخر جهده ووقته ليؤثر به آخرين ، لعل الدعوة تجد طرقا وسبلا معهم ،بعدما وصلت إلى طريق مسدود مع هؤلاء ،وهذه آية ودليل وبرهان على عظمة شخصية المسيح ، أنه أنقذ الدعوة من مخالب وبراثن اليهود ، لأنه حتى لو آمن واحتضن اليهود الدعوة لظلت الدعوة مسجونة ومقيدة بتلك العنصرية البغيضة " وماذا لو أن بني إسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غاية الأمر أن نبيا من الأنبياء يضاف اسمه إلى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم ، وتبقى إسرائيل في عزلتها كما كانت ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ ، منسية لا تذكر ، أو تذكر كما تذكر أصغر القرى التي تحكمها روما الخالدة : رومة القياصرة والجبارين المتألهين"[1]

وبالنسبة للعالم :بعد التجارب التي مر بها العالم شرقه وغربه ، وبعد سلسلة الانتصارات والهزائم والاحباطات والانتكاسات ، كان العالم في حاجة إلى شيء آخر غير تلك الصراعات الدموية التي ينام ويستيقظ عليها ، نوعا آخر من الحياة ، أسلوب مختلف من الوجود ، لقد سأم ومل من الخريطة التي رسمت للعالم ، فهنا المنتصر العزيز الغالب السيد ، وهناك المنهزم الذليل المغلوب المستذل ، هنا الأغنياء المتخمون المنعمون ، وهناك الفقراء المحرومون المتربون ، قانون الغاب هو الذي يحكم العالم ، القوي هو سيد العالم ، والحياة للقوى ويمنح الحياة لمن يشاء ، والموت للضعيف ، وحياته رهن للقوى ، إن شاء وهب له الحياة ، وإن شاء سلبها منه ، أما بالنسبة لعقيدة العالم أو عالم العقائد وقت دعوة السيد المسيح ، فقد كان العالم يمر بفترة مجاعة ، وظمأ شديد ، ليس للطعام والماء ولكن للعقيدة والدين ، ولا يرجع ذلك إلى عدم وجود أديان أو عقائد ، ولكن لكثرة الملل والنحل والأديان والعقائد والأساطير والتخيلات والتصورات ، فلم يشهد العالم كثرة فيما يخص العقائد كما شهدها إبان دعوة المسيح ، ولكن – للأسف – على كثرتها وتعددها واختلافها وتباينها لم تستطع أن تروي الظمأ الروحي لدى الإنسان ، ولم تستطع أن ترضي تطلعاته وطموحاته إلى الاستقرار العاطفي والاتزان الوجداني فيما يخص تدينه ، فكل ما يراه الإنسان أمامه على رقعة العالم أشلاء وأشتات وبقايا تصورات للآلهة التي كانت ترضي البشرية وقت طفولتها الساذجة ، أما وقد شبت – إلى حد ما – البشرية على الطوق ، وبلغت إلى

١- المصدر السابق (١٥٢)

درجة لا بأس بها من العقل والرشد ، فلم تعد تلك التصـورات والتخـيلات ترضيها أو تقنعها ، وظلت تلك الأديان او العقائد أو الملل والنحل ، تنتقل من مكـان إلى آخر وتتقارب وتتمازج وتتشابه ، ويزال ما بينها مـن فـوارق واختلافـات ، وكـأن البشرية تقوم بعمل ما يسمى ((التصفية)) أو الانتخاب أو الاصطفاء علها بعد ذلك تظفر من هذا الكم الهائل أو الخليط بشيء يرضيها إلى حدما " والنظرة الأولى إلى الحياة في الشرق الآسيوى– من بحر إيجة إلى ما بين النهرين – تبين أن عددا معينا مـن الآلهـة كان يحتل مكان الصدارة فيها خلال العهد الأول لقيام المسـيحية ، وكانـت بـين هـذه الآلهة أوجه شبه لا تحصى إلى درجة أنها امتزجت وتوحدت في بعض الأحيان ، وكـان أهمها : أتيس في بلاد الفريجيين ، وأدونيس في الشـام وملكـارت في فينقيـا ، ثـم تمـوز ومردوك في ربـوع مـا بـين النهـرين ، وأوزيـريس بمصــر ، وعلينـا أيضـا إذا أردنـا الإنصاف أن نذكر الإله الفارسي ميثرا الذي بدأت شهرته في تلك العصور بين رحاب الإمبراطورية الرومانية ، وكـان القـوم يرتحلـون مـن إقلـيم إلى آخـر ينقلـون معهـم عباداتهم وعقائدهم الدينية ، ينشـرونها في كثير من الأحيـان خـارج مـوطنهم، ذلـك أنهم كانوا يلقون ، أينما حلوا في هذا العالم الأسيوي المتقارب مظـاهر ومشـاغل دينيـة شبيه بتلك التي نشئوا عليها ، والتي عبروا عنها في صور أسطورية ، واحدة ، وأرادوا تمجيدها بطقوس متقاربة كل التقارب في غالب الأمر ، وإننا لا نـرجح نظريـة نشـوء هذه الأساطير وتلك الطقوس بعضها من بعض : إنها تشابهت لفيضها من نبع فكري وروحي متشابه . وكانت هذه القرابة سببا في تسهيل المبادلات الكثيرة بـين أصـولها ، وفي الإسراع بالتداخل والتفاعـل النشـيط بـين عناصرهـا ، فأصـبحت تتسـم بطـابع ((عائلي)) قوي ، وإن ظلت هناك اختلافات بائنة بين القصـص الإلهيـة التـي تعتمـد عليهـا جميعـا ، وقـد نـزع تيـار الامتـزاج هـذا بـين الأديـان – الـذي يعـرف ب ((التأليف))الديني الشـرقي – إلى استخلاص بعض التصورات الهامة والشعائر

الأساسية من ثنايا السيل الدافق لتفاصيل العقائد والطقوس التي تلاقت فيـه وتفاعلت ، وتلك التصورات والشعائر هي التي نلمحها قبل كل شيء عند دراسة أي من العبادات التي ذكرناها آنفا ، وهي تعتبر في الواقع العلة الواضحة لوجود كل هذه العبادات بما تهدف إليه من هدي بني البشر للإيمان وللسبيل الكفيل بتحقيق خلوده في ديار السعادة "[1]

إذن انتابت عقيدة العالم أو عالم العقائد ظواهر لم توجد إلا في عصر الميلاد أو قبله بقليل ، إن الإنسانية لم تعد تخدع بهذا الكم الهائل مـن العقائـد ، وحيـنما فقـدت الرجاء والأمل فيها ، بدأت تنظر إلى أفق أبعد ، شيء وراء أو خلف أو أبعد مـن تلـك العقائد ،كل ما هي على يقين منه ، أن ما تطلبه وتهفو إليها أفئدتها ليس موجودا أمامها ، وإنما تتلمس أثاره المبهمة الغامضة في ضـميرها ، وتتصـور وتتخيـل كيانـه وقوامـه بعقلها الذي لم يعد يقنعه تلك الأشكال البالية والأسـمال المهترئـة مـن العقائـد ، إذن المطلوب نوعا من الثورة في العقائد تطيح وتقتلع كل مـا هـو موجـود ، لأنـه أصـبح ركاما لا جدوى منه ، ويمثل ويجسد حقبـة متخلفـة مـن مراحـل تطـور الإنسـانية ، والبحث عن عقيدة ترضي كل ما في الإنسان من طموحات وتطلعات وإشباع وإرواء للروح والضمير ، وتمنح الإنسان مكانه ومكانته ، وترد له عزته وكرامته ، فقد كانـت كل العقائد تهتم بكل شيء إلا به ، ولم تكن العقائد تسعى إلى منحه الراحـة والسـكينة والاطمئنان، بقدر ما كانت تمثل أثقال وأعباء وتكليفات ، تنقض ظهره ، ويشـقى بهـا ضميره .

هذا الإحساس ، أو هذا الفكر لم يكن خاص بفئة أو جماعة أو أمة معينة ، وإنما أصبح مطلبا عالميا ،فهنا في الشرق ، ولاسيما في هذا المكان من العالم والذي وجـد فيـه السيد المسيح ، المكان كان بمثابة مجمع أديان أو ملتقى عقائد العالم ، من الشرق

---

١ -المسيحية نشأتها وتطورها – شارل جينيير– ترجمة الإمام عبد الحليم محمود – (٩١-٩٢)

والغرب ومن الجنوب والشمال ، ولأول مرة في تاريخ الإنسانية تتعايش تلك الأديان والعقائد والملل والنحل متجاورة ، متفاهمة ، بل – في أحيانا كثيرة – تتبادل الشعائر والطقوس ، وقد حدث شيء في غاية الغرابة ، أنه نتيجة التجاور بين العقائد والتأثير والتأثر ، أن كل عقيدة بدأت تبحث عما يميزها أو يجعلها مختلفة أو متناقضة عن الأخرى ،وتحاول أن تنحي هذا الاختلاف وتتخلص منه ، وتبحث عن أوجه التشابه أو نواحي التقارب بينها وبين العقائد الأخرى وتحاول أن تؤصلها وتنميها ، وهذا أوجد – إلى حد ما – ما يشبه العقيدة الواحدة التي لها أكثر من جانب أو تصور أو رؤية ، وبهذا تحققت العالمية بين العقائد ، الشيء الهام والخطير الذي يترتب على هذا ، إنك لو رفضت عقيدة ما ، فكأنك رفضت كل العقائد ، وكذلك إذا قبلت عقيدة ما ، فكأنك قبلت كل ما هو موجود من عقائد ، وهذا – ولا شك – نوع من الإفلاس في مجال العقائد، وحكم دامغ أن كل ما أمامك باطل الأباطيل ،وأصبح هناك مطلب عالمي ملح هو الحاجة إلى عقيدة واحدة تجمع في رحابها الإنسانية لا توفق أو توجد نوعا من التصالح بين الاختلافات والتناقضات ، ولكن تزيل وتمحو مثل تلك الاختلافات والتناقضات . " ولكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد أنها ((أولا)) علامة على طلب الاعتقاد وإحساس المخلصين المستعدين للإيمان بما يحيط بهم من الخواء في جو التقاليد والمعتقدات .

وأنها ((ثانيا)) علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسرى في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها " [١]

١- عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (٥٥)

عالمية في العقائد ، عالمية في الشعور ، عالمية في الفكر ، عالمية في التصور ، وكل هذا أوجد بدوره نوعا من العالمية في الثقافة – وأيضا في اللغة " وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور ، أنها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبينة أنفة من عقائد التقليد ، وأنها كانت تجري في مجراها إلى ((العالمية))التي تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها ، وأهم من هذه العالمية في النحل والمحافل ((عالمية)) في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون ، فقد كان العبرانيون يؤمنون أن العبرية هي لسان ((يهوا))الذي يخاطب به الأنبياء ويناجي به الكهان في المحاريب ، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحي باللغة الآرامية ، وما يشابهها من اللهجات السريانية ، ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل ، وكانت السريانية هي لغة التوراة والإنجيل معا ، ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح " [1]

وبالنسبة للدعوة ،الدعوات الدينية تحمل في ثناياها العالمية ، العالمية بالمعنى الرحب الشامل ، لأن ما من دعوة دينية إلا وهي تخاطب الإنسان من حيث كونه إنسان ، بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى ، بل إن أول ما تهدف إليه الدعوات الدينية محو وإلغاء تلك الاعتبارات ، وإزالة الفوارق والتميزات بين بنى البشر ، لأن مقصد تلك الدعوات هو سعادة الإنسان ،ولن يتحقق هذا الهدف النبيل ،إلا إذا شعر الإنسان أنه عضو في المجتمع الإنسان ، وأن بقية الأعضاء متساوون في كل شيء والتفاضل بينهم ليس مرجعه النسب أو الموطن أو الجنس أو اللون ، ولكن الأفضلية

١ـ المصدر السابق (٥٦)

بمقدار ما يقدمه الإنسان من نفع وفائدة للآخرين ، أو كما قال رسول الله – ﷺ – :((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) وإذا وصل الإنسان إلى تلك الدرجة ، فهو إنسان صالح ، ويسير الصلاح في ركابه أينما حل ، وأينما وجد ، بمعنى أنه خلية نشطة فعالة من وظيفتها ودورها نشر الصلاح ومحاربة الفساد ، والدعوات الدينية ، من أولها إلى آخرها تبغي وتهدف إلى جمع البشرية وتوحيدها على شيء واحد ، والتوجه إلى مقصد واحد ، ، وهذا من شأنه أن يجعلها كالبنيان الواحد والجسد الواحد ، هناك تواصل وارتباط واتفاق وتعاون وتآزر وتكامل بين أجزائه وعناصره ، وأظن أن ليس هناك شيء بقادر أن يصنع ذلك ، أو يبدع ذلك ، إلا إذا حققت الإنسانية العبودية الحقة لله – y – .

ولكن هناك دعوات دينية اختصت فئة أو جماعة أو أمة بعينها دونا عن بقية الفئات أو الجماعات أو الأمم ، وبذلك لم تحقق مبدأ العالمية ، وينطبق هذا على بني إسرائيل ، فهناك عدد لا بأس به من الأنبياء والرسل كانوا مرسلين إلى بني إسرائيل خاصة ، حتى أن السيد المسيح في مرحلة من مراحل دعوته ، كان يخص بحديثه ومواعظه بني إسرائيل .

في الحقيقة أن اختصاص دعوة من الدعوات الدينية أمة من الأمم ، ليس فيه نوع من التميز أو الأفضلية لتلك الأمة عن بقية الأمم ، لأن اختيارها لتنشر الدعوة ، وتحقق مبدأ العالمية ، وهذا ما لم يفهمه بنو إسرائيل ، إن الله اختارهم وفضلهم لأداء وظيفة والقيام بدور ، ونجاحهم أو فشلهم هو الذي سيحدد هل يستحقون الفضل والتميز أم لا ، والتفضيل في حقيقته تفضيل تكليف وليس تفضيل تشريف ، وهم ينالون التشريف إن هم أدوا ما كلفوا به ،كما هو موضح في الآية الكريمة ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [سورة البقرة:٤٠] فهناك عهد بينهم وبين الله ، والمطلوب منهم الوفاء بهذا العهد وهذا نوع من

التكليف .وهناك ميثاق كما توضح الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة البقرة:٨٣] وقد أمدهم الله بأدوات ووسائل تعينهم في مهمتهم ودورهم : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الجاثية:١٦]ولكن قد يضفي الدور على صاحبة – أو يظن ذلك – نوعا من الخصوصية والتميز والأفضلية ، وأن هذا التكليف دليل حب وإيثار ، وليس دليل اختبار وابتلاء ، وهنا لابد من تصحيح هذا الفكر المغلوط ، والوهم الذي يزيف حقائق الأمور : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة:١٨] بل إن هؤلاء الذين يظنون أنفسهم قد فضلوا وميزوا ، يلعنوا ويطردوا من رحمة الله إذا فعلوا ما يستوجب ذلك﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة:١٨] ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [سورة المائدة:٧٨] إذن الخيرية والأفضلية،هي خيرية دور،وأفضلية مهمة ، ومناطهما تحقيق الخير والصلاح للناس أجمعين كما الله – y – في أمة محمد – ﷺ–: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[سورة آل عمران:١١٠]

وكانت الدعوة المسيحية – كشأن الدعوات الدينية – تحمل في ثناياها اتجاهـا نحو العالمية ،وزاد من تقوية وتأصيل هذا الاتجـاه شخصـية السـيد المسـيح في بدايـة المرحلة الأولى من دعوته ، وكانت – العالميـة – ملمـح مـن ضـمن ملامـح أخـرى ، ولكن نظرا للتحول الذي طرأ على شخصية المسيح جعـل هـذا الملمـح أهـم ملامـح الدعوة ، بل هو المحور الأساسي التي تدور عليه بقية محاور الدعوة ، وشيء هام آخـر ساهم في نجاح الدعوة أن تصل إلى العالمية ، هو حاجة العالم إليهـا ، وإلى مـا تشـتمل عليه الدعوة من قيم ومبادئ ، نعم هي لم تحقق هذا الهدف في مدة وجيزة من الـزمن ، ولكن كان هذا راجع إلى وضـع العقبـات والعراقيـل أمامهـا ، ومحاربتهـا عـلى كافـة الأصعدة ،وحينما أزيلت من أمامها العقبات والعراقيل وصلت إليه ما وصلت إليه ،" تحولت الدعوة من خاصة إلى عامـة ، ومـن أمـة واحـدة إلى سـائر الأمـم ، بـل إلى ((الإنسان))فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل إنسان .

وحدث هذا التحول والعـالم الإنسـاني متهيـئ للـدعوة الجديـدة مـن أعـماق وجدانه، وإن لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ،أو يسبر أغوارها .

والعالم الإنساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته إليها ، ولا يلـزم عـلى الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج إليها أو إلى شيء من قبيلها .

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الإنسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام ، ولكنها قد وجدت في بقاع من الأرض ولم توجد في سرائر الضمير ،ولعـل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصـبة ، قبـل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها إلى الأخوة والصفاء .

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء ،فاتسعت رقعة العالم المتوحد لإناس من جميع العصب والسلالات ،

لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، أما في ربقة الرق الصراح أو في ربقة أخرى لا تقل عنها في القسوة والنقمة ، وهي ربقة الحرمان والقنوط "[1]

قدرية الدعوات الدينية :

أرجعنا اتجاه المسيحية إلى العالمية ، وخروجها من النطاق الضيق المحدود إلى ثلاثة أمور :

- أمر خاص بشخصية المسيح .
- أمر خاص بطبيعة الدعوة .
- أمر خاص بحاجة العالم .

فهل فعلا اتجهت الدعوة إلى العالمية لأن الأسباب انحصرت في الأمور التي ذكرناها ، أم ان هناك سبب آخر ؟

بمعنى أن تلك الأمور قد تتوافر لدعوة ما ،ومع ذلك لا تحقق مبدأ العالمية. إذن فالأمور التي ذكرناها وسائل وليست أسباب ،والفرق بين السبب والوسيلة ، أن السبب يترتب عليه نتيجة لابد أن تحدث ، أو أن النتيجة لابد أن يتقدمها سبب ، فهناك ارتباط وثيق بينهما ، أما الوسيلة فلا يلزم أن يتوافر لها هذا الحتم بينها وبين النتيجة والمقصد ، فالوسيلة لا تحقق نتيجة وإنما تصل إليها ، أو قل إن الوسائل تظهر النتائج وتجليها .

فهناك شيء آخر غير شخصية المسيح هي التي حققت للدعوة ما حققت، لأن المسيح لم يمكث سوى مدة وجيزة يتولى أمر الدعوة ، أما ما حدث بعد ذلك، فلا علاقة بينه وبين السيد المسيح وهناك شيء آخر غير طبيعة الدعوة هي التي حققت للدعوة ما حققت ، لأن لو رصدنا – بالمنطق والعقل – التحديات والعقبات التي

١ـ المصدر السابق (١٦٠)

وقفت أمام الدعوة ، لأدركنا أن الدعوة مقضي- عليها لا محالة ،فليس من طبيعة الدعوة مقابلة التحدي بتحد ، أو استخدام القوة لإزالة تلك العقبات .

وهناك شيء آخر غير حاجة العالم هي التي حققت للدعوة ما حققت ، فكثيرا ما كان العالم في مسيس الحاجة إلى أشياء ومع ذلك ، لم تتحقق تلك الأشياء ، فليس حاجة العالم هي التي تسيره ، فمثلا الآن العالم في مسيس الحاجة أن يسود العدل والمساواة والحب ، ومع ذلك فلا عدل ولا مساواة ولا حب ! إذن أمر الدعوات الدينية متعلق – أولا وأخيرا – بإرادة الخالق ، ومسارها وتحولاتها بيده ،وكل الأمور والعناصر ما هي إلا وسائل مسخرة ومذللة لتنفيذ تلك الإرادة التي فوق كل الإرادات ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠] ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة القصص:٥٦] هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولاسيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شيء هو أدعى إلى التدبر الطويل وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الإنسان إلى محور من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي إليها دعواتهم على غير قصد منهم ،بل على خلاف ما قصدوا إليه ، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوة كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلمها المستجيبون لها أين تسير ، وإلى أين يسيرون "[١]

١- المصدر السابق (١٥٢)

• النهاية والبداية

هناك دعوات تبدأ البداية الحقيقية حيث يظن أنها قد انتهت ، وتبعث حية قوية حيث يظن أنها ماتت وفارقت الحياة ، وتتمسك – عن ذي قبل – بالوجود والحياة حيث يظن أنها قد قضي عليها ،وينطبق هذا على الدعوة المسيحية .

والسيد المسيح كان يدرك هذا إدراكا عميقا ، وأنه متى بدأت دعوة دينية ، لابد أن تصل إلى منتهاها ، وأن تلك العقبات والحواجز التي تعترضها تقوى من شأن وأمر الدعوة أكثر مما تضعفها ، لأنها – العقبات – بمثابة ابتلاء واختبار لمعدن الدعوة ومقدار صدقها وثباتها ورسوخها ، وأن الضربات والطعنات التي توجه لها، هي نوع من الاستفزاز والاستنفار لتخرج الدعوة وتعلن عن كل طاقاتها وإمكانياتها للتحمل والمواجهة ، وشق طريقا لها في هذا العالم ،منذ اللحظة الأولى التي قام فيها السيد المسيح بالدعوة ، وهو يعلم أن لحظة النهاية

لابد قادمة ، نهايته هو وليست نهاية الدعوة ،لأنه أدرك أنهم يستطيعون – فعلا – أن يقتلوه ، وينهوا وجوده المادي ،ولكنهم أبدا عاجزون على أن يقضوا على الرسالة ، أو حتى يحجموا أو يبطئوا من انتشارها ، فالدعوات الدينية مثل الشمس عندما تشرق وتسطع ، لا أحد يستطيع أن يقف أمامها أو يمنعها أن ترسل ضياءها إلى كل مكان في الكون ، كل ما يقدرون عليه أن يغمضوا هم أعينهم كي لا يروا النور أو يضعوا حجبا وحواجز وموانع من وهمهم وجهلهم وضلالهم تمنع وصول شعاع الشمس إليهم ، ظننا منهم أنهم بهذا منعوا الشمس أن تشرق .

وقد أدرك المسيح أن الإنسانية كانت في مسيس الحاجة إلى دعوته ، لأنها أزالت عن قلوبهم الأقفال ، وقشعت عن عيونهم الظلمات ، وبددت ما كان يجسم فوق نفوسهم من جمود وتحجر .حينما يرد للأعمى بصره ، ويرى عظمة وجمال وجلال وإبداع الخالق فيما خلقه ، لن يعود مرة أخرى للظلام ، لقد كان المسيح يشفي

الأبرص من مرضه ، ويرد للأعمى بصره ، ويحيى الميت وكل هذا بـإذن الله ، وأعتبر الناس أن ما يقوم به المسيح معجـزة مـن المعجـزات ، ولكـن معجـزة المسـيح الكبرى والعظمى لم تكن في كل هـذا ، كانـت أنـه اسـتطاع أن يشـفي الإنسـانية مـن أمراضها الفتاكة ، من الحقد والغضـب والكراهيـة والظلـم والاسـتبداد ، لم تكسـب الإنسانية كثيرا حينما يتم شفاء فرد أو اثنين أو حتى عشرين وثلاثين ، ولكنها تكسـب كسبا عظيما حينما تشفى هي من أمراضها ، واستطاع المسيح أن يعيد إليها نـور البصرـ ،وهداية البصيرة ؛ لتبصر طريقها السوى المسـتقيم بعـد أن كانـت تتخـبط في جهلهـا وضلالها ، واستطاع أن يحي الإنسانية بعد أن كانت جيفـة ومرتعـا للـدود ، اسـتطاع المسيح أن يجعل الإنسانية أن تشـعر وتتـذوق حـلاوة وأنـس وبهجـة ومتعـة وجمـال الوجود ،حينما تكون على وفاق وتصالح مع خالقهـا ،وبهـذا قـدم المسـيح للإنسـانية أعظم كشف ، وهداها إلى أجل كنز ، أن السعادة بيـد الإنسـانية إذا هـي أرادت ، وإن الشقاء – كذلك – بيدها ، إذا هي صمت وعميـت وجحـدت وعانـدت أن تسـير في سبل الهداية والرشاد ، لقد غير المسيح وجهـة واتجـاه ونظـر الإنسـانية مـن المـادة إلى الروح ، من عبـادة الشـيطان إلى عبـادة الله ، مـن قـوانين الـبطش والقسـوة والحقـد والكراهية التي كانت تحكم العالم ، إلى مبادئ الرحمة واللين والحب والتسـامح ، وأنـه لا يجب أن يكرس الإنسان كل اهتمامه وتفكيره في تدبير أمـور هـذا العـالم والتكالـب والتنازع على جنى حطامه ، فهناك عالم آخر هو الأولى بالاهتمام والتفكـير ، لأنـه هـو العالم الحق وهو العالم الباقي ، وهو ملكـوت السـماء " ولم تقـرر المسـيحية دعـوة كـما قررت هذه الدعوة التي تفرق بها كل التفرقة بـين مملكـة العـالم وملكـوت السـماء أو ملكوت الله ، وتكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة في هذه الدعوة قبـل غيرهـا مـن دعواتها الأصيلة ، فقد كان حتما لزاما أن تجتهـد المسـيحية اجتهادهـا كلـه في التفرقـة الكاملة بين مملكة الأرض وملكوت السماء الذي بشـر به السيد المسيح: كان ذلك

حتما لزاما لأنها نقلت رسالة المسيح المخلص من إقامة العروش على الأرض – أو تجديد ملك داود – إلى إقامة الملكوت الإلهي في السماء ، وكان ذلك حتما لزاما لأنها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الأرض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم في حمى الله صاحب الملكوت الأعلى إذ يكون أصحاب السيادة والطغيان في حمى الشيطان وفي هاوية الأرض وما وراء من هاوية الأرض الجحيم : ((طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض طوبى للجياع والعطاش لأنهم يشبعون طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماء "[1]

كان المسيح طبيب الإنسانية المعالج والمداوي ، وأدرك أن الإنسانية قد تماثلت للشفاء أو هي في طريقها لذلك ، فلا مبرر لبقاء الطبيب بجوار المريض ، أو الذي في طريقه للشفاء ، بل إن بقاء الطبيب قد يؤجل من الشفاء ، أو يبطئ من سرعته ، لذلك فعليه أن يغادر ، إن وجوده كان مرتبطا بدور ومهمة ، وقد أدى دوره ، وأنهى مهمته ، وإن نجاحه وتوفيقه لن يتجلى ويتكشف ،إلا في لحظة غيابه ، فإذا استمرت الدعوة وواصلت سيرها وأخذت تكبر وتنمو ، غير معتمدة على وجوده وحضوره ، فقد نجح المسيح نجاحا باهرا ووفق توفيقا عظيما ، وإذا ذبلت وضمرت وذوت وماتت الرسالة ، فهذا دليل فشل وبرهان اخفاق .

وكأني بالمسيح كان يتعجل تلك اللحظة التي سيرى فيها نتيجة عمله ، ومصير جهده وتعبه وجهاده .

١ -إبليس – عباس محمود العقاد – (١٢٦)

بل كأني بالمسيح قد أعدَّ العدة ، وهيأ وجهز نفسه لـترك هـذا العـالم ، لـيس مبغضا ولا كارها ولا يائسا ولا محبطا ولا مكتئبا ، ولكن لأن هذا – في حد ذاتـه – في صالح الدعوة ، ويحقق نفعا للرسالة .

ولقد صدق ظن المسيح ،ولقد صح فكر المسيح ، ولقد تحققت كـل توقعـات المسيح ، وانطلقت الدعوة ولم يستطع أحد إيقافها .

وكانت لحظة تركه مكانه وابتعاده من أعظم وأجل المراحـل التـي مـرت بهـا الدعوة ، لأنها أثبتت أن الدعوات الدينية إن كانت تستمد قوة أو مددا أو عونا ، فهـي تستمدها من ذاتها من مبادئها من قيمها ،وبقاؤها دليل عـلى حاجـة الإنسـانية إليهـا ، الحاجة التي تجعل وجودها مرتبطا بها ارتباطا وثيقا .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هو يعلم أنـه حلقـة في سلسـلة طويلـة مـن الأنبياء الكرام ، وأن تلك السلسلة ستستمر وتتواصل ، وأنه إذا كان (يوحنا) تمهيـدا وإعدادا له ، فلا شك أنه يعتبر – بصورة أو بأخرى – تميدا وإعدادا لمن سيأتي بعـده ، فهو يستلم الراية من نبي سبقه ، وسوف يستلم – من بعده – نبي آخر يكمل ويتم مـا بدأه المسيح ،

" وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني ،وليس أحد منكم يسألني أين تمضي، ولكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ، لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ،ومتى جـاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى برٍ وعلى دينونة ، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنـون بي ، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضا ، وأما على دينونة فلأن رئيس هـذا العالم قد دين .

إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك رُوح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمورآتية ، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم ، كل ما للآب هو لي ، لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم ، بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضا ترونني لأني ذاهب إلى الآب "[١]

- **المدن المقدسة والدعوات الدينية (مكة – أورشليم)**

مكة : لقد ضاقت "مكة " بمحمد – ﷺ – وضاق محمد بمكة ، لذلك بحث عن مكان آخر ،فكانت " المدينة " ، وسعته ووسعها ، ووجدت الرسالة وصاحبها عالما رحبا لتنطلق منه إلى العالم الواسع ، وقبل أن يقرر ÷ الخروج وصل إلى مرحلة حرجة من الصدام مع قريش ، إلى درجة أن الليلة التي خرج فيها ، كانت تمت تدبير المؤامرة لقتله ، والإجهاز على رسالته ،وإن كانت مقدمة الأحداث التي سبقت المؤامرة بقليل تملي على محمد – ﷺ – أن يقدم موعد الخروج ،ولا ينتظر حتى تكتمل خيوط المؤامرة لقتله ، وربما تمهل حتى يستنفد آخر رمق ، أو آخر ما يمكن أن يصل بمراحل الرسالة في مكة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حتى تتهيأ " المدينة " وتستكمل استعداداها لاستقبال صاحب الرسالة العظيم استقبالا يليق به ، وبقدر ما كانت مكة تمثل قوة طرد وغدر للرسالة وصاحبها ، كانت المدينة تمثل قوة جذب ووفاء للرسالة وصاحبها .

وكان قرار الخروج من أعظم القرارات المصيرية والتي كان لها أعظم وأجل الأثر في الدعوة الجديدة ،بل لا نبالغ أنه لو لم يتخذ قرار الخروج ، ما فتحت مكة بعد ذلك ، وعلى ما يبدو أن الرسول الكريم قد وصل إلى قناعة ، أن معقل الكفر والوثنية

١ -إنجيل يوحنا – الإصحاح السادس عشر

لن يسمح بان تنطلق الدعوة من هذا المعقل القوي والحصين ، ولن تفيض أنوار الرسالة من بين بطاحها على العالمين ، إلا بعد أن ترغم ويدق الإسلام أبوابها من الخارج ، حينئذ لا تجد عاصمة الجمود والتحجر والكفر والإلحاد مناصا أن تخضع وتنصاع بل وتستسلم لمن كانت تناصبه العداء وتلاحقه بالأمس القريب .

وقد قررت "مكة" التخلص من الداعي ؛ لأنها أدركت مدى جدة وجدية الدعوة ،وأنها لن تهدأ حتى تغير وتبدل حال مكة من حال الوثنية إلى حال التوحيد .

وقد قرر الداعي الخروج بنفسه والانتقال إلى مكان آخر ، لأن الدعوة كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها انحصرت فيه ، وكلمة قالها صديقه البكري وهو شديد الحرص على حمايته وفدائه بنفسه أثناء الهجرة والأعداء يجدون في البحث عنه ليقتلوه ((إن تصب اليوم يذهب دين الله)) .

وقد ارتبطت الدعوة ارتباطا مصيريا بمحمد ، لأنها دعوة جديدة لا مثيل ولا نظير لها ، جاءت لتغير عالم العقيدة ، جاءت لتؤسس وتؤصل وتبني ، دعوة هذا شأنها لابد أن تحطم وتزيل وتبدد القديم الفاسد الباطل قبل أن تبنى الجديد الصالح الحق ، وهذين الأمرين – التحطيم والبناء – بتلك الصورة لا يقدر عليها سوى نبي ، فحينما دخل الرسول مكة حافظ عليها وعلى كل ما فيها ، ولكنه تخلص من رموز الشرك في جوف الكعبة ، فحطم جميع الأصنام ، ولم يقاتل أحدا من البشر إلا من رفع السيف ، وعفا عن كل المكيين ، وهذا العفو كان له أثر عظيم في النفوس ، لم يقتل البشر ، ولكن قتل ما في نفوسهم من عداء ولدد للدعوة الجديدة ، وبدد ما في ضمائرهم من حقد وكراهية للداعي .

أورشليم :وليس الأمر هكذا في أورشليم ،فالدعوة التي جاء بها السيد المسيح ليست جديدة ، ولم يأت ليحطم وبالتالي لم يكن ثمة بناء جديد ، ((ما جئت لأهدم الناموس)) ، جاء ليعيد خراف بني إسرائيل الضالة إلى حظيرتها ، جاء ليوقظ العالم ،

جاء ليزيل تلك الأختام والأقفال من على القلـوب والعقـول والضـمائر ،ولا يظن أحد أن مهمة عيسى كانت سهلة أو يسيرة ، بل كانت في قمة العسر ؛ لأنك مـن السهل أن تتعامل مع وثني أو ملحد ، ولكن من العسير أن تتعامل مع متمسك بعقيدة باطلة أو شابها القليل أو الكثير من الأوهام والأغاليط والانحرافات ، أما الذي لـيس له عقيدة ، فليس بيده شيء يتمسـك بـه أو يتحصـن وراءه ، ففـي أن تقـدم للإنسـان عقيدة جديدة وهو خالي الذهن ، خير مـن أن تصـلح لـه عقيدتـه المعوجـة ، أو التـي تصحح له الفهم المعوج لتلك العقيدة. وأن تأتي له بثوب جديد خير له – ولك – من أن ترقع ثوبا قديما برقع جديدة ،فسيظل الثوب قديما ، وتظل الرقعة رقعـة رغـم أنهـا جديدة ، أو تضع شرابا جديدا في قناني قديمة ، كما قال السيد المسيح .

ولم تولد دعوة السيد المسيح في مدينة مقدسة ، كالقدس مثلا ، وإنما بدأ السيد المسيح دعوته من بلدة صغيرة وهى ((الجليل)) ،" وفي إقليم الجليـل – وهـو الجـزء الشمالي من فلسطين حيث ولد عيسى – لم تشارك غالبية الشعب من السـذج البسـطاء في حياة اليهود الجديدة إلا إبان عهد المكابيين ولم تخـتلط كثـيرا بالطبقـات العليـا مـن الكهان . أما ((الكتبة))، فلم يخل مـنهم الإقلـيم تمامـا ، إلا أنهـم لم يبلغـوا فيـه مـن الانتشار ما بلغوه في القدس أو في الأقاليم الوسطى من فلسطين وكذلك لم يصلوا فيه إلى تلك المرتبة الرفيعة من الشهرة والنفوذ التـي كـان يعتـد بهـا غـيرهم مـن أسـاتذة المدارس اليهودية ، وكان المثل الشائع يقول : إن أهل الجليل يتميزون بالعناد وصلابة الرأي . ولعل مرجع ذلك أن جبـالهم كانـت في أول عهـد الاسـتعمار اليونـاني ملجـأ لعصابات من الثوار القوميين ذوي البأس الشـديد والمثـابرة في مقـاومتهم الرومـان . وكان الناس يسخرون أيضا من لهجتهم الريفية في الحديث ، إلا أنهم قد احتفظوا فـيما يبدو بنوع من التقوى التلقائية المتحمسة في عمق عميق يدل على قوة الحيوية الدينيـة ، ولا تقيده دقة المراسيم والطقوس التي اختص بها الفريسيون في ريائهم الديني .

إذن فقد ولد عيسى ونشأ في بلد يهتم معظم الناس فيه بالمسائل الدينية أولا ، وخرج من بيئة شعبية يعين أفرادها على الأمل الساذج ترقبهم القلق لتلك المعجزة الباهرة التي سوف يثاب بها اليهود على تقواهم ، والتي سوف تجعلهم ملوكا في الأرض "[1]

ولم تكن البلدة ولا سكانها يتمتعون بمكان أو مكانة عند سكان البلدان المجاورة ، لأن سكان الجليل اتسموا بالصراحة والبساطة والإيمان النقي ، في زمن كان التشدد والتعصب والتحجر والغلظة هي السمة البارزة التي تميز معظم طوائف اليهود ، لذلك كان هناك توافق أو تناغم بين الدعوة والمهد الذي نشأت فيه ،أو أن شخصية المسيح اختزلت كل سمات وصفات أهل الجليل وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعادتهم ((أنه لا خير يأتي من الجليل ، وفي إنجيل يوحنا أن نثنائيل عجب حين قال له صاحبه ، ((أننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسى)) وانه من الناصرة في الجليل ، فأجابه مستغربا : ((أمن الناصرة يجيء شيء صالح)) .

وفي إنجيل يوحنا أيضا يروى عن رجال الهيكل أنهم كانوا يقولون متهكمين ((أنه لم يقم نبي قط من الجليل)) .

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله في نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ، ولكن هذا السبب بعينه هو الذي جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة الإنسانية التي ترقبها العالم في ذلك العصر ، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الإخاء بين الأمم في كنف الحجر والجمود "[2]

١- المسيحية نشأتها وتطورها – شارل جينيير – (٤٦- ٤٧)
٢-عبقرية المسيح –عباس محمود العقاد – (٧٣)

ولكن إذا كان التوفيق حالف الدعوة المسيحية بأنها بدأت من الجليل ، وهـذا المكان بمواصفاته ومواصفات سكانه شكل مهدا طيبا للدعوة ، فإنه في نفس الوقـت كان سببا في فرض تحديا صعبا وقاسيا على الدعوة مستقبلا ، فكـان لابـد وأن تطـرق وتدق أبواب أورشليم ، والذي زاد من صعوبة وقسوة التحدي، الاخـتلاف الشـديد بـين طبيعـة الـدعوة ، وشخصـية المسـيح مـن ناحيـة ، وطبيعـة المدينـة العقائديـة ، وشخصيات الكهنة ورجال الدين من ناحية أخرى ، فلـيس هنـاك أرض مشـتركة – بأي حال من الأحوال – بين الاثنين ، والعقائد المختلفة لا تعرف التصالح أو التهادن أو أنصاف الحلول، فكما قال السيد المسيح: ((من ليس معي ، فهو على ، ومن لا يجمع معي ، فهو يفرق)).

إذن كان من طبيعة الأمور ،أن تولد الدعوة بعيدا عن أورشليم ، وبعيدا عـن الجمود والتحجر والتعصب، وتنمو وتقـوى وتسـتغلظ ، ثـم بعـد ذلـك تـذهب إلى أورشليم ، فإذا حدث وقبلتها أورشليم فقد قبلت دعوة تامة كاملة قوية ، لا تسـتطيع أن تبدل أو تغير فيها ، أو أن تصبغها بصبغتها وإذا رفضتها ، فلن يغير هذا الرفض من أمر الدعوة كثيرا، بل قد يزيدها قوة وانتشارا ، لأنها بذلك تكـون قـد حصـلت عـلى شهادة من مدينة مقدسة ،أنها دعوة تستحق أن تحارب وتقاوم .بل إن الدعوة الجديدة ارتبطت – بصورة ما – بالمدينة المقدسة

- إلى " أورشليم "

تمر الدعوات الدينية بمراحل متعددة ،وكـل مرحلـة تـدفع الـدعوة قـدما إلى الأمام ، وتفتح لها آفاقا جديدة ، ولكن تكون هناك مرحلة هامة وخطيرة ، لأن تلـك المرحلة هي التي تحدد مسار الدعوة إلى الأبـد ، ولأهميتهـا وخطورتهـا قـد تعـز عـلى البعض أن يقدرها حق قدرها أو يفهمها فهما حقيقيا ، لأن الكثيرين يتعاملون مع تلك المرحلة كما يتعاملون مع كافة أمورهم الحياتية ، من تحكيم العقل والمنطق تحكيما قاصرا

ومحدودا وضيقا ، بينما الأمر – على خطورته وأهميته – في حاجة إلى أسلوب آخر من التفكير ، طريقة جديدة في معالجة الأمور،نظرة أو رؤية عالية محلقة تدرك أسمى الغايات التي تفتح للدعوة أفاقا جديدة ، مستخدما بعد ذلك أي الوسائل أو الطرق لتصل به إلى تلك الغاية ، وهنا لا اعتبار للوسائل والطرق ، فمهما كانت مكلفة ومهما كانت صعبة ومؤلمة ، إلا إن كل شيء يهون في سبيل الوصول إلى الغاية ، بالضبط مثلما حدث في صلح الحديبية الذي أقره النبي – ﷺ – مع قريش ، فقد كادت تحدث فتنة بين صفوف المسلين حينما سمعوا بشروط الصلح التي قبلها النبي ، وشعروا بالخزي والعار والمهانة والضآلة ، ولكن كل هذا مكظوم داخل الصدور لا يستطيعون أن يفضفضوا عنه ، فالذي أقر شروط الصلح هو الرسول ، ولكن هم لا يفهمون ، كيف يوافق ويقر الرسول شروطا هو والمسلمون في غنى عنها ؟!

فهناك بدائل أخرى كثيرة يلجأ الرسول إليها ، غير تلك الشروط المجحفة الظالمة .

ولكن بعد قليل ، وفي اثناء عودتهم إلى المدينة ، انقشعت الغمة ، وزال الغموض ، واتضح ان تلك الشروط أو هذا الموقف أو تلك المرحلة من مراحل الدعوة كانت من أهم وأخطر المراحل ، فقد كانت فتحا مبينا للدعوة ، على أثرها فتحت مكة عقلها وقلبها للدعوة قبل أن تفتح أبوابها ، إذن البعض ظن أنه هزيمة ورجوع وارتداد للدعوة ، ولكنه كان نصرا وتقدما وفتحا للدعوة .

كذلك ذهاب السيد المسيح إلى القدس ، ظنه البعض أنها قفزة إلى المجهول ، لجأ إليها السيد المسيح بعد يأسه وإحساسه بالفشل والإخفاق في دعوته " والأسباب التي دعت به إلى الرحيل إلى القدس غير واضحة . والأرجح أن الدافع له لم يكن فقط الاحتفال بعيد الفصح في المدينة المقدسة .

لقد حرر مؤلفو أناجيلنا نصوصهم في عصور أصبح فيها ((سر)) حياة عيسى يتلخص في فترة واحدة هي فترة موته ، تلك الميتة التي ارتضاها ثمنا لإحياء وتخليص البشرية ، وافترض هؤلاء المؤلفون أنه شرح منذ البداية ضرورة تعذيبه وصلبه ، لذلك لم يترددوا في القول بأن عيسى أتى القدس لإتمام رسالته الإلهية على الصلب الذي ينتظره فيها .

أما المؤرخ فإنه لا يجد مناصا من الوقوف أمام الغموض والإبهام اللذين يلحظهما في التسلسل الواقعي لنفسية عيسى ولأغراضه الحقيقية من هذه الرحلة . هل أحس إحساسا مباشرا بإخفاقه ؟ إن الوقائع الصريحة تدعونا إلى الإيمان بذلك . والحق يقال إنه ليس من السهل علينا تصور إمكانية نجاحه في ما كان يسعى إليه : فدعوته الأخلاقية لم تكن لتحمل مغزاها وتؤتي ثمارها إلا في حالة تدعيمها ببعض الإشارات المنبئة بقرب ذلك اليوم العظيم الذي يعد به . ولم تكن هذه الدعوة لتجد سندها الطبيعي إلا في تحقق كلمته .

ولكن الإشارات لم تظهر ، ولم تتحقق كلمة النبي . فاضطر المؤمنون به إلى القول بأن الأتباع الأول لم يفهموا حديثه كل الفهم ، وأنه هو قد أبهم لهم الحديث وجعله رموزا ، ولو اعتمدنا على وصف دخوله مدينة القدس دخول المنتصر بين هتافات الجماهير لظننا انه كان يؤمن إيمانا راسخا بوصوله إلى الحق وبدعوته إليه ، وأنه أيقن أن هذا الحق لن ينجلي عنه النقاب إلا في القدس حيث يقوم اليوم الموعود بجلاله ورهبته ، غير أننا من جانبنا نشك كثيرا في صحة هذا الوصف .

ومهما يكن الأمر من أغراض أو آمال عيسى ، فقد أخطأه التوفيق في الانتقال إلى هذا المجتمع الذي لم يكن بمجتمعه والذي كان يسيطر عليه أعداؤه الطبيعيون "

[1]لم يصب السيد المسيح في شيء قدر إصابته في الذهاب إلى القدس ،لقد حسمت أمور كثيرة خاصة بالدعوة ، وخاصة بشخصية المسيح ، بذهابه إلى أورشليم .نعم لقد ولدت الدعوة في ((الجليل)) ، وكان للدعوة بمثابة المهد الذي بدأت منه تحبو وتمشي أول خطواتها المترددة المتعثرة ، ولكن كان هناك على البعد المدينة المقدسة ،وقد حددت نوعية العلاقة التي تربطها بالدعوة ، فقد اختارت أن تناوئها وتحاربها – من على البعد – ولكن يبقى أن تحدد الدعوة الجديدة موقفها من المدينة ، وفي وقت ما قرر المسيح

- ولنا أن نسأل أولا : هل كانت هناك أمور تدفع المسيح للذهاب إلى أورشليم ؟
- أو هل كانت هناك أمور تجذب المسيح للذهاب إلى أورشليم ؟
- أم إن المسيح وقع تحت ضغط أمور تدفعه للذهاب إلى أورشليم ، وأمور أخرى تجذبه إلى أورشليم ؟
- بمعنى أن الذهاب إلى أورشليم لا مناص منه ،وكأن الذهاب كان قدرا لا مفر منه .

وليس معنى ذلك أن المسيح ذهب مضطرا ومرغما إلى أورشليم ، ولكن في أوقات – ولعلها من أعظم وأجل الأوقات – يحدث توافق واتفاق بين إرادة الإنسان والقدر ،ذهب المسيح وهو يعلم أن أهم مرحلة من مراحل الدعوة سيكون ختامها هنا في القدس ، لذلك لم يستتر ولم يهادن ولم يتوارى وأخرج كل ما لديه ، وألقى كل ما في جعبته ، " هنا موقف من المواقف التي نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث .

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والإتباع منكرا لرسالته حذرا من إعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه التخفي والاستتار .

١- المسيحية نشأتها وتطورها – شارل جينيير – ترجمة االإمام عبد الحليم محمود – (٥٩-٦٠)

وماذا يقع من أثر التخفي والاستتار في نفوس المؤمنين برسالته الروحيـة إن لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعـم العـالم في الخفـاء ،وتسـتر لسبب من الأسباب ، فضلا عن السبب الذي يسبق إلى الأذهـان لأول مرحلـة وهـو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيـد عـن الـواجبين ، ولتكن الآية الإلهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين "[1]

وقد يبدو غريبا وعجيبا أن يقصد المسيح معقل العداء والخصام والمؤامرات ، والمكان الذي يطلق منه القذائف التي تبغي تدمير والقضاء على الـدعوة وصـاحبها ، وكل خطوة كان المسيح يخطوها نحو أورشليم كانت تقربه من النهاية .

ولكن أي نهاية ؟

ألم يدر بخلد المسيح أنه إن صعد إلى أورشليم وواجه أو نـاقش أو تحـاور مـع رؤساء الكهنة وفطاحل رجال الدين سيلجمهم ويقيم الحجة عليهم وينتصر عليهم ؟

ألم ينتصر عليهم ويخرسهم في كل المواجهات التى واجههم فيها ؟

ألم ينسحبوا من أمامه وهم يجرون أذيال الانكسار والهزيمة ؟

ألم ينهزموا أمام علمه وحكمته وخبرته ودرايته ؟

ألم يخضعوا وتعنوا جباههم أمام إيمانه وثقته بدعوته ؟

ألم يستسـلموا أمامـه وهـو يفضـحهم ، ويكشـف أعمالهـم وتصرـفاتهم ، وسرائرهم ، وضمائرهم الخربة ، ونفوسهم المريضة ؟

وهؤلاء الذين انتصر عليهم كانوا رسل ومبعوثين "أورشليم" .

١ـ عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد – (٢٠٩).

إذن ليقتحم عليهم معقلهم ، وليدك عليهم حصنهم ،وليحطم عليهم ملاذهم ، ويدمر ملجأهم .

أو أن السيد المسيح صعد إلى أورشليم ليطهرها منهم ؟

والدليل على ذلك أول ما فعله حينما دخل الهيكل " ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام ، وقال لهم : مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص "[1]أراد أن يوجه ضربة قاضية ، ولم ينتظرهم لكي يأتوا إليه ينصبون الفخاخ ويقيمون الشراك ، ولكن سعى إليهم سعيا ، لينهى المعركة بينه وبينهم ، وهو لم يفكر ، هل سيقدر على تنفيذ ما يريده أم لا ؟ وهل سيسمحون له أن يهز العرش الذي يتربعون عليه ، لا إنه لا يريد هز العرش ولكن يريد اسقاطهم من عليه ، ويعلم أنه ليس من السهل ولا اليسير أن يتنازلوا عن عرشهم الذي توارثوه عبر قرون ، فالهيكل لا يمثل لهم رمزا دينيا فحسب ، ولكنه تجسيد حي لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، كل جود اليهود الديني مختزل في الهيكل ، هم لا يتصورون وجودا بدون هذا الهيكل ،فهو مصدر قوتهم وفخرهم واعتزازهم وتميزهم ، فهو المركز أو النواة القوية

التي تدور كل أمورهم الدينية حوله ، ولمكان ومكانة الهيكل في النفوس ، استغله رجال الدين ورؤساء الكهنة استغلالا دنيويا بشعا ،فلا سلطان ولا نفوذ ولا هيمنة على اليهود بدون وجود هذا الهيكل ، وكانوا على استعداد أن يتسامحوا مع المسيح ويتغاضوا عن كل ما يقول ، طالما لم يمس وضع الهيكل وتلك العلاقة الغريبة والعجيبة التي تربط رجال الدين به ، أما أن يأتي ويحضر إليهم في عقر دارهم ، ويعصف بهم ، ويصفه بأن تحول إلى مغارة لصوص ،فهذا ما لا يمكن أن يتسامحوا فيه أو أن يتغاضوا عنه . " إلا أنه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الإشراك التي ترصد له في كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التي كانت تنهال عليه أن القوم

١- إنجيل متى – الإصحاح الحادي والعشرون .

يأتمرون به لإهلاكه ، إذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع إلى هدف واحد وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت ((الكفر)) ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والإحراج تستند إلى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول إحراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو – نيقوديموس – كان يزوره ليلا ولعله واحد من كثيرين "[1]

لقد أخطأ اليهود مرتين :

- مرة حينما سمحوا للسيد المسيح أن يدخل القدس بالشكل الذي دخل عليه ، فهو دخول نبي كما تقول نبوءة نبي "ولما قربوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاحي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلا لهما : اذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت تجدان أتانا مربوطة وجحشا فحلاهما وأتياني بهما ، وإن قال لكما أحد شيئا فقولا الرب محتاج إليهما فللوقت يرسلهما ، فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل ، قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش ابن أتان ، فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع وأتيا بالأتان والجحش ، ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق ، آخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها في الطريق ، والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا لابن داود ، مبارك الآتي باسم الرب ، أوصنا في الأعالي ، ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا ؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل "[2]

١- عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد – (٢١١)
٢- إنجيل متى – الإصحاح الحادي والعشرون .

فدخوله على تلك الهيئة اعتراف ضمني وإقرار صريح ، – ولو على المستوى الشعبي بنبوته – فالمدينة مقدسة ولها ما لها من جلال في نفوس الناس ، وأن يدخل المسيح تلك المدينة المقدسة بالجلال الذي عليه وأن يفرش طريقه بالأغصان وثياب الناس وسط التهليل والدعوات والأناشيد

والجموع التي تحيط به ، وترتج المدينة ويسأل القاصي والداني فيقال هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل ، إذن مجيئه ودخوله بدون أن يمنعه أحد أو يعترض عليه أحد أو حتى يشغب عليه أحد له معنى عميق ، ومغزى أصيل ، فماذا بعد دخول المدينة المقدسة على هذا الشكل ؟!

– المرة الثانية حينما قاموا بمحاكمة السيد المسيح بالطريقة التي حوكم بها وقدموا الحجج الواهية والأسباب الضعيفة والمبررات المتداعية لإدانته ، فهذا الحكم ، أو مجرد التفكير في محاكمة المسيح هو إدانة لهم ، وحكم دامغ وقاطع ليس بإبعاد وإقصاء السيد المسيح من انتمائه لليهود ، بل هو إبعادهم وإقصائهم بانتمائهم للمسيح ، هم – في حقيقة الأمر – حكموا على أنفسهم ولم يحكموا على المسيح ، أدانوا أنفسهم ولم يدينوا المسيح ، أضاعوا فرصة تاريخية أن يرتفعوا ويحلقوا ويتخلصوا من كل الأوزار والأخطاء الانحرافات التي ارتكبوها على مدى تاريخهم الطويل ، كانت فرصة أتاحها لهم السيد المسيح أن يجددوا دينهم ، ويخلقوا أو يعيدوا صياغة عقيدتهم صياغة جديدة تتوافق وتتلاءم مع روح العصر وحاجة العالم وطموح الإنسانية وظمئها الشديد إلى قيم الخير والعدل والجمال ، ولكن غلبت عليهم شقوتهم ،وينطبق عليهم قول الله – y في القرآن الكريم ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٧٨]

وقد أراد الله خيرا بالدعوة المسيحية أن رفضتها أورشليم وتآمرت على داعيها العظيم ، لأن لا ندري لو قبلت أورشليم تلك الدعوة ماذا كانت ستفعل بها ، وبأي صبغة ستصبغها ، وأي المسالك ستسير بها ؟ " فماذا لو استجاب المدعوون إلى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد !

إن استجابوا جميعا إلى الدعوة فقد دخلت الدعوة في نطاق ((العصبة العنصرية)) ولم يتغير بها شيء في غير ذلك النطاق المحدود "[1]

برفض اليهود للدعوة ، خلصت الدعوة وتطهرت من الأوشاب والأوضار ، وحافظت الدعوة على نقائها ووضاءتها ولينها وسماحتها .

برفض اليهود للدعوة، أعطت فرصة للدعوة أن تتجه إلى الإنسانية ، أو للإنسانية أن تحتضن تلك الدعوة ، وتأخذ الدعوة بيد الإنسانية لترتقي بها كما لم ترتق من قبل ، وتفتح لها آفاقا لتجلو حقيقة وعظمة الوجود الإنساني.

وفي النهاية صدق قول السيد المسيح عن أورشليم " يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين ، إليها كم أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة تحت جناحيها ولم تريدوا ، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأني أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب "[2]

١- عبقرية المسيح – (١٥٣)
٢- إنجيل متى – الإصحاح الثالث عشر

شخصية المسيح في القرآن

لا يعد القرآن مؤرخا لأحداث ما ، فليس هذا مـن مقاصـده ولا أهدافـه ولا غاياته ، ومن شاء التاريخ فليلتمسـه في مصـادر ومراجـع أخـرى غـير القـرآن ؛ لأن التاريخ عمل إنساني بحت لأحداث إنسانية خالصة ، والتاريخ يشتمل على كثـير مـن الخلافات والاختلافات والتناقضات ، والتاريخ يخضـع – فـيما يخضـع لـه – لأهـواء البشر المتغيرة ، وللأحوال والظروف وتقلباتها ، فقد يمجد قوما ويعلو بهـم في ظـرف ما وحال ما ، وقد يلعنهم ويزري بهم إذا تغيرت تلك الظروف والأحـوال ، والقـرآن يعلو ويسمو على كل ذلك .

والتاريخ مهموم بملامح الزمان وتعارج المكان وبينهما الإنسـان ، ومـا يطـرأ من تبدلات وتغيرات وتحولات عليهم ، بينما القرآن يهتم – ضمن ما يهتم به – بالسنن الكونية الثابتة المستقرة الدائمة

التي تنظم وتسير الكون ، و لا يعنيه ما يحدث من أحداث وحوادث بقدر ما يعنيه العظة والعبرة من تلك الأمور، والدروس المستفادة من كـل هـذا ." إن رحابـة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد ، طبقا لتعبير القـرآن نفسـه ، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنعام:٣٨] فهو يبدأ حديثـه مـن ذرة الوجـود المسـتودعة في باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحـو مسـتقره المعلوم وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني ، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمـس أدق الانفعـالات في هـذه الـنفس – وهـو يتجـه نحـو مـاضي الإنسانية البعيد ، ونحو مستقبلها ، كيما يعلمها واجبات الحيـاة ، وهـو يرسـم لوحـة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة ، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة

واعتبارا ، وإن درسه الأخلاقي لهو ثمرة نظرة نفسية متعمقة في الطبيعة البشرية تصف لنا النقائص التي ينهى عنها ، وينفر منها والفضائل التي يدعونا إلى التأسي بها من خلال حياة الأنبياء ، أولئك الأبطال الشهداء في سجل ملحمة السماء "[1]موقفه من التاريخ هو موقفه من الشخصية الإنسانية ، فهو لا يعرض الشخصية الإنسانية من كافة جوانبها وسائر ملامحها ، وليس معنى ذلك أن الشخصية في القرآن مطموسة الملامح ، غير محددة الصفات والقسمات ، ولكنه يعرض جوهر الشخصية غير مهتم بالتفاصيل أو الملامح العارضة ، والسمات الطارئة ، فهو مهتم بالخطوط الرئيسة للشخصية ، بل بالخط الرئيسي الذي يميز تلك الشخصية عن ملايين الشخصيات ، وهو لا يعرض تلك الخطوط أو الخط عرضا مباشرا ، ولكن من خلال أقوال وأفعال الشخصية ويترك للقارئ أو الباحث أو الدارس بعد ذلك أن يكمل تصور أو تكوين أو تركيب تلك الملامح ، ولكن لابد أن يكون هذا التصور أو التكوين أو التركيب متسقا ومتفقا ومتوافقا مع ما عرضه القرآن .

مثل ذلك ما فعله رسول الله – ﷺ – وهو يقارن بين كل من شخصية الصديق وشخصية الفاروق بعدما عرض كل منهما وجهة نظره ورأيه بشأن أسرى ((بدر)) :

" إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال تعالى ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة إبراهيم:٣٦]

١ ـ الظاهرة القرآنية – مالك بن نبي –ترجمة د. عبدالصبور شاهين - (٢٧٩- ٢٨٠)

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة:٣٦]

ومثلك يا عمر كمثل موسى ÷ إذ قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس:٨٨]

ومثلك يا عمر مثل نوح إذ قال تعالي ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس:٨٩]فإن شخصية الصديق في الرفق واللين والرحمة والتسامح ، مثل شخصية إبراهيم وعيسى – عليهما السلام – . وشخصية عمر في الشدة والصرامة والحزم والحسم والحدة مثل شخصية موسى ونوح – عليهما السلام وكان منهج الرسول – صلى الله عليه وسلم – في تحديد وتوضيح هذين النموذجين من خلال أقوال الشخصية، والقول يظهر ويجلي موقف الشخصية ، كأفضل ما يكون الظهور والتجلية ويكفي للإنسان أن يعرف الشخصية التي أمامه من أي النوعين أو القسمين أو النموذجين ، ثم بعد ذلك يتسنى له أن يستخلص ويستنتج بقية ملامح وسمات الشخصية ويبني على هذا الجوهر والحقيقة بنيان الشخصية ، ولكن هل نماذج البشر التي لا تعد ولا تحصى تنحصر تحت هذين النموذجين فقط ؟

إن هذين الأمرين – اللين والشدة – كالقطبين الرئيسيين اللذين تدور حولهما بقية الصفات والسمات والخصائص التي تميز الشخصية بصفة عامة ، أو هما كالعنوان الرئيسي ثم بعد ذلك يمكنك أن تدرج ما تشاء من تفاصيل أو ما تشاء من تفريعات ، قد تتناقض في الظاهر مع العنوان الرئيسي ، فمثلا النموذج الموسوم أو الموصوف

باللين قد يشتمل على الشدة ، ويجنح إلى الغلظة والفظاظة، ولكن يظل المزاج العام للشخصية هو اللين ، فمن خلال دراستنا لشخصية الصديق أبي بكر – وهو اللين الحليم الرقيق – وجدناه في بعض المواقف وبعض التصرفات في غاية الشدة والعنف ، لدرجة أنه تجاوز شدة عمر ، كذلك الأمر مع عمر ، ففي بعض مواقفه وتصرفاته تجاوز لين الصديق ، ولكنها كلها تصرفات وأفعال طارئة واستثنائية ، لها ما يبررها ، ولها أسبابها ودوافعها ، ويدل هذا على تمام وكمال الشخصية الإنسانية ، ويدل على أن النموذج الإنساني للشخصية ليس نموذجا جامدا أو متحجرا ، ولكنه نموذج مرن ويستجيب بل ويتناغم مع المستجدات ، أو ما يستوجبه ويقتضيه الموقف ، والشخصية التي تقتصر على سمة واحدة أو خصيصة واحدة لا تتغير ، ولا تستجيب للمواقف المتغيرة هي شخصية بها نقص واعوجاج وانحراف ، فمن الممكن أن يكون الإنسان شديدا وفي نفس الوقت رحيما ، شديدا مع ما يستدعي الشدة ، رحيما مع من يقتضي الرحمة : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [سورة الفتح:٢٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة المائدة:٥٤]

والمسيح نفسه هو آية من آيات اللين والتسامح والرفق والحلم والرحمة ، تحدثنا عن شدته في فصل من فصول هذا الكتاب ، وشدة المسيح كان لها ما يبررها ، وكان لابد للمسيح أن يكون شديدا وفق ما اقتضته الظروف والأحوال، وهذا دليل على تكامل وكمال شخصيته .

دوافع رسم الشخصية في القرآن :

ليس ثمة من مبرر لرسم شخصية من شخصيات الأنبياء ، فهم الصفوة المختارة من خلق الله ، وقد كملهم وأتمهم الله ، ليكونوا في نهاية الأفق الذي تطلع إليه الإنسانية حينما تلتمس الكمال الخلقي والخلقي ، بل هم يتجاوزون هذا الأفق بمراحل ، ومع ذلك فإننا نجد القرآن الكريم مع بعض الأنبياء يؤكد على هذا الكمال ، بل نجده ينفي ويرحض عنه بعض الأمور التي لا تصدر عن نبي أو رسول ، ومبرر ذلك أن هناك أكاذيب وافتراءات وترهات قد أحيطت ولصقت ونسبت إلى النبي من المعاصرين له أو ممن جاء بعده ، وأصبحت تلك الأكاذيب والافتراءات والترهات كأنها حقائق ثابتة وراسخة ،فكان لزاما على القرآن أن يقوض أساس تلك الأكاذيب والافتراءات ، ويبين مدى تهافتها ، ويرد تلك الأكاذيب والافتراءات إلى مصدرها ، ليبين مدى بشاعة وشناعة وجرم المفترين على الله وعلى نبيه ، فما كان الله ليذر نبيا من أنبيائه عرضة لهؤلاء يشوهون ويمسخون ويفترون على أفضل خلقه ، وما كان الله ليترك كتبه المقدسة ينالها تزوير أو تحريف ، لذلك جاء القرآن خاتم الكتب السماوية ، ليس هذا فحسب بل ومهيمن عليها ، ومعنى المهيمن المصحح والمدقق والمرجع والموثق ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة المائدة:٤٨]

والمراد بالكتاب الأول: القرآن الكريم وأل فيه للعهد.

والمراد بالكتاب الثاني : جنس الكتب السماوية المتقدمة فيشمل التوراة والإنجيل وأل فيه للجنس وقوله (ومهيمنا عليه) أي : رقيبا على ما سبقه من الكتب

السماوية المحفوظة من التغيير ، وأمينا وحاكما عليها ؛ لأنـه هـو الـذي يشـهد عليها بالصحة ، ويقـرر أصـول شرائعهـا قـال ابـن جريـر : وأصـل الهيمنـة الحفـظ والارتقاب . يقال : إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده : قد هـيمن فـلان عليـه . فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن "[1] فكان لابد وأن يكون له موقف من أهم كتـابين سماويين – التوراة والإنجيل – فهو يعيدهما إلى مكانهما الصحيح بعدما انحـرف بهـما أصحابهما ، وأيضا يخلصهما من التزوير و التزييف والافتراءات التي لحقـت بهـما عـلى مدى التاريخ وكشف وإظهار وتوضيح مواقف اليهود ودوافعهـم ومقاصـدهم مـن الأنبياء بصفة عامة وموسى بصفة خاصة ومن عيسى بصفة أخص ،

" فإن القرآن يؤكد مستعلنا صلته بالكتاب المقدس ، فهو يطلب دائما مكانه في الدورة التوحيدية ، وهو بهذا وبذاك يثبـت – باعتـداد – التشـابه بينـه وبـين التـوراة والإنجيل ، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة ، ويلفت إليهـا النبـي نفسـه كلـما جـدت مناسبة وهناك فيما نذكر آية تنص خاصة عـلى تلـك القرابـة : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة يونس:٣٧] وعلى كل ، فإن هذا القرابة تسم القرآن بطابعها الخـاص ، فهو في كثير من المواضيع يبدو مكملا أو مصححا معلومات الكتاب المقدس .

وعلى الرغم من أن القرآن يعلن بكل وضوح هذا التشابه والقرابة إلى الكتـب السابقة ، فإنه يحتفظ بصورته الخاصة في كل فصل من فصول الفكرة التوحيدية "[2]

ونحن مضطرون – بل مجبرون – أن نأخذ برواية وكـلام القـرآن عـن السـيد المسيح إذا تعارضت الروايات والأقوال فيما بينه وبـين الإنجيـل " لقـد امتـاز القـرآن الكريم بميزة فريدة انه تنقل منذ أربعة عشر قرنا دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي –المجلد الرابع – (١٧٩)
٢- المصدر السابق – (٢٨٥- ٢٨٦)

ريب ،وليست هذه حال العهد القديم (التوراة) الذي لم تعترف له بالصحة الدراسة النقدية للشراح المحدثين ، فيما عدا واحدا من كتبه : هو كتاب (أرمياء)وليس العهد الجديد (الإنجيل) بأسعد حالا ، فقد ألغى أساقفة (نيقية)كثيرا من أخباره ، مما زرع الشك حول ما تبقى منه ، وهو (الإنجيل).

وهذا الأخير بدوره لا يعد الآن من الصحاح : لأن النقد أثبت أنه قد (وضع) بعد المسيح بأكثر من قرن . أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية ، وعلى هذا فإن شكوكا كثيرة تحوم حول القضية التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية "[1]

وليس معنى أننا ندرس في هذا الباب شخصية المسيح في القرآن ،وفي الباب السابق درسنا شخصية المسيح في الإنجيل ، أنه يوجد خلاف أو اختلاف بين الاثنين ، وإلا يكون هناك شخصان وليس شخصا واحدا ، ولكن المقصود أن القرآن كشف وأبان عن جانب من شخصية المسيح والأناجيل أظهرت وأبدت لنا جانبا آخر أو جوانب أخرى ، ولكن كما هو معروف بأسلوبين مختلفين ، أو اختلاف زاوية النظر إلى الشخصية ، - وأيضا – حسم القرآن قضايا متعلقة بشخصية المسيح ، وموقف اليهود منه ، ودحض وفند كثيرا من الافتراءات .

وقد كان القرآن - كعادته – مقتصدا مختصرا موجزا في الحديث عن الشخصية ، لا تعنيه الأزمنة والأمكنة ، ولا تفاصيل الأحداث والحوادث ، لأن كل أولئك إن لم يسهموا في إظهار وتجلية الشخصية لم يؤدوا المقصود منهم ، ومن الممكن ألا يهتم بالأزمنة والأمكنة والأحداث بقدر الاهتمام بخطوط وجوانب الشخصية ، ومن الممكن – في أحوال ما – أن تصل إلى غاية بدون الاستعانة بالوسائل ، أو تستعين بالوسائل بطريقة مرشدة ، كي لا تلهيك أو تشغلك الوسيلة عن الهدف أو الغاية .

١- المصدر السابق – (١٥٣- ١٥٤)

- فليس هناك ذكر للأمكنة التي أمضى فيها المسيح سني عمره .
- وليس هناك ذكر للزمان بالتحديد أو التعيين .
- وليس هناك ذكر لكل الأحداث والحوادث .
- وليس هناك ذكر لفئات وأصناف أهل الكتاب .

وإنما هناك دعامات وأساسيات للشخصية ، يقدمها القرآن في مشاهد أو مقاطع أو لوحات حية في أكثر من سورة ، ليتسنى لنا بعد ذلك أن نجمع ونوفق بين تلك المقاطع أو المشاهد أو اللوحات لنخرج بعد ذلك بشخصية المسيح .

وأهم جانب حرص القرآن على إظهاره وتجليته هو جانب العبودية والخضوع والقنوت المطلق من المسيح لله – y - ، ولم يستخدم القرآن الأسلوب التقريري لإظهار هذا الجانب ، ولكنه ترك المسيح بنفسه يجليه ، ومن خلال ذلك تظهر لنا شخصيته النبيلة الوضاءة الجميلة الجليلة :

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ المائدة:١١٩:١١٦

لو لم يرد في القرآن كله إلا تلك الآيات التي تحدث فيها المسيح لتبين وتجلي وتظهر شخصيته الجليلة ، فحسبنا تلك الآيات ، شخصية بلغت الذروة في الأدب والإذعان والخضوع المطلق لله ، واعتراف – كذلك – بالعبودية المطلقة لله ، فهو لم ينف عن نفسه هذا القول بداية ، وإنما بدأ بالتنزيه للذات العليا المقدسة ، فهي تستحق

كل تعظيم وتوحيد وإجلال ، وإذا صدر شيء من المخلوقات إزاء تلك الذات فينبغي أن يصدر كل ما يليق ويتناسب مع ما تتصف به الذات ، ثم بعد ذلك يتحدث عن نفسه ، فهو شخص يعرف حقوقه وكذلك حدوده مع الخلق ،وهو أشد معرفة وأشد التزاما بحدوده مع الذات العليا ، والقول الذي نسبه الناس إليه ليس من حقه ، حتى إن كنت قلته فأنت تعلمه ، وتظهر هنا أيضا ملامح شخصيته أنه لا يجد فرصة لتعظيم الله – y – إلا وانتهزها ، فأنت يا الله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، ليس هذا فحسب بل أنت علام الغيوب ، فكيف أتجرأ وأساوي ذاتي بذاتك ، وأنا قلت لهم ، وانحصر كل قولي في الذي أمرتني أن أبلغه لهم وهو عبادة ربي وربكم ، وأنا كنت قائما عليهم ما دمت بينهم ، فلما توفيتني ، أصبحت أنت الرقيب عليهم ، ومع ذلك فإذا صدر هذا القول عنهم ونسبوه إلي ، فالمرجع إليك وحدك ، فإن أوقعت عليهم العذاب فهم يستحقونه ، وإن تغفر لهم ، فأنت أهل للغفران لأنك أنت العزيز الحكيم ، وهنا تفويض مطلق لمشيئة الله – y – وكأن المسيح هنا ينفي إرادته ومشيئته بل ينفي وجوده أمام مشيئة وإرادة الله .

ومع عظيم وخطير ما نسبوه إليه ، لا نلمح أي غضب أو نقمة أو حزازة في نفسه ، لم تشغله التهمة والافتراء ، ولا المتهمون والمفترون ، كل ما شغله وأهمه أن يبرأ نفسه أمام خالقه ، وبقيت نفسه صافيه كصفاء السماء في ليلة صيف، بل توقع الغفران كما توقع العذاب ، " وقد قال بعض المفسرين هنا : كيف جاز لعيسى أن يقول :﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ – تعالى – لا يغفر أن يشرك به ؟ وقد أجاب عن ذلك الإمام القرطبي بقوله : قول عيسى ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والرأفة بهم ، كما يستعطف السيد لعبده ، ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك . وقيل قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه ، وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر "[1]

١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – (٣٥٢)

وفي سورة أخرى يتحدث عن نفسه ، وأول شيء يقره ويعترف بـه ، عبوديتـه لله ، ثم بعد ذلك مؤهله ، ودوره الذي سيقوم به ، وما أنعم الله به عليه، وما أوصـاه به الله ، وأنه محب وعطوف على أمه ، وأودع في قلبه الحب والرحمة والتسـامح واللـين ،ويرجو أن يكون بريئا من الآفات في دينه وفي نفسه ، سليما من العيـوب والنقـائص ، في جميــع أحوالـــه . ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [ســورة مــريم:٣٣] " فأنت ترى أن عيسى –عليه السلام- قد وصـف نفسـه بمجموعـة مـن الصـفات الفاضـلة افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التـي لا حـق سواها ، ولتحذير أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ، أو هو مشـارك لـه في العبادة .. واختتمها برجاء الأمان له من الله – تعالى – في كل أطوار حياته " [1]

وهنا موقف آخر يظهر جوانب من شخصية عيسى – عليه السلام – حينما سـأله الحواريـون أن يطلب من ربه إنزال مائدة مـن السـماء ،﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة المائدة:١١٤]

وهو موقف – بحق – محرج ، فهو إن طلـب مـن الله مـا طلبـوه منـه ، فهـذا سيقدح في إيمانهم ، وفي نفس الوقت سيقدح في نبوته ، سيقدح في إيمانهم لأنهم مازالوا في حاجة إلى أدلة وبراهين مادية لتعينهم وتساعدهم على أن يكتمل إيمانهم ، إذن فهم

١ـ المصدر السابق – (٣٥)

ناقصوا إيمان ، وسيقدح في نبوته ؛ لأنه بعد كل ذلك لم يستطع أن يقنعهم ويقودهم إلى درجة من الإيمان ثابتة وراسخة ، لا يطلبون بعدها ما يقوى إيمانهم ، لذلك حاول عيسى – عليه السلام – أن يراجعهم فالأمر ليس بتلك السهولة لأنه كاشف وفاضح عما في نفوسهم من شك وتردد ، فهو امتحان لعيسى ، واختبار لتلك العلاقة التي تربط المسيح بخالقه ، فهو لم يطلب من ربه شيئا ، وإنما الله – y – هو الذي ينعم عليه بجليل النعم بدون أن يطلب أي شيء، لذلك كان رده " اتقوا الله وقفوا عند حدوده ، واملأوا قلوبكم هيبة وخشية منه ، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان ،فإن المؤمن الصادق في إيمانه يبتعد عن أمثال هذه المطالب التي قد تؤدي إلى فتنة " [1]

إلا إن الحواريين كان لديهم من الأسباب المبررة – من وجهة نظرهم – لطلبهم وقد عددوا تلك الأسباب : " **أولها** : أننا نرغب في الأكل منها لننال البركة ، ولأننا في حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك .

وثانيهما : أننا نرغب في نزولها لكي تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه عن ربك . **وثالثها** : أننا نرغب في نزولها لكي نعلم أن قد صدقتنا في دعوة النبوة ، وفي جميع ما تخبرنا به من مأموريات ومنهيات ، لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية ، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك في نبوتك .

ورابع هذه الأسباب : أننا نرغب في نزولها لكي نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، ليزداد الذين آمنوا منهم إيمانا ، ويؤمن الذي عنده استعداد للإيمان " [2]

١- المصدر السابق – (٣٣٩)
٢- المصدر السابق – (٣٣٩)

وربما كان يود المسيح أن يصرف الحواريين عن طلبهم هذا ، ولكن ما عرضه الحواريون من مبررات طلبهم وضع المسيح في موقف حرج ، أو زاد من حرج موقفه ، ولكن ما كانت تلك المواقف تعجز المسيح أن يخرج منها ظافرا منتصرا ، فهو مؤيد بروح القدس ، ومن ناحية أخرى شخصيته العظيمة ، فهو لم يعرض على الله – y – ما عرضه الحواريون ، وهذا هو الفارق بين شخصية النبي وشخصية غيره ، والفرق – أيضا – بين أن يطلب مخلوق من مخلوق شيئا ، وأن يطلب نبي من خالقه شيئا ، فالمائدة التي طلبها الحواريون تتناسب مع مكونات شخصياتهم ، أما المائدة التي طلبها عيسى ، فتختلف عن مائدة الحواريين ، وتتفق تمام الاتفاق مع مكونات شخصية المسيح ،ومن ناحية أخرى تتناسب مع مقام الذات العليا ، فلم تعد المائدة التي طلبها عيسى مجرد خوان عليه العديد من الأطعمة ، وإنما أصبحت عبدا ربانيا لأن الله – y – أنعم بها على عباده ، ويفيض المنعم على عباده من فيوض كرمه وسخائه ، فليس هناك سعادة وابتهاج أكثر من ذلك .

" قال عيسى بضراعة وخشوع – بعد أن سمع من الحواريين حجتهم : ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾ أي يا الله يا ربنا ومالك أمرنا ، ومجيب سؤالنا . أتوسل إليك أن تنزل علينا مائدة ﴿ مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : أطعمة كائنة من السماء ،هذه الأطعمة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ أي يكون يوم نزولها عيدا وسرورا وبهجة لمن سيأتي بعدنا ممن لم يشاهدنا " [١]

" وقد جمع عيسى في دعائه بين لفظي ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾ إظهارا لنهاية التضرع وشدة الخضوع ، حتى يكون تضرعه أهلا للقبول والإجابة .وعبر عن مجيء المائدة بالإنزال من السماء للإشارة إلى أنها هبة رفيعة ، ونعمة شريفة آتية من مكان عال

١ـ المصدر السابق (٣٤٠)

مرتفع في الحس والمعنى ، فيجب أن تقابل بالشكر لواهبها – ﷻ – وبتمام الخضوع والإخلاص له .

قال الفخر الرازي : تأمل في هذا الترتيب ، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضا، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ ﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية . فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحية وبعضها جسمانية .

ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكر الرزق انتقل إلى الرازق ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ لم يقف عليه : بل انتقل من الرزق إلى الرزاق﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فقوله : (ربنا) ابتداء منه بذكر الحق ، وقوله (أنزل علينا)انتقال من الذات إلى الصفات.وقوله ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة ، بل من حيث إنها صادرة من المنعم .

وقوله (وآية منك) إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال وقوله ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ إشارة إلى حصة النفس .

ثم قال الإمام الرازي : فانظر كيف ابتدأ بالأشرف نازلا إلى الأدونفالأدون ، ثم قال ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، ومن غير الله إلى الله ، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها "[1] لم يكن القرآن مضطرا أن يتحدث عن طبيعة المسيح ، لأن الأمر ليس في حاجة إلى إثبات أمر ما أو نفيه ، أو إقراره ، فبشرية المسيح أمر مفروغ

١- المصدر السابق (٣٤٠- ٣٤١)

منه وشيء بديهي ، وأي إنسان لديه ذرة من عقل لابد أن يقر ويعترف بذلك ، فلا أحد يشك في بشرية آدم ، قياسا على هذا فلا يجب أحد أن يشك في بشرية المسيح وقد عبر القرآن عن ذلك ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران:٥٩] ولكن لأن هناك شبهات أثيرت حول طبيعة المسيح ، أو قل هي مغالطات اختلقت عن عمد لتشويه شخصية المسيح واغتياله معنويا كما فصلنا القول في الباب السابق ، وأهم تلك المغالطات ، مغالطتان ، الأولى تأليه المسيح ، والثانية قتله . لذلك جاءت آيات لتدحض وتبطل تلك المحاولات ، لتعيد المكانة الحقة لشخصية المسيح ، وبالنسبة للمغالطة الأولى يعصف القرآن بكل ما قالوه وينسفه نسفا : ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة النساء:١٧٢] إذن هو نوع من الغلو الذي لا مبرر له ، وافتراء على الله ، وكان اليهود وغيرهم في غنى عن ذلك ، ولكن كيف تبقى شخصية المسيح راقية سامية وضاءة بدون أن تشوه وتحرف ويفترى عليها . أن ترد إلينا سيرة السيد المسيح بدون تحريف ، فهذا ما يدعو إلى العجب والاندهاش ، لأن المسيح قد أمضى سنوات عمره بين اليهود ، لاسيما تلك المدة القصيرة التي دعا فيها ، واليهود يعتبرون أنهم هم – وحدهم – المعنيون برسالة المسيح " المسيحية إذن تنبع أساسا من حركة يهودية . وهي تبدو أولا وعلى وجه التشخيص كظاهرة تهم الحياة الدينية لليهود "(المسيحية نشأتها وتطورها (٣٤))، وهؤلاء عرف عنهم التحريف ،

وتعاطوه وداوموا عليه حتى أصبح سمة وعلامة وخط رئيس من خطوط شخصياتهم ، أو أنه صار طبعا ثابتا ومزاجا أصيلا فيهم ، وقد جلى القرآن الكريم هذا الأمر في أكثر من سورة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء:٤٦]

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة المائدة:١٣]

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة:٤١] في موضع آخر بين القرآن شناعة ما يفترونه ، ووصمهم بالكفر الصريح نتيجة قولهم هذا ، لأن بقولهم هذا لم يفتروا على المسيح ، ولكنهم أشركوا بالله ،﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة المائدة:١٧]

ويبن القرآن موطن الفساد وأن آفة الآفات في النفوس المعتمة والعقول المظلمة ، التـي ضلت وأضلت ، وفسدت وأفسدت ، وأن هؤلاء خرجوا أو أخرجوا وانحرفوا

بنفوسهم عن الطبع القويم ، لأنهم لو تركوا نفوسهم على سجيتها وفطرتها لقادتهم وأرشدتهم ، إلى حقيقة واضحة وضوح الشمس ، والكون كله يدل دلالة بينة على ذلك ، أن الله واحد لا شريك له في الملك والوحدانية ، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة التوبة:٣٢]

أما المغالطة الثانية وهي قتل المسيح ، وهو ادعاء باطل ، ولو لم يكشف القرآن حقيقة هذا الأمر لأصبح الباطل حقا ، والتزوير واقعا ، وكأن القرآن ضبطهم متلبسين ، وسجل اعترافهم ، لا أنهم قتلوا المسيح حقيقة ، ولكن لأن النية والقصد والعمد توافر لديهم ، فهم مجرمون وسفاكون دماء حتى ولو لم يقتلوا المسيح ، وهم بالفعل لم يقتلوه ، وقد رد الله – y – كيدهم في نحورهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء:١٥٨]

"فإن الرواية القرآنية مستقلة تمام الاستقلال عن الفكرة اليهودية المسيحية التي ترى– من زوايا مختلفة – في صلب المسيح حقيقة تاريخية ، فإذا بالقرآن يؤكد في هذا الموضوع ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة النساء:١٥٧] هذه الرواية الأصلية في القرآن لا تتفق مع أية وثيقة يهودية مسيحية ، ومن جهة أخرى تترك مخطوطات المسحيين الأول الباب مفتوحا لجميع

الفروض عن نهاية المسيح وعن مدة رسالته .

و(وإيرينيه *irene*)- الـذي ذكـره الأسـتاذ (موننتييـه *montet*) باعتبـاره الشاهد الأول على وثاقة إنجيل القديس يوحنا – يعـترف في نهايـة القـرن الثـاني بـأن المسيح ظل يعلم الناس حتى سن الخمسين ، خلافا للرواية الحالية التي تفيـد أنـه قـد انتهت رسالته في سن الثانية والثلاثين ، فلو أننا أردنا أن نـرد – بـأي ثمـن – التـاريخ التوحيدي القرآني في هذه النقطة إلى مصدر مسيحي ، فمن الممكن أن نقرب جزئيا بين رأي القرآن عن اختفاء المسيح ورأي النظرية الدوسيتية *doctrine docetiste* الذي يقرر صراحة (الموت الظاهر) للمسيح تبعا لإنجيل بطرس .

هذا التقريب يظل على الرغم من هذا جزئيا ، لأن القرآن يعـد مولـد المسـيح وحياته وقائع أرضية لا تقبل الجدل ، بينما تضع الدوسيتية*le docetisme* كل هذا في نطاق فهم عام لفكرة (الظاهرة) وهكذا يمكن أن تتبع خطوة خطوة الفكرة القرآنيـة والفكرة الكتابية ، لنجد فيها فيما يتصل بالأصـول التاريخيـة موضـوعات مشـتركة لا تنكر ، ولكنا نجد أيضا كثيرا من نقط التباعد والاختلاف . "[1]

وبذلك يدرج القرآن الكريم السيد المسيح في مكانه الصحيح مع بقية الأنبياء والرسل المكرمين ، وقد أظهر وأبان بكل وضوح وجلاء عن ملامح شخصه الجليل ، مبطلا كل أقاويل وافتراءات أعدائه وخصومه الذين أرادوا اغتيالـه معنويـا وماديـا ، ويبقى أن تلتفت إليه الإنسـانية - كـما تلتفـت إلى بقيـة الأنبيـاء والرسـل ، لأنهـم – وحدهم – القادرون على إخراج الإنسانية من مأزقهـا ومحنتهـا ، ويرشـدونها إلى عـالم الأمن والسلام .

١ـ الظاهرة القرآنية (٣٩٢ـ ٣٩٣)

الخاتمة

بماذا نختم هذا الكتاب ؟!

إنه ليس كتابا كما قلت في المقدمة ، ولكنه محاولة جادة للاقتراب من شخصية نبيلة وقفت طويلا أمام الإنسان ، وأظنها استعرضت ماضيه وحاضره واستشرفت مستقبله ، وعرفت سر شقائه ، ووصلت إلى طرق وسبل ، ليس إلي محو هذا الشقاء والتخلص منه ، ولكن إبداله إلى سعادة .

نعم ، إن هموم المسيح لم تكن منحصرة في تخليص الإنسان من شقائه فحسب ، ولكن كان أكبر هموم المسيح ، كيف يخلق من هذا الإنسان مخلوقا سعيدا ، نعم ، فقد يمضي الإنسان عمره الطويل أو القصير وهو لم يذق للسعادة الحقيقة طعما ،جاهلا أن هناك شيئا يسمى بهذا الاسم ،وجاهلا – كذلك – بقيمة وأهمية هذا الشيء ، وجاهلا بمدى بشاعة الوجود إذا خلا من السعادة الحقيقة ، وأن السعادة – الحقيقة – لا توجد ولا تكون إلا إذا كان لوجودك معنى وهدف – حقيقي – وأن الذي يجعل لوجدك معنى وهدف أنك تعيش للآخرين ومن أجل الآخرين ، وأظن أن المسيح وصل إلى أن يكون أسعد المخلوقات حينما كان يسير في الحواري والوديان والحقول يشفي هذا من مرضه، ويرد لهذا بصره ، ويخلص هذا من شلله ، ويصفح عن هذا زلته وخطأه ، ويشيع في قلب هذا الأمل والرجاء أن يرضى الله عنه ، ويدخل إلى ملكوته ، والأهم من كل هذا أنه قدم للإنسانية ((الوصفة)) النبوية لكي تشفي من أعضل أمراضها: الكره والحقد والطمع والشره والغضب والانتقام والظلم والاستبداد ، والأثرة، والأهم أن المسيح انتصر للإنسان ، من خفافيش الظلم والظلام الذين يستعبدون الإنسان تحت أي مسمى ، لاسيما إذا كان هذا المسمى ينتسب إلى الدين ، وقال : " إني أريد رحمة لا ذبيحة " ، وقال " لقد جعل السبت للإنسان ، ولم يجعل الإنسان للسبت " وبذلك خلص الدين من الشعارات الزائفة ، والمظاهر الكاذبة الخادعة ، وأعاد

للدين جوهره النقي الطاهر ، وأنه – الدين – علاقة حميمة طاهرة مقدسة بين الخالق والمخلوق ، بدون أن تكون هناك واسطة بينهما ، وحرر الإنسـان مـن الأوهـام والخرافات والترهات ، التي كانت تعزل وتفصل بينه وبين الحياة المشرقة باسم الـدين ، فالدين لـيس زواجـر وروادع وترهيـب وتخويـف بالنـار والجحـيم ، ولكنـه رحمـة وتسامح ووعد بالصفح والغفران ، حتى أمام الخطاة والمذنبين ، وأمل ورجاء أن يفتح الله لعباده أبواب التوبة ، وينعم جميع خلقه بالأمن والسلام وهم مستظلون في رحابة ، ومشتملون برعايته وعنايته .

سيرة ذاتية

الاسم : محمود محمد محمود القليني .

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة عضوية عاملة رقم ١٩٧

الإيميل : elkellenymahmoud@yahoo.com

الهاتف :٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤- ٠٢٠١٠٢٥٥٤٤٨٥٦

الأعمال المنشورة :

أولا : في المسرح :

١. مسرحية: (إخناتون والكهنة) جهة النشر : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٤

٢. مسرحية : (مصرع الخُرساني) جهة النشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة عام٢٠٠٢.

٣. مسرحية :(محنة الإمام أحمد بن حنبل) جهة النشر : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٧

٤. مسرحية : (بلد راكبها عفريت) جهة النشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة عام ٢٠١٠.

٥. مسرحية : (بوظا في مجلس الشعب) دليل النصوص المسرحية – الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٦. مسرحية : (غائب لا يعود) دليل النصوص المسرحية – الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٧. مسرحية : (محاكمة الحمير) منشورة في المجلة الإلكترونية (الفنون المسرحية) مدير الموقع : (حسين نصار) .

٨. مسرحية : (البلطجية اشتكوا) منشورة في المجلة الإلكترونية (الفنون المسرحية) مدير الموقع (حسين نصار) .

٩. كتاب : (الأدب في مسرح الطفل) جهة النشـر : العلم والإيمان للنشـر والتوزيع بدسوق عام ٢٠١٥

ثانيا : في الروايات والقصص :

١. رواية:(الإسكندرية عناقيد العشق والغضب) جهة النشـر : مكتبة بستان المعرفـة عام ٢٠١١.

٢. رواية :(الجنوب الهادئ) جهة النشـر :الهيئة العامة لقصور الثقافة عام : ٢٠١٤

٣. رواية : (الدجال والشيطان) جهة النشر : مكتب معروف للنشـر والتوزيع عـام ١٩٨٥

٤. (إنهم يذهبون) مجموعة قصص قصيرة ، جهة النشر : دار الشعب بالقـاهرة عـام ١٩٨٣.

٥. رواية : (قوس قزح) مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠١٧ (تحت النشر)

٦. رواية : (الخروج من الجلد) مكتبة بستان المعرفة بكفـر الـدوار ٢٠١٧) (تحـت النشر)

ثالثا : في الكتب :

١. (الفكر الإسلامي ومستجدات العصر) جهة النشر :المجلـس الأعـلى للشـئون الإسلامية بالقاهرة عام ٢٠٠٥ .

٢. (أمير الصحافة العربية) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠٠٩

٣. (العمرية ..في رحاب عمر بن الخطاب) جهة النشـر: مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠٠٧

٤. (عش حياتك سعيدا ولا تحزن) جهة النشـر: مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠٠٤

٥. (الثورة في وجدان المصريين) جهة النشـر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١٢.

٦. (الباحثون عن الله) جهة النشر مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠١٣.

٧. (شخصية موسى النبي) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١١ .

٨. (شخصية المسيح) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١٤.
٩. (شخصية النبي محمد ﷺ) جهة النشر: مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١٤
١٠. (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) جهة النشر: مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠١٥.
١١. (الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني) جهة النشر: مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠١٥.
١٢. (النساء فقدن عروشهن) جهة النشر:مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة.
١٣. (نحو تفسير علمي للأحلام) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٧(تحت النشر)
١٤. (الخليل إبراهيم ..رحلة في المكان وسياحة في الزمان) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٧.

الجوائز الحاصل عليها:

١. جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (محنة الإمام أحمد)
٢. جائزة (ملتقى جائزة أبها) بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية (محنة الإمام أحمد) عام ١٤١٧هجرية.
٣. جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (إخناتون والكهنة) .
٤. جائزة التأليف المسرحي من مجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (مصرع الخرساني) .
٥. جائزة الدراسات النقدية عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) من المجلس الأعلى للثقافة.

٦. جائزة الدراسات النقدية عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب المازني)

٧. جائزة المقالة النقدية عن دراسة في قصة (الطريق) لنجيب محفوظ ،من المجلس الأعلى للثقافة .

٨. جائزة من نادي القصة بالقاهرة عن رواية (قوس قزح) عام ٢٠٠١

٩. جائزة مسابقة التأليف المسرحي للكبار من الهيئة العربية للمسرح – الشارقة– ٢٠١٦ عن نص بعنوان: (غائب لا يعود) .

١٠. الوصول إلى القائمة القصيرة لمسابقة الكتابة المسرحية للأطفال خيال علمي، التي تنظمها الهيئة العربية للمسرح–الشارقة ٢٠١٧ عن نص مسرحي بعنوان (الأرجواني السماوي)